

أعلام العرب

٦٦

# ابن زيدون

تأليف

على عبد العظيم

يونيه ١٩٦٧

دار  
الكاتب  
العربي  
للطباعة  
والنشر



أعلام العرب

٦٦

# ابن زيدون

تأليف

على عبد العظيم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى  
آله وصحبه ومن اقتدى بهم وسار في سبيلهم بقوة وعزم وإيمان .

### مقدمة

ابن زيدون علم من أعلام الأدب العربي الممتازين ، وقمة باذخة  
من شواهد الأدب الأندلسي الرفيع ؛ ترك أثرا خالدا في الأدب العربي  
بما أبدعه من نظم رقيق ، ونثر أنيق ، وسياسة بارعة وحكمة بالغة  
وتصنيف محكم إقيم ، وتوجيه رشيد سديد .

وسنرى من خلال بحثنا أن آثاره الأدبية لم يتردد صداها  
في الأدب العربي وحده ، بل تعداه إلى غيره من الآداب . وظل يرسل  
أشعاعه الوضاء جيلا بعد جيل .

وعلى الرغم من أصالة مواهبه الأدبية وشهرته العظيمة فإنه  
لم ينل ما هو أهل له من التقدير ، فان الباحثين ومؤرخي الآداب  
لم يولوه ما يستحقه من عناية بالغة ولم يقبلوا على دراسة آثاره  
دراسة علمية دقيقة إلا منذ أمد قصير ومع إقبال الباحثين أخيرا  
على دراسة آثاره فإنها لا تزال بحاجة إلى معاودة البحث والتدقيق .  
ولا يكاد أديب يذكر الأندلس إلا ذكر معها فتاها الشاعر الرقيق

وكاتبها المبدع ابن زيدون ، ولا يكاد باحث يتناول الحب والغزل  
الا تناول حياة ابن زيدون وقصته العاطفية العميقة مع الشاعرة  
المتازة ولادة بنت الخليفة المستكفي ، ولا يكاد شاعر يتغنّى بالجمال  
الا هتف بنونية ابن زيدون :

أضحى التناثى بديلا من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومع هذا كله فان آثاره الأدبية لا تزال بحاجة الى البحث والنقد  
والتحقيق .

ولعل هذا راجع الى عوامل عديدة صرقت الباحثين عنه امدا  
طويلا ، بل عن الأدب الأندلسي جميعه الا قليلا .  
ومن أهم هذه العوامل :

**أولا -** فقد معظم الآثار الأدبية الأندلسية في النكبة التي حلت  
بالأندلس فقصت على معظم الآثار الإسلامية فيها . فقد استبد  
التعصب بالمسيحيين المنتصرين فغدروا بالمسلمين واستباحوا  
حرماتهم ، وأقاموا محاكم التفتيش التي أنزلت ببقية المسلمين أقسى  
ضروب الوحشية وأعنف أساليب النكال ، ولم تكتف بهذا  
بل انتقلت قسوتها الفاشمة الى تراث الحضارة الإسلامية فكادت  
تقضى عليه القضاء الأخير ؛ وفي هذا يقول « بلاسكو أبانيز المتوفى  
سنة ١٩٢٨ » :

« وماذا عمل ملوك أسبانيا الذين أتوا من الشمال بعد كل  
ذلك ؟ طردوا الحضارة من أسبانيا !! طردوا العرب واليهود وأحطوا  
محاكم الدين والتعصب !! ليست الملكة ايزابيلا هي التي وضعت  
نظام التفتيش ؟ ألم تطفئ أسبانيا في ذلك العصر سراج العلم الذي  
كانت تضيئه الجوامع الإسلامية .. » (١) .

(١) المجلد في تاريخ الأندلس للأستاذ عبد الحميد العبادي ص ٢٠١ .

« مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٨ » .

كما يقول ستانلى لين بول :

« أقنع الكاردينال شيمنيس الملكة ايزابيلا المتعصبة أن تصدر مرسوما تخير فيه العرب بين التنصر ومغادرة البلاد ، وجاء فى هذا المرسوم : أن أسلافهم كانوا مسيحيين وأن الكنيسة تعدهم - وهم من سلالتهم - مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهروا دينهم الموروث .. »

وبعد هذا المرسوم أغلق الكاردينال الحائق المساجد وأحرق المخطوطات والكتب النفيسة التى هى عصارة الفكر العربى فى عدة قرون .. (١) .

**ثانيا -** ما بقى من التراث العربى الأندلسى تبدد بين مكتبات العالم العامة والمكتبات الخاصة ، وبعضه لحقه التاف نتيجة الإهمال - ومعظم ما سلم من هذا التراث لا يزال مخطوطا رهن مكتبة الاسكوريال أو باريس أو المكتبة الأهلية فى برلين أو مكتبات استانبول أو غيرها من المكتبات : ولا تزال مكتبات عديدة بالبلاد العربية سواء بالمساجد أو فى الدور أو بالمكتبات العامة لم تفهرس فهرسة علمية دقيقة ، وقد بذلت إدارة المخطوطات بالجامعة العربية وهيئة اليونسكو جهودا مشكورة فى محاولة تسجيل هذا التراث ولكنها لم تتناول منه الا القليل . والأغلبية العظمى منه تكاد تكون مجهولة للباحثين .

**ثالثا -** ما تم طبعه من هذا التراث قليل جدا ، ومعظمه تم طبعه دون تحقيق علمى دقيق أو فهرس شاملة تيسر للباحثين الوصول الى أهدافهم العلمية من تحقيق هذا التراث النفيس . وحسبنا أن نشير هنا الى مثالين يدلان على عدم العناية الجدية بهذا التراث .  
**أولهما :** كتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو موسوعة أدبية كبرى

---

(١) قصة العرب فى اسبانيا للمؤرخ ستانلى لين بول ترجمة الاستاذ على الجارم طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٢٠٩ .

تلقى أضواء كشافة على تاريخ الأدب العربى بالأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، وقد حفظت لنا نصوصا أدبية قيمة لا نجد لها فى غيرها من المراجع الأندلسية . وهى مكونة من أربعة أقسام فى ثمانية مجلدات ضخمة حصلت عليها جامعة القاهرة وطبعت منها المجلد الأول سنة ١٩٣٩ والثانى سنة ١٩٤٢ ثم تركت المجلدات التالية وقفزت الى المجلد السابع فطبعت سنة ١٩٤٥ ووقف الأمر عند هذا الحد ؛ وقد سمعنا منذ سنوات أن الجامعة ستستأنف طبع بقية المجلدات ولكنها نية طيبة لا ندرى متى تخرج الى حيز الوجود . ومن الطبيعى أن ما تم طبعه من الكتاب لم توضع له الفهارس العلمية انتظارا لطبع بقية الكتاب !!

**ثانيهما :** كتاب نفح الطيب : وهو أكبر موسوعة أدبية أندلسية بين أيدينا الآن ، ويعتبر من أهم مراجع الأدب الأندلسى ان لم يكن أهمها ؛ وقد تم طبع الكتاب منذ أمد بعيد بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٦٢ م دون تحقيق علمى أو فهرس تفصيلية ، ثم حاول طبعه الأستاذ أحمد فريد رفاعى فطبع منه بضعة عشر جزءا ولم يستطع اكمال طبع باقى الكتاب ؛ ولقد صدر قسم من الكتاب فى جزءين فى ليدن سنة ١٨٦١ مشفوعا بجانب من الفهارس فى أكثر من مائة صفحة ، لكن هذه الفهارس على دقتها تناولت جانبا من الكتاب ، وأهملت وضع إفهارس النصوص الأدبية من شعر ونثر وخطابة على ما لها من أهمية كبرى فى هذا الكتاب . ثم نشر الكتاب كاملا الشيخ محيى الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩ فى عشرة مجلدات واكتفى بفهرس مجمل لكل جزء من أجزاء الكتاب . مع العلم أن النفع بهذا الكتاب القيم لا يمكن أن يتم دون وضع فهرس تفصيلية شاملة له ، لأن المؤلف ينتقل من موضوع الى موضوع دون مناسبة أو لأوهى المناسبات ، ويتناول كثيرا من الموضوعات فى أبحاث متفرقة بمواضع متباعدة من أجزاء الكتاب .

**رابعاً -** انصرف كثير من الباحثين ومؤرخى الآداب عن دراسة

الأدب الأندلسي لأنهم كانوا ينظرون إليه بوصفه صدى خافتا  
أو تقليدا غير متقن لأدب المشاركة ، وحكموا عليه هذا الحكم الظالم  
دون بحث أو تنقيب . وبعضهم تعصب لوطنه فاهتم بترائه الأدبي ؛  
وبقيت الأندلس مهملة لأنها ليس لها وارثون من أدباء العسرب  
المحدثين .

وحسبنا أن نشر الى كتاب خريدة القصر لمؤلفه محمد بن محمد  
ابن على الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو سفر ضخيم مكون من  
اثنى عشر مجلدا تناول فيه مؤلفه شعراء القرنين الخامس والسادس  
في العالم العربي في الشرق والغرب على السواء ، وقد عني رجال  
الأدب بنشر أجزاء هذا الكتاب كل فيما يخص وطنه وبقي المجلدان  
الحادي عشر والثاني عشر دون نشر حتى الآن ، لأنه ليس لدينا  
باحث أندلسي يعنى بنشر هذين الجزئين ، وقد حملت هذا العبء  
انا وصديقي الأستاذ عمر الدسوقي أستاذ الأدب العربي ورئيس  
قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة حيث قمنا  
بتحقيق هذين المجلدين وقد صدر الجزء الأول منهما والباقي تحت  
الطبع .

\*\*\*

ولكن الانصاف يقتضينا أن نشر الى أن طائفة من أعلام  
الباحثين بدأت تتجه حديثا الى الأدب الأندلسي محاولة نشر ما يقع  
بين أيديها من نصوص أدبية ، أو القيام بأبحاث نقدية تحليلية ،  
وبعضهم تقدم برسائل جامعية وبعضهم حاول القيام بكتابة تاريخ  
جامع للأدب الأندلسي ، ولكن هذه المحاولات لن تبلغ مداها الا بعد  
نشر التراث الأندلسي وتحقيقه طبقا للمناهج العلمية الدقيقة .

ولقد قاسيت عنتا كبيرا في كتابة رسالتي الجامعية « ابن  
زيدون : عصره وحياته وأدبه » لأن ديوانه طبع دون تحقيق علمي  
طبعة مليئة بالأخطاء والتصحييف والتحريف ناقصة عددا كبيرا من  
النصوص الأدبية ، فضلا عما أضيف إليها من شعر منحول .

فاضطرت اضطرارا الى تحقيق الديوان تحقيقا علميا استكملت فيه ما به من نقص ونفيت ما فيه من منحول وصححت ما فيه من أخطاء وشرحت ما فيه من ابهام ، ورجعت في هذا التحقيق الى أربع نسخ مخطوطة من هذا الديوان وأضفت اليها ما أغفلته مما عثرت عليه في مئات المصنفات ؛ ثم حملت مثل هذا العبء في تحقيق رسائله وآثاره النثرية . . وبعد هذا كله استطعت أن أخطو في بحشى في ثقة واطمئنان ؛ ثم حملت أشد من هذا العنت أنا وزميلي في تحقيق خريدة القصر - ولا نستطيع أن نجحد فضل فئة من أعلام المستشرقين نشروا طائفة من النصوص الأندلسية وكتبوا أبحاثا عميقة حول هذه النصوص ، من أمثال رينهاردت دوزى Reinhardt Dozy واميلىا غرسية غومس Emilio Garcia Goncz وليقى بروقنسال Levi Provençal وأنجل جنشال بالثيا Angel Gonzalez Palencia والدكتور نيكل A.R. Nykl وكوندى Condé وستانلى لين بول Stanley Lane Poole وأوغست كور Auguste Cour وهنرى بيريز Henri Pérès وغيرهم من كبار المستشرقين ، كما حاول كثيرون كتابة تاريخ الأندلس وقد بذلوا جهدا كبيرا في هذا السبيل ، ولكن نشر النصوص الأدبية والتاريخية والعلمية هو الوسيلة الأولى لنشر هذا التاريخ على منهج علمى قويم .

\* \* \*

والانصاف يقتضينا أن نقرر - على الرغم مما سبق - أن ابن زيدون لم يكن خاملا فشهروناه ، ولا منسيا فذكرناه . ولا مجهولا فعرفناه ، فقد كانت له منزلة في نفوس السابقين والمعاصرين جميعا . روى الصفدى (١) أن بعض الأدباء قال : « من لبس البياض وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وتفقه للشافعى ، وروى قصيدة ابن زيدون - النونية - فقد استكمل الظرف » .

(١) تمام المنون « مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٨ أدب » ورقة هـ

وفي رواية أخرى للسخاوي (١) « قال أبو بكر بن مجاهد :  
« من قرأ بقراءة عمرو ، وتفقه للشافعي واتجر بالبز ، وروى شعر  
ابن المعتز فقد استكمل الظرف » ، ثم قال : « روى الحميدى عن  
أبي محمد بن حزم الحافظ انه قال : من تمذهب للشافعي ، وقرأ  
لأبي عمرو وتختم بالعقيق وروى قصيدة ابن زريق فقد استكمل  
الظرف . . قلت (٢) : وكان بعض الفضلاء يقول : لو رأى ابن حزم  
قصيدة ابن زيدون النونية لعدل عن قصيدة ابن زريق (٣) ، ولكن  
يقال : انه ما حفظها أحد الا وفجع ببعض أحبابه . . »

وقد رجعنا الى ترجمة ابن حزم عند الحميدى فلم نجد لهذا  
الرأى ذكرا (٤) ، ومما لا شك فيه أن ابن حزم سمع بقصيدة  
ابن زيدون كما سمع بها الحميدى فابن زيدون صاغ هذه القصيدة  
الخالدة قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وتوفي ابن حزم موطنه بقرطبة  
سنة ٤٥٠ هـ وتوفي الحميدى صاحب الجدوة سنة ٤٨٨ هـ وهو من  
أهل قرطبة أيضا . ويظهر أن الرواية الأولى كانت لأحد المشاركة  
فعارضها أحد المغاربة بنونية ابن زيدون كعادة الأندلسيين في تحدى  
أدباء المشرق ويؤيد هذا الرأى ما ذكره الإدكاوى في مقدمة تسديس  
النونية لابن حبيش : « وقعت على تسديس قصيدة الرئيس الوزير  
أبي الوليد ابن زيدون التى يقول عنها المغاربة : من حفظها وتمذهب  
للإمام مالك بن أنس ولبس البياض وقرأ لورثش كان من أظرف

- (١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر ج ١ لوحة ١٦٧  
و ١٦٨ « نسخة مصورة عن باريس بدار الكتب المصرية رقم ٤٧٦٨ تاريخ .  
(٢) القائل هو شمس الدين السخاوى صاحب كتاب الجواهر والدرر .  
(٣) قصيدة مشهورة قالها ابن زريق بالاندلس وهو غريب عن وطنه حينما  
أحس بمرض الموت مطلعها :  
لا تعذيبه ، فان العذل يولعه

قد قلت حقاً ، ولكن ليس يسمعه  
(٤) جدوة المقتبس لمحمد بن فتوح الحميدى نسخة مصورة بدار الكتب  
المصرية رقم ١١٩٧٥ ح عن نسخة اكسفورد - لوحة ٤٢٦١ مذهب أهل المغرب  
والاندلس .

أهل زمانه خلاف ما تقوله المشاركة : من حفظ قصيدة ابن زريق  
وتختم بالعقيق وتمذهب بمذهب الإمام الشافعى . وقرأ لأبى عمرو  
كان من اطرف أهل زمانه « (١) ومن هذه الروايات يتضح أن قصيدة  
ابن زيدون نالت شهرة ذائعة جعلت أدباء الأندلس يتحدثون بها أدباء  
المشرق ؛ ولشهرتها نسجت حولها الأساطير روى أبو نصر الهورينى  
« أن نونية ابن زيدون اشتهرت حتى صارت محدودة (٢) » ويقال :  
« ما حفظها أحد إلا مات غريباً (٣) » ولشهرة هذه القصيدة لهج  
كثيرون بمعارضتها منذ صياغتها حتى الآن .

ولسنا بسبيل حصر جميع المعارضين لهذه القصيدة وحسبنا  
أن نذكر أن شهرة هذه النفحة الشعرية ذاعت فى الشرق والغرب ،  
وأن فحول الشعراء جعلوها انموذجاً ينسجون على منواله ، وآخر  
من عارضها من المحدثين أحمد شوقى فى قصيدته التى صاغها  
بالأندلس أيام منفاه بها وتقع فى نيف وثمانين بيتاً استهلها بقوله :  
يا نائح الطلح أشباه عوادينا

نشجى لواديك أم ناسى لوادينا (٤)

كما طارح شوقى على منوالها صديقيه الشاعرين اسماعيل  
صبرى وحافظ ابراهيم . فكتب اليهما من منفاه بالأندلس أبياتاً  
استهلها بقوله :

يا ساكنى مصر أنا لا نزال على

عهد الوفاء — وان غبناب مقيمينا

(١) تسديس النونة الزيدونية ص ٢ « نسخة خطية بدار الكتب رقم ٦١٧  
شعر تيمور » .

(٢) المحدود : المشئوم سبب الحفظ ، مأخوذ من الفعل « حد » المبنى  
للمجهول بمعنى قتر عليمه فى الرزق وفى الخير على العكس من المحدود وهو  
المحظوظ .

(٣) مسودة التحريرات النصرية ورقة ٦ « نسخة مخطوطة بدار الكتب  
المصرية رقم ٨٨٤٥ أدب » .

(٤) الشوقيات ج ٢ ص ١٢٧ .

هلا بعثتم لنا من ماء نيلكم  
كأسا نبل بها أحشاء صاديننا  
فأجابه صبرى بأبيات استهلها بقوله :  
بأفق أندلس برق يحييننا  
يبيت يضحك منا وهو يبكينا  
وفيها يقول :

وهل تبينت في أطلال قرطبة  
آثار ولادة مع ابن زيدونا  
وأجابه حافظ من أبيات :  
عجبت للنيسل يدرى أن بلبله  
صاد ، ويسقى ربا مصر ويسقينا  
والله ما طاب للأحباب مورده  
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا  
لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه  
وقد نأينا وان كنا مقيميننا  
وقد لهج شوقى بمعارضة ابن زيدون بعد أن ساعدته الظروف  
بقراءة ديوانه بعد طبعه (١) ، وباطلاعه على نفح الطيب الذى ضم  
طائفة منتخبة من شعر ابن زيدون وعلى شرح العيون فى شرح رسالة  
ابن زيدون المطبوع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة منذ أكثر من مائة  
عام .

ونلاحظ أن معظم الشعراء لهجوا بقصيدة ابن زيدون النونية  
ويبدو لنا أنهم لم يطلعوا على ديوانه والا لوجدوا فيه قصائد عاطفية  
عميقة لا تقل أثرا عن القصيدة النونية ، ولقد ظل ديوان ابن زيدون  
مخطوطا حتى سنة ١٩٣٠ ، وإذا رجعنا الى نسخه الخطية وجدناها  
ناقصة كثيرة التحريف والتصحيف . ومن هنا اشتهر ابن زيدون

---

(١) قرظ شوقى ديوان ابن زيدون فى طبعته الاولى سنة ١٩٣٢ .

عند الباحثين بهذه القصيدة كما اشتهر برساليته الهزلية والجدية ،  
وقد لهج بهما كثير من الأدباء وتعرض لشرحهما لفيف من الباحثين .  
أما الذين تناولوا ابن زيدون بالدراسة من قداماء ومحدثين  
ومن شرقيين وغربيين فاننا سنشير اليهم عند الحديث عن مكانة  
ابن زيدون الأدبية ومنزلته في الأدب القديم والحديث .

وحسبنا أن نشير الى أن ابن زيدون ظل في مستوى دون  
مستواه الحقيقي حتى العصر الحديث . فقد طغت عليه شخصية  
ابن هانيء الأندلسي لأن الفاطميين أحاطوه بهالة من المجد والشهرة  
تمهيدا ليكون شاعر دولتهم الكبير ، وأحس هو هذا الاتجاه فبالغ  
في مدحهم الى درجة ترفعهم فوق مراتب البشر استجابة لأهوائهم  
وأهدافهم المستورة فلما مات شابا قال فيه المعز لدين الله الفاطمي  
« كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك » وقد تأثر  
ابن خلكان — على جلالته قدره — بهذه الدعوة فقال فيه : « لولا  
غلوه في المدح وافراده المفضي الى الكفر لكان ديوانه من أحسن  
الدواوين . . وليس في المغاربة من هو في طبقة — لا من متقدميهم  
ولا من متأخريهم ، بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم  
كالمتنبى عند المشارقة . وكأنا متعاصرين » (١) ونحن نعلم أن  
ابن خلكان مؤرخ كبير وراوي من الثقات ولكنه ليس من النقاد  
البارعين ، ونعلم أيضا أن أثر الدعوة الشيعية لم يزل بزوال  
الفاطميين وإنما ظل صدها يتردد حتى العصر الحديث .

وقد ظلت نظرة ابن خلكان مهيمنة على الباحثين قرونا عديدة  
فعمدوا لواء الزعامة الشعرية بالأندلس لابن هانيء ، ومن المؤكد أنهم  
لم يدرسوا ابن زيدون ولا ابن حمديس ولا ابن شهيد ولا ابن خفاجة  
ولا غيرهم من شعراء الأندلس الموهوبين .

(١) أنظر ترجمة ابن هانيء في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥ ، ٦ طبعة القاهرة  
سنة ١٣١٠ هـ وله ترجمات في جلدوة المتنبى للحميدى والمطرب لابن دحية  
والإحاطة لابن الخطيب والتكملة لابن الأبار .

ومن العجيب أن يختار البارودي زهاء أربعين ألف بيت لثلاثين شاعرا من فحول شعراء العصر العباسي ، ولكنه اقتصر على ابن هانيء من الشعراء الأندلسيين .

ومهما يكن من أمر فقد اتجه كثير من الباحثين من عرب ومستشرقين الى الدراسات الأندلسية في العصر الحديث فكشفوا ما تراكم من غبار القرون على هذا الكنز الثمين . ونال ابن زيدون من العناية ما هو به جدير .

وقد أسهمنا في الكتابة عنه في رسالتنا الجامعية « ابن زيدون . عصره وحياته وأدبه » ورجعنا في بحثنا الى مئات المصادر القديمة والحديثة ، العربية والأجنبية ، المطبوعة والمخطوطة ، ومع هذا اقلا تزال هناك جوانب في حياة هذا الشاعر الكبير تحتاج الى معاودة الدراسة والبحث ، ولعل هذا الكتاب يصور بعض هذه الجوانب ويكمل ما بداته .

ولعله يجذب الأنظار الى التراث الأندلسي المجيد وما فيه من آيات بينات .



القسم الأول  
الفرد وسالمفقود

## الفصل الأول الحضارة الأندلسية

---

حمل العرب معهم الى الأندلس تراثهم الاسلامى المجيد ، كما حملوا معهم بذور الحضارات القديمة من مدنيات الفرس والاغريق والرومان والهنود . . وظلت موجات الحضارات القديمة والحديثة تنتقل من الشرق الى الغرب على التوالى فى سرعة عجيبة سواء عن طريق العلماء الوافدين أو الراحلين أو عن طريق المصنفات .

وعنى حكام الأندلس عناية فائقة باستقدام كبار علماء المشرق وشعرائه وأدبائه ؛ ومن أبرز أعلام المشرق الراحلين الى الأندلس أبو على القالى صاحب الأمالى ، وصاعد الشاعر البغدادي وزرياب الفنان العظيم فى الموسيقى والغناء وأساليب الحياة الاجتماعية الراقية . ومن أشهر الأندلسيين الذين قاموا برحلات علمية الى المشرق وعادوا منه لينشروا ما نقلوه فيه من علوم وآداب : عبد الملك ابن حبيب ومنذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى وأبو الوليد الباجى ، وغيرهم من الأعلام ؛ بل ان كثيرين منهم ~~وصلوا الى الشرق~~ لينشروا فيه ما وصلوا الى ابتكاره من علوم مثل جمال الدين محمد ابن مالك صاحب الألفية ومحيى الدين بن عربى وابن خلدون وغيرهم من كبار المصنفين وكانت الرحلات لأداء فريضة الحج من الغرب الى الشرق متوالية متتابعة ، وكل من أدى هذه الفريضة يحرص على أن يقابل مشاهير علماء المشرق فيدرس ما لديهم ويعود به الى الأندلس ذخيرة يعتز بها أمام أهله وأصدقائه والمحيطين به وبقدر

ما يحمل من اجازات علمية (١) تعلو مكانته وتذيع شهرته وترتفع منزلته بين طوائف المثقفين وكان خلفاء الأمويين بالآندلس يحرصون على أن يجذبوا اليهم طوائف علماء المشرق وأدبائه ويغمرهم بالهدايا والألطفاء وإذا لم يتيسر لهم استقدام هؤلاء العلماء حرصوا على أن يحصلوا على مصنفاتهم الأدبية قبل اذاعتها بالمشرق فقد أرسل الخليفة الحكم المستنصر ألف دينار الى أبى الفرج الأصفهاني ليبعث اليه نسخة من كتابه الرائع « الأغاني » قبل أن يظهر بالمشرق ، وقد أنشأ بقرطبة مكتبة جامعة لم يسمع بمثلها ، ويقدر بعض الباحثين كتبها بمائتي ألف مجلد ويقدرها آخرون بمقدار ٤٠٠ ألف مجلد (٢) وكانت فهارسها وحدها ٤٤ كراسة في كل كراسة منها خمسون ورقة ، ولم يكن بهذه الكراسات غير أسماء الكتب وحدها دون تعريف كامل بها (٣) وهذا العدد يدعو الى الدهشة وبخاصة اذا علمنا ان مخطوطات دار الكتب بالقاهرة الآن أقل من مائة ألف مخطوط ، وكان الحكم يقضى ساعات وأياما بهذه المكتبة وعهد الى أخيه عبد العزيز بالاشراف عليها .

وكان اقتناء الكتب شارة من شارات الرياسة والشرف حتى عند الجبال (٤) . ويقدر الباحثون عدد مكتبات الآندلس العامة بنحو ستين مكتبة أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم ، بل يقال : ان غرناطة وحدها كانت بها سبعون مكتبة عامة (٥) .

(١) الاجازات العلمية هي ان يجيز أستاذ مرموق المكانة لأحد تلاميذه ان يروي عنه كتبه أو ما حصله من كتب غيره ، ويكتب له وثيقة بذلك ؛ ولا بد للمجيز أن يثبت في اجازته سند ما يروي عن غيره من مصنفات أو آراء .

(٢) الحلة السراء ص ١٠١ - ١٠٣ The Moors in Spain, By Stanley Lanc Poole. London 1920 . P. 155

(٣) نفح الطيب طبع ليدن ج ١ ص ٢٥٦ وبلاغة العرب في الآندلس ص ١٠

وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ .

(٥) الأدب العربي وتاريخه للأستاذ محمود مصطفى مطبعة مصطفى البابي

الحلبي سنة ١٩٣٨ ج ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .

وكان بالريض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة يشتغلن بكتابة المصاحف بالخط ، هذا فى ناحية من نواحي قرطبة فكيف بجميع أحيائها (١) بل ان دكان نسخ واحد بقرطبة كان يستخدم مائة وسبعين جارية فى نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة (٢) . ولم تكن ثقافة الأندلسيين مقصورة على الأدب العربى وحده بل اقبلوا على الثقافات الأخرى يلتهمونها التهاما وبخاصة ثقافة الفرس والاغريق والرومان ، وكانت السفارات متبادلة بين الأندلس ودولة الروم الشرقية وكان حكام الدولتين يتبادلون الهدايا والتحف والألطفاء وقد تلقى الخليفة عبد الرحمن الناصر من الامبراطور الرومانى هدايا عديدة استغلها فى تشييد مدينته « الزهراء » ما بين أعمدة رخامية وتمائيل مذهبة وأحواض مرمرية ، وكانت هذه الصلات ردا على صلات بغداد العباسية بالفرنجة أعداء الأندلسيين الألداء (٣) .

أما ما روته بعض المصادر الأدبية من أنهم كانوا يضيقون بالفلسفة القديمة والحديثة (٤) فان هذا حدث مرات محدودة حيث قام بعض الخلفاء والحكام بإحراق طائفة من الكتب الفلسفية ارضاء للعامة فى ظروف خاصة ، فعل هذا الحاجب المنصور مع انه كان محبا للفلسفة مقبلا عليها (٥) ومن المعروف أن دراسة الفلسفة مقصورة على صفوة المثقفين فى جميع العصور ، وقد ذكر صاعد الأندلسى أسماء عشرات العلماء المشتغلين بالدراسات الفلسفية بالأندلس فى عصره « توفى سنة ٤٦٢ هـ » حيث أعلن أن العقول قد تحررت وأن كل من بقى لديه آثار فلسفية أظهرها « فلم تزل

(١) المعجب لعبد الواحد المراكشى مطبعة الاستقامة سنة ١٩٤٩ ص ٢٧٢ .

(٢) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ عباس محمود العقاد طبع

دار المعارف سنة ١٩٤٦ ص ١١١ .

(٣) The Moors in Spain. P. 140-134

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٦ .

(٥) المصدر السابق .

الرغبة ترتفع في طلب العلم القديم شيئا فشيئا ، وقواعد الطوائف تتحضر قليلا الى وقتنا هذا فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالاندلس في اباحة تلك العلوم « (١) .

وخير دليل على اباحة العلوم الفلسفية وأنها أصبحت محل التنويه والاطراء وأن الفلاسفة أصبحوا في منزلة لا تكاد تقل عن منزلة الفقهاء — خير دليل على ذلك ما صاغه ابن زيدون في قصيدته الفائية التي وجهها الى المعتضد بن عباد حيث يقول فيها :

همام يزين الدهر — منه — وأهله

ملك فقيه كاتب متفلسف (٢)

وما كان ابن زيدون ليقرن — في مدحه للمعتضد — الفقه بالملك ، والكتابة بالفلسفة مالم تكن لها جميعا مكانتها من التقدير (٣) . وفي عصر الطوائف الذي عاش فيه ابن زيدون برزت طائفة من اعلام المشتغلين بالشئون الفلسفية من أشهرهم ابن حزم الفقيه الكاتب الفيلسوف .

والاسلام بطبيعته يجعل التعليم فرضا حتميا « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ويجعل كل عالم ملزما أن يبث علمه ؛ فقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن « من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (٤) والتعليم في الاسلام بالمجان دون أجر (٥) قال تعالى « اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » وقد حدد الرسول صلوات الله عليه مهلة عام واحد لمحو الأمية وهدد

(١) طبقات الامم ص ٦٧ .

(٢) ديوان ابن زيدون تحقيق على عبد العظيم ص ٨٦ من قصيدته في مدح المعتضد وتهنئته بعيد الأضحى سنة ٤٤٦ هـ .

(٣) تاريخ العرب مطول للدكتور فيليب حتى وزميلييه مطبعة دار الكشاف بيروت سنة ١٩٥١ ج ٣ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

(٤) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وغيرهم .

(٥) التعليم في الاسلام عبادة والعبادة لا يطلب صاحبها عليها اجرا الا من الله وحده — وعند الضرورة يباح له أن يأخذ عليها الاجر الدنيوي .

من لا يعلمون العلم ومن لا يتعلمونه بالعقوبة العاجلة في الدنيا ، واعتبر  
اهمال المعلمين والمتعلمين عدوانا ومنكرا يوجب اللعنة والعذاب (١)  
وفي ضوء هذا التوجيه السديد أقبل المسلمون على العلم ينهلون من  
معينه العذب ويطلبونه في جميع المصادر ويتلقونه من كافة الأمم  
ولم يكتفوا بتحصيل شتى أنواع العلوم بل وضعوها موضع التجربة  
والاختبار فميزوا الصحيح من الزائف ، وقاموا بتجارب علمية عديدة  
أسسوا بها حضارة شامخة البنيان متينة الأركان ظلت مصدرا  
للحضارة الانسانية عدة قرون ؛ أما في الأندلس فقد ازدهرت الثقافة  
الاسلامية ازدهارا عظيما ، وحسبنا أن نرجع الى طبقات الأمم  
لابن صاعد الأندلسي والى المكتبة الأندلسية (٢) والى نفح الطيب ،  
وغيرها لنعرف مقدار ما بلغته الثقافة الأندلسية من نمو وازدهار ،  
والى هذا أشار دوزى فقال : « كان كل فرد في أسبانيا يعرف القراءة  
والكتابة وذلك ما لم يشاهد في وقته في بلد آخر ما عدا أسبانيا  
الاسلامية » (٣) ويقول ريبيرا Ribera في محاضرة له : « يمكن  
وصف التعليم على عهد الحكم المستنصر بوصفين أحدهما الالتزام  
والآخر المجانية » (٤) والالتزام لم يكن حكوميا فحسب وإنما فرضته  
البيئة الاجتماعية ، وكان العرب اذا فتحوا بلدا أنشأوا فيها مسجدا  
ومدرسة (٥) ويوازن دوزى بين الحالة في الأندلس والحالة في أوربا  
فيقول : « كان كل فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة على حين

(١) اشتراكية الاسلام للدكتور مصطفى السباعي « الطبعة الثانية »  
سنة ١٩٦٠ ص ١١١ - ١١٤ .

(٢) سلسلة كتب من تراث الأندلس لمؤلفين مختلفين نشرها قديرة المستشرق  
الاسباني في عشرة مجلدات طبع مدريد .

(٣) الادب الأندلسي للأستاذين أحمد بلافريخ وعبد الجليل خليفة مطبعة  
الوحدة العربية بتطوان سنة ١٩٤٠ ص ٣٩ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة السابقة .

(٥) بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف . مطبعة مصر  
سنة ١٩٢٤ ص ١١ .

كانت أوروبا المسيحية تتخبط في دياجير الجهالة اذا استثنينا منهم رجال الدين ، وعلى العموم كان أفراد الطبقة الراقية بأوروبا في جهل تام وظلام دامس « (١) هذا في عهد العرب مع أن أسبانيا في العصر الحديث لا تتجاوز نسبة المتعلمين فيها ٢٥٪ كما تقرر هذا غوستاف لوبون (٢) وكان تعليم البنات شائعاً عند الأندلسيين ، وكانت كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب وينظمن ويترسلن كالأوربيات اليوم (٣) وقد بلغت بعضهن من المكانة أنها كانت أستاذة تدرس أمهات الكتب الأدبية واللغوية للرجال مثل اشراق السويداء قال أبو داود سليمان بن نجاح « أخذت عنها العروض وقرأت عليها النوادر لأبي على القالى والكامل للمبرد وتوفيت سنة ٤٤٣ هـ » (٤) وكان للطب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس في قرطبة واشبيلية وطليلة ومرسية (٥) أما المدارس العامة فكان بقرطبة وحدها ثمانون مدرسة عامة ، وكان الحكم قد أنشأ بها سبعة وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن الكريم وأجرى عليهم المرتبات (٦) . وكانت الجامعات العلمية والأدبية تعقد بقصور الخلفاء وأحياناً بالمساجد العامة ، وكان الحاجب المنصور يبذل جهده في ازدهار العلوم ونشرها بين الشعب على اختلاف طبقاته وأجناسه فكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ويمتحن المدرسين ويكافئ التلاميذ على جهدهم ويجلس في مجالس العلم للمناقشة

(١) A Short History of the Sarcens, By Amir Ali. New y ork (١)

1899. ص. ٥١٥،

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة زعير سنة ١٩٤٥ ص ٦٠٦ .

(٣) غابر الأندلس وحاضرها للأستاذ محمد كرد على المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٣ ص ٨٧ .

(٤) التكملة لابن الأبار طبعة مدريد سنة ١٨٨٧ ج ٢ ص ٧٤٥ .

(٥) بلاغة العرب في الأندلس ص ١٢ .

(٦) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٩ .

والبحث ويختار من نوابغ العلماء القضاة والقراء والخطباء وان كان يتظاهر بكرامته علوم الفلسفة والنجوم ارضاء للعامة (١) ، وكان له مجلس أسبوعي يجتمع فيه بأهل العلم للمذاكرة في مختلف العلوم ، شأنه في هذا شأن الخلفاء والأمراء الذين كانوا يحددون أوقات خاصة يجتمعون فيها بالعلماء والشعراء والأدباء ويفدقون عليهم الأموال (٢) مما جعل قرطبة مصدر اشعاع يرسل أضواءه على العالم المسيحي وحمل الشاعرة الألمانية هروزثيا على تسمية قرطبة باسم « زينة العالم » (٣) وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء مجامع علمية وأدبية أشبه بالأكاديميات العلمية في العصر الحديث وذلك لنشر المعارف والعلوم . وقد أنشأ الحكم مجمعا علميا في قصر مروان ، وقلده غيره من أمراء الأندلس فكونوا مجامع علمية لهم ، وأنشأ أحمد بن سعيد مجمعا في طليطلة وكان أربعون عالما من طليطلة يعقدون اجتماعاتهم عنده في ردهة فرشت أحسن فرش فيفتحون عملهم بتلاوة آيات الذكر الحكيم ، ثم يتذاكرون تفسيرا ما تلوه ثم يستطردون الى البحث في فنون شتى من العلم والحكمة (٤) وهناك قول ماثور ينقشونه على أكثر معاهدهم العلمية هو : « ان العالم يقوم على أربعة أمور : علم الحكماء وعدل العظماء ، ودعاء الصالحاء وشجاعة الشجعان » (٥) .

هذه النهضة الفكرية جعلت أوروبا الغارقة في الظلام تتجه بكليتها الى هذه البقعة المباركة المشرقة بأنوار العلم والعرفان والى هذا أشار غوستاف لوبون بقوله : « مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجيتها ، ولم يبد ميلها للعلم الا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها اناس رأوا ان يرفعوا عنهم اكفان

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ وبلاغة العرب في الأندلس ص ١٠ ، ١١ .

(٢) رحلة الأندلس ص ١١٣ .

(٣) الاسلام في اسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨ ص ٨٨ .

(٤) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٦٦٩ .

الجهل ولوا وجوههم شطر العرب ، ولم تكن الحروب الصليبية سببا في ادخال العلوم الى اوربا كما يظن على العموم وانما ادخلت اليها من اسبانيا وصقلية وايطاليا » (١) ويقل لين بول : « ملك المسلمون ثلثي شبه الجزيرة وسموها الأندلس لتمييزها وأسسوا فيها مملكة قرطبة العظمى التي صارت أعجوبة القرون الوسطى وحملت مشعل المدنية والثقافة متألفة متوهجة في الغرب على حين كانت أوربا غارقة في ظلمات الجهالة والبربرية فريسة للمنازعات والحروب » (٢) .

ونحن نعلم ان الثقافة تزدهر وتؤتي اطيب ثمراتها في ظل الحرية التي يكفلها القضاء ويسهر عليها الراى العام ، اما حرية القضاء فيكفى أنه كان يتمتع باستقلاله عن السلطة التنفيذية حتى كان الخليفة لا يستطيع أن يولى قاضيا الا اذا انطبقت عليه شروط خاصة ووافق على ولايته رجال القضاء ، والى هذا يشير ابن الخطيب بقوله « فكانت للقضاة بها المنزلة العالية والرتبة السامية مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم واقفين عند نقضهم وابرامهم » (٣) .

ومن الشروط المرعية في ولاية القضاء أن يكون القاضي غنيا « خوفا من أن يميل به الفقر الى الطمع فيما في أيدي الناس » (٤) وكان للقضاة في الأندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء ناضجة (٥) وما أشبه هذا بنظام المحلفين المتبع في كثير من الدول الغربية الآن .

ولقد كان والد الشاعر احد هؤلاء المشاورين الكبار وفي مقدمة

(١) حضارة العرب من ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٢) The Moors in Spain p. 43

(٣) تراث الاسلام ج ٢ من ٢٠ ، ٢١ ورحلة الأندلس ص ١٠٤ .

(٤) أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٦٩ ونفح الطيب ج ٢- ص ١٤٤ .

(٥) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٥٧ ، ٥٨ .

الفقهاء ذوى الراى والمكانة عند الحكام (١). ولقد كاد الفقهاء يثلون عرش الحكم بن هشام الربضى . وقام بينه وبين هؤلاء الفقهاء صراع عنيف رجحت فيه كفتهم لولا أنه احسن الاحتياى واستطاع بدهائه وحيلته أن يفض الجموع التى التفت حولهم وأن يكسب أخيرا الراى العام الى جانبه ، وأعانه على هذا تزمّت كثير من الفقهاء ، وجمودهم وتمسكهم ببعض النصوص الفقهية التى يخالفهم فيها كثير من الفقهاء ؛ ولم يهدا بال الحكم ولم يستقر حكمه حتى نفى زعماء الفتنة الى اقريطش « كريت » (٢)

هذه النهضة العلمية صـحبتها نهضة اقتصادية وعمرانية واجتماعية سجلتها المصادر الكبرى فى تاريخ الأندلس بصفة خاصة وفى تاريخ الحضارة العربية بصفة عامة .

وحسبنا أن نشير فى هذا المقام الى بعض مظاهر هذه النهضات .

يقول ابن حوقل : « وأما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيها ؛ ولما هى فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك منهم مهانهم وأرباب صنائعهم لقلة مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم . . » (٣) ولوفرة الثروة عندهم كانوا يكرهون السائلىن ويقسون فى معاملتهم اذا كانوا قادرين على الكسب ، فلا نجد بالأندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر (٤) وقلما يكون العذر الا لمرض يعوق عن العمل ، فقد كان الحكام يبسطون أيديهم بالبذل والمعونة لمن يحتاج الى عمل يمارسه ويحدثنا المراكشى أن أبا الحزم بن جهور حاكم قرطبة كان يوزع الأموال على أهل الأسواق لتكون رءوس أموال يحافظون على

(١) اعناب الكتاب لابن الأبار « مخطوط بدار الكتب المصرية ص ٧٦ » .

(٢) المعجب ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٤) الحل السندسية ج ١ هـ ص ١٨٥ .

أصولهم أمانة في أيديهم ويفوزون بأرباحها خالصة لهم (١) وهو موقف لم تصل اليه المدنية الحديثة حتى الآن ، فالمصارف تقرض ولكن بشروط وضمانات قاسية وبأرباح تتجدد عاما بعد عام ربما استنفدت طاقات وأرباح التجار والعمال (٢) .

وانعكست ظلال هذه الثروة على حياة الأندلسيين فقد حفلت كتب التاريخ بأنباء قصورهم الشاهقة وآثارهم الزاهرة وحياتهم الحافلة بألوان البهجة والمتاع ، فهم أول من عنى برصف شوارع المدن بالحجارة واضاءتها وكان بعضها يمتد الى عشرة أميال تضاء بمصابيح تطل عليها من المنازل المحاذية لها (٣) ويوازن الدكتور حتى بين حواضر الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر وبين لندن وباريس في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم يذكر « أن لندن لم يتحقق لها قنديل واحد عمومي حتى ما بعد ذلك بسبعمئة سنة ، وأما في باريس فبعد ذلك ببضعة قرون كان الذي يتخطى عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن الخوض في لجة من الوحل » (٤) . أما ازدهار الاقتصاد الزراعي والهندسي في الأندلس فيحدثنا الأستاذ مستيم Mestime في مؤتمر المستشرقين بمرسيليا سنة ١٨٧٦ : « ان فرنسا أخذت من الأسبان العلوم المختلفة وأساليب الزراعة وتعلمت منهم حفر الترع والخلجان ونظام الري وحاصلات الشرق من الحبوب والأشجار والنباتات التي زاولوا زراعتها بالأندلس وعالجوها حتى صارت صالحة للزراعة بأوروبا » (٥) . أما الصناعة فقد ضربوا فيها بسهم وافر ، فهم أول من أسس

(١) المعجب ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) من الانصاف لثورتنا المجيدة أن نقرر أنها ألغت أرباح القروض التي تقدمها الجمعيات التعاونية للفلاحين المصريين وقد صدر بالمجلة الليبية أخيرا مرسوم بإلغاء أرباح المصارف الزراعية والمقارية .

(٣) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٤ .

(٤) تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٦٢٦ .

(٥) تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٦٢٦ .

مصانع الورق في اسبانيا وفي صقلية ومنهما انتقلت هذه الصناعة الى ايطاليا (١) وقد برع الأندلسيون في كثير من فنون الصناعة ولا يتسع المجال لتناول صناعاتهم بالتفصيل .

ومن الطبيعي أن تزدهر التجارة بازدهار الزراعة والصناعة ؛ وقد حفزهم هذا الى انشاء الاساطيل التجارية التي كانت تمخر عباب البحر الأبيض والمحيط الأطلسي وبهذا غزوا أسواق الاسكندرية والقسطنطينية ودمشق وبغداد (٢) أما الحضارة العمرانية - ونقصد بها حركة البناء والتشييد - فهي نتيجة حتمية لازدهار الحضارة ووفرة الثراء وقد حدثنا المؤرخون أحاديث مستفيضة عن هذه الحضارة ، ومهما يكن في أقوالهم من مبالغات أو ما نظنه مبالغات فان الآثار الباقية حتى الآن تنطق بمدى ما وصلت اليه فنونهم العمرانية مما أدهش معاصريهم ولا يزال يفوز باعجاب المعاصرين في العهد الحديث ، مما جعل هذه الآثار مقصد عشرات الآلاف من انحاء العالم يشدون اليها الرحال ويقفون امامها موقف الإعجاب والتقدير .

ولقد طوى الشاعر شطر حياته في قرطبة ، والشطر الثاني في اشبيلية وهذا يقتضيها الاشارة الى الحضارة العمرانية في كلتا المدينتين لنلمس أثر البيئة في تكوين شاعرنا العظيم .

**أما قرطبة** فهي درة الأندلس الوضاعة واحدى كبريات الحواضر العالمية في القرون الوسطى أفتن العسرب في تشييدها وعمرانها فناهزت قصورها ستين ألف قصر وحماماتها سبعمائة حمام ومساجدها ١٦٠٠ مسجد (٢) ولا يكاد سكانها يبلغون الآن خمسين

---

(١) تراث الاسلام ج ٢ ص ٨٧ يراجع في هذا : فابر الأندلس وحاضرها ص ٨١ وما بعدها وتاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٧٠٢ - ٧٠٦ ورحلة الأندلس ص ١١٢ ، ١١٣ و A Short History تاريخ العرب ج ٣ ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ .  
(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ و A Short Hist. p. 518.

ألفا ؛ وما كانت بأوروبا مدينة في وقتها يتجاوز سكانها الخمسين ألفا على أكثر تقدير (١) .

وكما اشتهرت إقرطبة بجامعها الكبير اشتهرت بالقنطرة الفخمة المقامة على نهرها المتدفق والمجال لا يتسع للافاضة في هذا الحديث فالمراجع التاريخية حافلة بالتفصيل (٢) .  
وقد لهج شاعرنا بوصف قرطبة في قصائد عديدة يقول في احداها (٣) :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع ؟  
وهل كبد حـرى لبينك تنقع  
وهل لليالـيك الحميدة مرجع ؟  
إذا الحسن مرأى فيك واللـهو مسمع ؟

واذ كنـف الدنيا لديك موطأ  
نهارك وضاح وليلك ضحيان  
وتربك مصبوح وغصنك نشوان  
وأرضك تكسى حين جـوك عريان  
ورباك روح للنفوس وريحسان  
وحسب الأمانى ظلك المتفيا

واستمر الشاعر في قصيدته يتحدث عن مشاهد قرطبة الجميلة ويصف ما تحفل به من روعة ورواء حيث تحدث عن « العقيق » و « عين شهدة » و « الجوسق النصرى » و « مصنعة الدولاب » و « قصر ناصح » أما الزهراء صاحبة قرطبة الجميلة فقد لهج بها في عديد من قصائده .

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية .

(٢) راجع نفح الطيب و The Moors in Spain ففيه وصف حافل مستفيض لهذه الآثار .

(٣) من مخمسات طويلة قالها في الحنين الى قرطبة مطلعها :  
تنشق من عرف الصبـا ما تنشقا وعواده ذكر الصبـا فتشـوقا

**وأما اشبيلية** فتقع على شاطئ الوادي الكبير في أجمل بقاع الأندلس وأعد لها هواء ، وكانت حاضرة الأندلس قبل الفتح الإسلامي ، وفي عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير ذكر الحميدى « أنها مدينة كبيرة عامرة لها أسوار حصينة وأسواقها عامرة وخلقها كثير وأهلها مياسير ، ويطل عليها جبل الشرف وهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة مسافة ٤٠ ميلا تظللها أشجار الزيتون والتين وسعته ١٢ ميلا وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والديار الحسنة لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه (١) ويذكر الأستاذ البتانونى فى رحلته (٢) : « ان المسافة بينها وبين قرطبة ١٣١ كيلو مترا وكانت عروس الأندلس فى عصر ملوك الأراؤف ، وهى الآن أحسن مدينة فى الأندلس بعد مدريد وسكانها ١٥٠ ألف نفس وهم أقل من نصف عددهم فى مدة العرب » .

وكانت مشهورة بمجالس اللهسو والشراب حتى قال فيها ابن رشد : « اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية » (٣) وليس معنى هذا ان اشبيلية منصرفه عن الأدب ولا أن قرطبة منصرفه عن الطرب وانما يريد أن لكل منهما صفتها الغالية عليها ومن آثارها البديعة الباقية قصر بنى عباد ويسمونه الآن الكازار « وهى محرفة عن كلمة القصر » .

وكما لهج شاعرنا بقرطبة تغنى باشبيلية ومن أمثلة ذلك قوله من قصيدة فى وصف حديقة غناء باشبيلية للمعتضد تضم حماما رخاميا مفعما بالماء الحار والى جانبه تمثال مصقول لفادة هيفاء (٤) :

(١) صفة جزيرة الأندلس ص ١٩ - ٢١ .

(٢) رحلة الأندلس ص ٥٩ .

(٣) الحلل السندسية ج ١- ص ٢٤١ .

(٤) فجر الاسلام ص ٧ - ٩ وابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ١٥ .

بوأتنى نعماك جنة عدن  
جال فى وصفها فضل القريض  
مجتنى مدن ، وظل برود  
ونسيم يشفى النفوس مريض  
وميساه قد أخجل الورد أن عا  
رض تذهيبه لها تفضيض  
لمع طلة من العيش ما ان  
للهموى عن محالها تقويض  
وللشعراء فى الحديث عن قرطبة واشبيلية وغيرهما من حواضر  
الأندلس أوابد عديدة حفظتها لنا كتب الأدب والتاريخ أو ما بقى  
منها من مطبوعات ومخطوطات .  
وبعد أن أوجزنا الحديث عن حضارة الأندلس فى عصر  
ابن زيدون ، حان لنا أن نتكلم عن الأحداث السياسية فى عصره ولقد  
كان له فى هذه الأحداث نصيب أى نصيب وبخاصة مع بنى جهور  
وبنى عباد .

## الفصل الثاني الأحداث السياسية

انتشر عقد الخلافة الأموية بالاندلس ولم يكن هناك بد من انتشاره ؛ وليس عجيبا أن ينفرط هذا العقد النظيم ولكن العجيب أن يظل متماسكا أو شبه متماسك نحو ثلاثة قرون :

فلم تكن هناك وحدة شاملة وثيقة تضم شتات هذه الأمة الا وحدة الدين الاسلامي والثقافة العربية فلما ضعفت النوازع الدينية استسلم القوم الى مظاهر الترف ومغريات النعيم ، فضعف شأنهم وتبدد شملهم ؛ ثم بدأت الثقافات الأجنبية تزحم الثقافة العربية ، كالثقافة الاغريقية والثقافة اللاتينية وانتشر اللحن انتشارا كبيرا وبدأ الشعراء يتعدون عن القواعد المنهجية ، وأخذ بعضهم ينظم مشاعره باللغة العامية كابن قزمان وأضرابه ، وتسربت اللهجات الدارجة الى الموشحات الأندلسية ؛ أما الشعراء والكتاب المتمسكون بالفصحى فقد انتقلت اليهم عدوى التكلف والعنسية بالمحسنات البديعية والتزام السجع حتى في كتبهم التاريخية والأدبية ، فما بقي لنا من تاريخ ابن حيان المطول يحفل بنماذج عديدة يكاد يفص بها من ألوان السجع المتكلف .

ومن الطبيعي أن هذا كله لم يتم بفترة وانما بدأت عوامل الضعف تتطرق الى الفنون الأدبية عند تمام ازدهارها وظلت تنفث سمومها في كيان الأدب العربي بضعة قرون ؛ وظهرت الجراثيم في المشرق أيضا فأخذت اللغتان الفارسية والتركية ومن بعدهما الأردية تزحم اللغة العربية وتقف انتشارها بعد أن اتسع مدها الى معظم

انظار العالم المعروف ؛ وفي العصر الحديث بدأت اللغة الأندونيسية تزحم لغة الضاد - وكانت بالأندلس عوامل عديدة تعمل على هدم الخلافة الأموية بها مثل الخلافات العنصرية العديدة بين القبائل العربية وبخاصة بين العدنانيين والقحطانيين بل بين فروع كل منهما (١) وقد اجتاحت الأندلس ثورات عديدة نتيجة لهذه العصبية العنيفة وبلغ عدد هذه الثورات أكثر من عشرين ثورة قبل عهد الطوائف ؛ ولا يكاد تاريخ أمير أو خليفة يخلو من إحدى هذه الثورات .

وكانت هناك عصبية أعنف أثرا هي العصبية بين العرب والبربر، فقد كان العرب يشعرون بنوازع الاستعلاء على غيرهم من الشعوب وبخاصة في عصر الأمويين بالشرق .

ولقد تم فتح الأندلس وكان العبء الأكبر في هذا الفتح الاسلامي على البربر فان جيش طارق بن زياد كان مكونا من ٧٠٠٠ مقاتل بربري و ٣٠٠ عربي فقط .

ومع هذا فقد استأثر العرب بأحسن البقاع في الأندلس وتركوا أسوأها للبربر فأنزلوهم بالأقاليم الشمالية حيث تصعب المعيشة ويتصل القتال بينهم وبين المسيحيين في معارقلهم الحصينة بقلل الجبال في ليون وجليقا واستورقة (٢) .

ولقد كانت هذه العصبية هي السبب الأقوى في فشل الحملة الاسلامية على فرنسا حيث انهزم العرب لأول مرة هزيمة حاسمة على شاطئ نهر اللوار أمام شارل مارتل ، ولولا هذه الهزيمة لسقطت دول أوروبا في قبضة الاسلام .

وأمام هذه العصبية العنيفة قام البربر بثورات عديدة عنيفة

---

(١) تراث الاسلام ج ١ ص ١٠ ، ١١ .

(٢) راجع توزيع القبائل على السكور الاندلسية ص ٦١ من الحلة السراء

.The Moors in Spain P. 54-55

لم يخل منها عصر أمير أو خليفة حتى استطاعوا أن يستقلوا استقلالاً تاماً ببعض الولايات .

وهناك عدة خصومات أعنف أثرا وأبلغ نتيجة هي الخصومة القائمة بين العرب والبربر من جهة ، والصقالبة من جهة أخرى .  
ثم الخصومة القائمة بين المسلمين والمسيحيين ؛ ثم الخصومات المذهبية التي تسربت الى الأندلس مثل الدعوة العباسية والدعوة الفاطمية ، ولا يتسع المجال لتتبع آثار هذه الخصومات العنيفة .  
وحسبنا أن نذكر إنها كانت من أهم العوامل في تناثر عقد الخلافة الأموية بالأندلس على الرغم من بلوغها قمة عالية من النمو والازدهار الثقافي العظيم .

### ملوك الطوائف

توفي الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٦٦ هـ وكان ولي عهده هشام لم يتم الثانية عشرة من عمره فتولى شسثونه المصحفى باسم الحاجب ، ثم الحاجب المنصور وكان ذا شخصية قوية هيمن على هشام وحجبه عن الناس وانفرد هو بشئون الحكم ، وكان قوى البأس مرهوب الجانب واسع الثقافة عليما بفنون الحرب ، فقاد الجيوش وبسط نفوذ المسلمين على شبه الجزيرة كلها وخضع له المسيحيون بالشمال وبلغ ما لم يبلغه مالك أو حاكم سواه وتوفي سنة ٣٩٣ هـ وبعد وفاته بدأ الانهيار . فقد خلفه ابنه عبد الملك في الحجابة فاستمر فارضا وصايته على الخليفة هشام على الرغم من أن هشاماً قارب الثلاثين ؛ ولكن وصاية عبد الملك لم تدم أكثر من عامين حيث مات بالذبح الصدرية وقيل مات مسموماً فخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولم يكن له حزم أبيه ، فأساء السيرة وبسط يده في أموال الناس فأبغضوه ، وكان الى هذا خليعاً مستهترا يقال انه سمع مؤذنا ينادى « حى على الصلاة » فقال : لو قلت « حى الى الكأس لكان خيراً » ولم يكتف بوصايته على الخليفة بل تطلع لأن يلى الخلافة

فأرغم هشاما على أن يوليه عهده ؛ فثارت ثائرة الشعب وتطلع المخاضون الى استعادة قوة الخلافة الأموية ، وبخاصة بعد أن انحاز الحاجب المنصور وأبناه الى البربر . فهاجمت الجماهير قصر الخليفة هشام وأرغموه على أن يتنازل عن الخلافة الى محمد بن هشام الأموي وبايعوه بالخلافة وتلقب بالمهدى ولكنه كان أحرق طائشا فاضطهد البربر وأباح للعامة نهب دورهم وأطلق الغوغاء من السجون وأطلق أيديهم في النهب والسلب وبعد أيام أمر بكف أيديهم ، ثم نهب هو ما استطاعت يده الوصول اليه من الذخائر النفيسة ، وامتد شره الى زعماء بنى أمية أنفسهم والى زعماء الصقالبة ، فاتجه الجميع الى سليمان بن الحكم الأموي وبايعوه بالخلافة باسم (١) المستعين بالله ، وقامت فتن عديدة وثورات عنيفة كانت نتيجتها الفتك بكثيرين من العلماء والزعماء والنساء والأطفال واستباح العامة لأنفسهم هتك الأعراض وخطف الحرائر وبيعهن في الأسواق ، ومد المستعين يده الى أمراء المسيحيين بالشمال وأباح لهم اقتحام قرطبة ، ففتك المسيحيون والبربر بالعرب فتكا ذريعا وكالوا لهم الصاع صاعين ويروى ابن عذارى أن المسيحيين قتلوا تحت راية المستعين نيفا وثلاثين ألفا من المسلمين (٢) وتنازل لهم المستعين عن كثير من القلاع والحصون ، واقتحم معهم الزهراء فوجد سكانها محتمين بالمسجد الجامع فلم يرع للمسجد حرمة وفتك هو وأنصاره من المسيحيين بمن في المسجد من رجال ونساء وأطفال وهنا انفرط العقد واقتصر نفوذ المستعين على قرطبة وثلاث مدن أخرى لأن البربر والصقالبة توثبوا على المدن الكبرى وأعلنوا انشاء ولايات جديدة مستقلة وقامت عدة امارات عربية وحاول بعض الأمويين مثل عبد الرحمن بن هشام المستظهر والمستكفي بالله « والد

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ والبيان المقرب ج ٣ ص ٥٦ ، ٦١

ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) البيان المقرب ج ٣ ص ٩٤ - ١٠٢ .

ولادة « وهشام الثالث أن يعالجوا الموقف ولكنهم كانوا أقصر باعا وأضعف همة وأعجز تدبيرا فلم ينالوا أى توفيق وانتهت خلافتهم سنة ٤٢٢ هـ وتغلب الزعماء من العرب والبربر والصقالبة والموالي على المدن ، وأسس كل منهم لنفسه امارة ونادى بنفسه خليفة وأمر أن يخاطب بأمر المؤمنين .

**أسطورة هشام** كانت خاتمة حياة هشام الثانى ابن الحكم غامضة ، فبعض الروايات تقول ان سليمان المستعين قتله سنة ٤٠٣ هـ وأخفى قتله ، وفى رواية أخرى أنه فر متنقلا فى الأندلس من بلد الى بلد حتى استقر بقلعة رباح ، وفى رواية ثالثة أنه فر الى آسيا حيث مات فيها مجهولا ، وفى رواية رابعة أنه فر الى مكة وقاسى الشدائد والأهوال واحترف المهن الحقيرة ، ثم عاد الى الأندلس حيث ظهر بقلعة رباح بعد ٢٢ سنة من اختفائه .

والرأى الراجح أنه كان بقلعة رباح رجل يشتغل بجدل الحصر اسمه خالف وكان يشبه هشاما الى حد كبير . وقد استغل هذا الشبه الكبير بنو عباد بأشبيلية حيث استدعوا خلفا وأعلنوه خليفة وبايعوه على أنه هشام الثانى وفرضوا أنفسهم حجابا له ، وانتزعوا شهادة من بقى من أسرته من رجال ونساء على أنه هو هشام نفسه ؛ وحملوا الشعب على بيعته ودعوا جميع الامارات المستقلة لمبايعته باعتباره الحاكم الشرعى للأندلس جميعها . فاستجاب له بعض حكام الامارات واعترفوا به اعترافا صوريا اما خوفا من بنى عباد ، واما طمعا فى دفع بعض التأثيرين من المتمردين الطامحين . ولقد اضطر ابن جهور حاكم قرطبة الى الاعتراف بهشام سنة ٤٢٩ هـ ولكن الى حين . ونرجح أن محنة ابن زيدون ترجع الى انقياده لهذه الدعوة ، وسنتناول هذا الموضوع بالشرح عند حديثنا عن سجن ابن زيدون .

ومهما يكن من أمر فقد انفرط عقد الخلافة الأموية وقامت على أنقاضها امارات الطوائف وهى نحو ست عشرة ولاية كبيرة وغيرها من الولايات الصغيرة التى كانت تظهر حينئذ ثم تذوب فى غيرها من

الولايات والامارات الشهيرة وكان يتقاسمها البربر والعرب والصقالبة (١) ويهمنها منها هنا ولاية قرطبة وولاية أشبيلية لأن الشاعر قضى في الأولى شطر حياته ثم قضى في الثانية شطر حياته الأخير .

### بنو جهور في قرطبة

في منتصف ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ أعلن علماء الشعب وقادته وذوو الرأي فيه سقوط الخلافة الأموية وطرّدوا فلول الأمويين من امارة قرطبة ، وأسلموا زمام الحكم الى أبى الحزم بن جهور من كبار علمائهم ونابهي شيوخهم . وكان جديرا بهذه الثقة فهو ينحدر من أسرة كريمة توارثت الوزارة كابرا عن كابر ، ولهذا سُمّاه ابن الخطيب بشيخ الجماعة وبقية الأشراف من بيوت الوزارة (٢) ، وكان حكمه أقرب الى النظام الجمهوري منه الى النظام الملكي في أول أمره ، وكان مع علمه وجلاله متواضعا متمسكا بأهداب الدين مشهورا بعفة اليد واللسان ، وقد رفض قبول الحكم في أول الأمر ، فلما ألح عليه زعماء قرطبة نزل على رأيهم واشترط أن يكون الحكم مبنيا على الشورى وأن يكون الى جانبه في الحكم ابنا عمه محمود ابن عباس وعبد العزيز بن حسن فوافقه أهل قرطبة على أن يكون صوتاهما للشورى فقط (٣) وكان يعلن للناس أنه لا يبت في أمر إلا بعد مشاورتهما فيه ؛ ويأبى أن يباشر حكما أو ينظر في أمر إلا اذا كان موجهما اليهما معه ، ومتى سئل قال : ليس لي عطاء ولا منع ، هو للجماعة وأنا أمينهم (٤) والواقع أنهما كانا ستارا

---

(١) يراجع ملوك الطوائف في : دولة الاسلام بالاندلس « عصر الطوائف »  
The Encyclopaedia of Islam, I, P. 351 وملوك الطوائف ص ٣١٥ - ٣٢٤ ومعجم  
الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي للدامباور ج ١ ص ٨٦ - ٩٢ .

(٢) أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٧٢ .

(٣) اللخيرة ق ١ ج ٢ ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) البيان المقرب ج ٣ ص ١٨٦ .

يتوارى خلفه ، ولعله كان يشفق من قيام ثورة أو حدوث فتنة تلتهمه  
كما التهمت سواه ، ومن دهائه أنه أمسك بزمام الحكم دون أن يتعلق  
كغيره بمظاهر السلطان فلم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وأعان  
أنه أمين على الموقف الى أن يجيء من يتفق الناس على امارته (١)  
وتحقيقا لهذا رتب الحشم والبوابين على قصور الامارة دون أن  
ينتقل اليها ولم يقبل أن يكون بيت المال تحت امرته مباشرة (٢) وان  
كان الواقع أن حكمه نافذ فيه .

ولما استتب له السلطان قام باصلاحات عديدة واصلاح  
ما أفسدته الثورات المتلاحقة فاستقر الأمن وانتشر الرخاء وعاد  
الفارون من قرطبة اليها ؛ وكان الى هذا جم التواضع يشهد الجنائز  
 ويعود المرضى ويؤذن بمسجد بالربطن الشرقي ويصلى التراويح  
 فيه (٣) ولم يؤخذ عليه الا حرصه الشديد وعنايته البالغة بتنمية  
 ثروته الخاصة حتى أصبح أغنى رجل في قرطبة وان كان عائبوه  
 لم يدعوا أنه جمعها عن طريق استغلال سلطته او تأثير نفوذه ؛  
 وكان حريصا على ألا يصطدم بأمراء الولايات الأندلسية الأخرى ،  
 وكانت الحروب بينهم متواصلة فكان يدارى الطامعين في قرطبة  
 ويجاملهم ويتجنب الالتحام معهم في الفتن القائمة واستطاع بحنكته  
 ودهائه أن يعقد صلات ودية مع كثير منهم وطالما سعى في الصلح  
 بين المتنازعين منهم (٤) فاذا خشي عدوان أحدهم دفعه بغيره ، وقد  
 وصف ابن زيدون حنكته ودهاءه بقوله :

وزير سلم كفاه يمن طـائـره

شؤم الحروب ورأى محصد المرر

---

(١) المعجب ص ٥١ .

(٢) الحلة السراء ص ١٦٩ وملوك الطوائف ص ١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩ والمعجب ص ٦٠ .

(٤) البيان المقرب ج ٣ ص ١٧٣ ، ١٨٧ .

أغنت قريحته معنى تجاربه

ونابت اللوحة العجلى عن الفكر (١)

واضطر تحت ضغط الظروف القاسية أن يعترف بدعوة هشام المزعوم « خلف الحصرى » لأنه أشفق من اصطدامه ببني عباد الذين تبنا هذه الدعوة كما خشى حنين أهل قرطبة الى خلافة الأمويين ابان ازدهارها ؛ ثم ترقب الفرصة المناسبة وخلق دعوته وأقنع الشعب بزيف هذه الدعوة (٢) ونحن نعلم أن بعض شيوخ قرطبة لم يرتاحوا لنقض هذه الدعوة لأنهم كانوا يرون فيها أملا في جمع شتات الامارات المتناحرة المتنافرة وكانوا يطمعون من ورائها في استعادة مجد الخلافة الأموية المزدهرة ويرون في نجاح هذه الدعوة سدا منيعا في وجه المتنمرين من أمراء المسيحيين بالشمال ؛ ومن هؤلاء الشيوخ طائفة خشيت سطوة ابن جهور ففرت الى أشبيلية مصدر الدعوة الهشامية لأنها رفضت أن تقر ابن جهور على نقض هذه الدعوة ؛ ومن هؤلاء الزعماء أبو بكر عبد الله القرشى التميمي أحد رجال الافتاء وكان من الوجهاء الداعين لهشام وممن شهد على عينه (٣) ومنهم أبو عامر بن مسلمة (٤) وكانت بينه وبين شاعرنا مطارحات شعرية ومراسلات نثرية وهو الذى مهد له العيش في ظلال بني عباد ، ومنهم أبو مروان عبد الملك بن أحمد (٥) ويروى اشباخ ان هذه الدعوة أثارت في قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم ابن جهور وانه شغل بقمعها (٦) .

ولقد كان ابن زيدون من الزعماء البارزين في تأسيس حكم

(١) الديوان ص ٢٥٦ .

(٢) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ وملوك الطوائف ص ٣٥ وابن زيدون

عصره وحياته وأدبه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ورقة ١٤٩ .

(٤) مسالك الأبصار ج ١٠ ورقة ٢٣٩ .

(٥) ترتيب المدارك ج ٢ ورقة ١٤٧ .

(٦) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين .

ابن جهور ؛ ومع هذا فاننا نرجح انه انضم الى المنادين ببيعة هشام المزعوم وان محنته تمت الى هذه الدعوة بأوثق الصلات ، وسنشرح هذا الرأي عند حديثنا عن سبب سجنه ؛ ومع هذا فقد أعلن المعتضد ابن عباد وفاة هشام سنة ٤٥١ هـ ثم أعلن أنه ولاه عهده ومن هذا يتضح الفرض الخفى من هذه الدعوة التى شغلت الأذهان عشرات السنين .

وتوفى أبو الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ هـ وخلفه ابنه أبو الوليد ابن جهور وكانت بينه وبين شاعرنا صداقة متينة قبل ولايته الحكم وبعده ، وقد سار أبو الوليد على منهج أبيه فى الحكم غير مخل بشيء مما أمضاه (١) فأقر الحكام وذوى المناصب على ما كانوا عليه فى عهد أبيه ثم اقتفى آثاره فى درء الحد بالشبهة ما وجد الى هذا سبيلا محتجا بعدم وجود الامام المجمع عليه (٢) وكان متسامحا متساهلا يفسح صدره للجميع ويحاول - كأبيه - تجنب المعارك الحربية واستطاع أن يعقد صلات مودة بينه وبين معظم ملوك الطوائف ، وكان لحسن علاقته بهم يبذل وساطته فى الصلح بينهم (٣) ، ومن مآثره الكريمة توسطه فى عقد الصلح بين المعتضد ابن عباد صاحب اشبيلية والمظفر صاحب بطليوس سنة ٤٤٣ هـ بعد حروب دامية تركت آثارا عميقة فى كلتا الامارتين ، وكانت قرطبة فى عهده مأوى الأمراء المخلوعين حيث يجدون فى ظلاله الأمن والعطف والحنان وعلى الرغم من هذا تحرش به المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وحليفه هذيل صاحب شنتمرية الشرق وحاول مسالمتها فلم يفلح ، وقامت بين الفريقين معارك عنيفة وكادت قرطبة تسقط فى أيدي المهاجمين لولا مهاجمة فرديناند الأول ملك

(١) المعجب ص ٦٠ .

(٢) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١١٩ .

(٣) أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٧٦ .

قشتالة وليون لاقليم طليطلة ؛ ونتيجة لهذا نجت قرطبة حتى حين (١) .

ثم شعر ابن جهور بالضعف فأناوب عنه ولديه عبد الرحمن وعبد الملك وعهد بالوزارة الى الوزير الحكم ابن السقا ولكن عبد الملك وهو الابن الأصغر طفا على سلطان أخيه وفتك بوزير أبيه ابن السقا فأثار سخط شيوخ قرطبة وزعمائها ؛ وكان المعتضد ابن عباد يوجه سياسة عبد الملك من خلف ستار ، وانتهر الفرصة وتأهب لاحتلال قرطبة ولكن المأمون صاحب طليطلة سبقه الى فرض حصار عنيف عليها فاستغاث عبد الملك بصديقه المعتضد ابن عباد ثم بابنه المعتمد بن عباد وكان قد ولى الحكم بعد موت أبيه فأعانه ودفع المأمون ثم استولى على قرطبة وضمها الى ملكه ونفى بنى جهور جميعا الى جزيرة شاطيش ، وكان الشيخ أبو الوليد مفاجئا فمات بعد أربعين يوما في منفاه (٢) .

وكان ابن زيدون وراء خطط المعتضد بن عباد وابنه المعتمد وكان هذا بعد أن هجر قرطبة وبنى جهور وعاش في ظل بنى عباد زهاء عشرين عاما ، مما سنتناوله عند ترجمة شاعرنا بالتفصيل .

### بنو عباد باشبيلية

ينتمى بنو عباد الى قبيلة لخم اليمنية ، وفد جدهم عطاف الى الأندلس على رأس كتيبة من الجنود في جيش بلج بن بشر القشيري ، واستقر به المطاف على ضفاف الوادى الكبير بالقرب من اشبيلية ، ومن أشهر حفدته اسماعيل بن محمد ، وكان قائدا في حرس الخليفة هشام الثانى ثم صار اماما لمسجد قرطبة ؛ ثم ولاه الحاجب المنصور خطة القضاء باشبيلية ، واعتزل القضاء حينما أصيب بمرض في عينيه لم يستجز معه الحكم بين الناس « فولى

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٤٢ ، ٤٥ ،

(٢) اللخيرة ق ١ ج ٢ ص ١٢٢ ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩ والبيان المقرب

ج ٣ ص ٢٥٦ - ٢٦١ .

ابنه ابا القاسم القضاء واقتصر هو على شياخة البلد وتدبير الراى حتى توفى فى العام نفسه سنة ٤١٤ هـ « (١) » .

وولى الزعامة بعده ابنه أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ويعتبر مؤسس الأسرة الحاكمة باشبيلية ، ورث أباه فى علمه وأدبه ومنصبه وجاهه ؛ ولكنه كان أنانيا متكبرا فضاق به قومه وكادوا يعزلونه لولا أنه استعان بالقاسم بن جهور فأعانه بجاهه وساطته ونفوذه ؛ ومع هذا تنكر له وأثار ضده رعيته وأفسد عليه قائده باشبيلية - كانت اشبيلية تدين بالولاء لبني حمود فى هذه الفترة - ولما انهزم القاسم بن حمود فى قرطبة فر الى اشبيلية فأغلق القاضى ابن عباد المدينة فى وجهه وأسر ولديه وسأومه عليهما حتى صرفه عن اشبيلية (٢) ولما استقر الوضع فى اشبيلية وأعلن أمراء الطوائف استقلال كل منهم فى ولايته عرض أهل اشبيلية الحكم على القاضى وكان أوسعهم ثراء حيث بلغت ثروته ثلث أراضى اشبيلية (٣) فأعلن أنه لا يستطيع أن يقبل الحكم الا اذا أشرك معه فيه أناسا يختارهم بنفسه دهاء منه وحنكة فأجابوه الى رغبته (٤) وكان بهذا التدبير قدوة لأبى الحزم بن جهور فى تصرفه ؛ ولكنه بعد أن أمن جانب بنى حمود والبربر تخلص من معاونيه واستبد بالحكم واستغل ثروته الطائلة فى شراء عدد ضخم من الممالك دربهم على فنون القتال ، واجتذب اليه عددا وفيرا من الجند المرتزقة منحهم أجورا عالية ، فانضم تحت لوائه عدد كبير من فرسان العرب والبربر بل انضم اليه بعض المحترفين من المسيحيين والفرنجة ، وتوافد عليه المحاربون من النوبة وبلاد السودان والمجرمون الفارون وكذلك

---

(١) البيان المقرب ج ٣ ص ١٩٤ .

(٢) بنو عباد باشبيلية ص ٤٠ والمعجب ص ٩٤ والحلة السراء « نسخة

الجامعة العربية » لوحة ٦٥ .

(٣) ملوك الطوائف ص ١٩ .

(٤) بنو عباد باشبيلية ص ٤١ ، ٤٢ .

اللاجئون السياسيون فكون من الجميع جيشا مدربا سنده في  
الأزمات (١) ، وما أشبه هذا الجيش بجنود الفرقة الأجنبية في  
الجيش الفرنسي في العصر الحديث .

واستغل أسطورة هشام التي أشرنا إليها فيما سبق ليضم  
إليه الإمارات الأندلسية العربية والصقلبية وتوفي سنة ٤٣٣ هـ .  
فخلفه ابنه المعتضد بن عباد وأعلن نفسه حاجبا لهشام المزعوم ،  
وكان سخى اليد غزير العطاء وبخاصة على الشعراء وكان يصوغ  
الشعر ويتذوقه وقد خصص يوما من الأسبوع لمجالسة الشعراء  
والاستماع إليهم ومطارحتهم القريض وأنشأ لهم دارا سماها دار  
الشعراء وجعل لهم رئيسا (٢) .

وقضى مدة حكمه في حروب متوالية كان يدبر خططها ويحكمها  
ويعهد إلى أبنائه وإلى قواده بتنفيذها ومد حدود إمارته باستيلائه  
على كثير من الولايات المجاورة سواء عن طريق الحرب أو الغدر  
أو الحيلة ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الحروب المتوالية ؛  
وكان قد أعلن موت هشام وأنه ولاه عهده فلم يستجب له أحد (٣) ؛  
وكان ابن زيدون كبير وزرائه ومستشاريه ؛ ولقد سئل كيف انفرد  
بالسلامة منه فقال : « كنت كمن يمسك بأذنى الأسد يتقى سطوته  
تركه أو أمسكه » (٤) .

وأخيرا توفي المعتضد نتيجة ذبحة صدرية سنة ٤٦١ هـ ونعل  
لافراطه في الشراب واللذات أثرا في هذه النهاية .

---

(١) الأخيرة ق ٢ ص ٧ والكامل ج ٧ ص ٢٨٧ وملوك الطوائف ص ٢٥  
و History of the Moorish Empire pp. 118,119.

(٢) المعجب ص ٩٦ ، ٩٧ والبيان المقرب ج ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ وملوك  
الطوائف ص ٩٥ .

(٣) Spanish Islam p. 645

(٤) فوات الوفيات ج ١ ص ٩٦ والوفيات مجلد ٢ ص ٦١٩ .

وخلفه ابنه المعتمد بن عباد الشاعر الكبير ، وقد ورث عن أبيه حدة الشهوة وشدة الشغف بالخمر والنساء ولكنه أقل منه ضراوة ، ويعده النقاد أشعر ملوك الأندلس على الإطلاق . وكان واسع الآمال قوى البأس تدرب على يد أبيه في الحكم وفي فنون القتال ، وولى الحكم في مستهل الثلاثين من عمره ، وإلى هذا أشار ابن زيدون في تعزيتة له بوفاة المعتضد بقوله :

وما أعطت السبعون قبل أولى الحجبا

من الأرب ما أعطتك عشروك والعشر (١)

وقد وفق المعتمد في جعل بلاطه مركز نهضة شعرية قوية فجذب إليه الشعراء من مختلف البقاع ، ووثق بابن زيدون فأقره في مناصبه واعتمد عليه في إدارة شئون الدولة الفتية ، وكان ابن زيدون من أساتذته الأجلاء في فنون الأدب ، وطالما طارحه الشعر وبخاصة في فن المطيرات (٢) وجذب إليه الشاعر ابن عمار وخلطه بنفسه ورفع الكلفة بينه وبينه إلى أن فسدت بينهما الأمور - في أخبار طويلة - فقتله .

ولم تطل حياة ابن زيدون بعد ولاية المعتمد بن عباد إلا عاما وبعض عام ؛ ولقد حاول الوشاة والحساد أن يفسدوا ما بين الأمير وشاعره ودرسوا مقطوعة شعرية على المعتمد يغرونه فيها بالشاعر . فأبى المعتمد أن يستجيب لدسائسهم وصاغ مقطوعة شعرية يعارض بها مقطوعتهم .

وانفعل ابن زيدون بهذا الموقف النبيل من الأمير فمدحه بقصيدة طويلة مطلعها :

الدهر - أن أمسلى - فصيح أعجم

يعطى اعتبارى ما جهلت فأعلم (٣)

---

(١) الديوان ص ٥٧٢ .

(٢) هو شعر رمزى يتخذ من أسماء الطيور دلالة على حروف خاصة يفهمها المتطارحان .

(٣) راجع هذه القصائد الثلاث في الديوان ص ٣٠٦ - ٣٢١ .

وبعد وفاة ابن زيدون حزن عليه الأمير حزنا شديدا وولى ابنه مكانه في الوزارة .

ولقى المعتمد — كما لقي غيره من ملوك الطوائف — أذى كثيرا وخطرا عظيما من ألفونس السادس حيث فرض سطوته على أمراء الطوائف وضرب عليهم الجزى وأخذ يقطع من ولايتهم اقليما بعد اقليم « فشق بلاد الأندلس شقا ، يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ، ثم يرتحل عنها الى غيرها ، وتزل على اشبياية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب . . . وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة » (١) ثم سقطت طليطلة في يده فتملكه الغرور ونادى بنفسه امبراطورا وبدأ يستعد للزحف على باقى امارات الأندلس ، وقدم المعتمد اليه الجزية المقررة فرفضها ، وأرسل وزيره ابن شالوب فهدد المعتمد وأساء الأدب فى خطابه فغضب المعتمد وضرب رأسه بمحبرة كانت أمامه فأنزل دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة وأرسل ، هو وباقى الأمراء ، يستغيثون بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين بالمغرب (٢) ولما راجعه بعض أبنائه وخوفه بأس المرابطين وأنه فى هذا الموقف يشبه المستجير من الرمضاء بالنار أجاب بقولته المشهورة « أى بنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الاسلام دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم على اللعنة على منابر الاسلام مثلما قامت على غيرى ، رعى الجمال عند ابن تاشفين والله عندى خير من رعى الخنازير عند الأذفونش » (٢) ولقد أنجده يوسف بن تاشفين وصد ألفونس ، ثم تطورت الأمور فغزل المعتمد وغيره من الأمراء ونفاه وأسرته الى أغمات بالمغرب حتى مات سنة ٤٨٤ هـ .

(١) الاستقصا ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) يراجع الفصل الخاص بهذا الموقف فى ملوك الطوائف .

(٣) أى أن اكون عبدا يرمى الجمال للمسلمين خير من أن اكون عبدا

يرعى الخنازير للمسيحيين راجع الروض المعمار ص ٨٥ وما بعدها وتاريخ

الفكر الأندلسى ص ١٠٤ .

## الفصل الثالث الحياة الأدبية

تجلت آثار الطبيعة الأندلسية في أغاريد الشعراء وترانيم الكتاب ؛ والأندلس - كما نعلم - « تغلب فيها المياه الجارية والشجر والثمار والأنهار العذبة والرخص والسعة في جميع الأحوال الى نيل النعيم والتملك الفاشي في الخاصة والعامة .. » (١) - كما تجلت آثار الحضارة الأندلسية في ازدهار الأدب العربي في هذه البلاد ويشير نيكلسون الى هذا بقوله : « كانت قرطبة من أهم البيئات العلمية والأدبية في العالم كان أبو بكر القرشي يدرس الحديث في جامعها ، والأديب الكبير أبو علي القالي يحاضر في الأدب وابن الفوطية يعلم النحو (٢) ، وكان الأندلسيون يتطلعون الى المشرق في القرنين الثالث والرابع يستوردون النابغين من علمائه ويجزلون لهم العطاء ويتنافسون في الحصول على آثار المشاركة تنافسا كبيرا ويبذلون في ذلك الأموال حتى لقد بذل الخليفة الحكم ألف دينار للأصفهاني ليظفر بكتابه « الأغاني » قبل أن يعرف بالمشرق ، وكان تنافسهم في استنساخ الكتب وانشاء المكتبات مضرب الأمثال ، ويحدثنا المؤرخون عن مكتبة الحكم انها كانت تضم ٤٠٠ ألف كتاب ، كما ذكرنا سابقا ؛ ويحدثنا ابن الأبار ان الحكم قرأ كتب مكتبته وعلق على أكثرها في أول الكتاب وآخره بكتابة اسم المؤلف وكنيته ولقبه وأسرته وقبيلته وسنة ميلاده وسنة وفاته وما يروى

(١) صورة الأرض ص ١٠٨ ، ١١٦ ومعجم البلدان ج ١ .

A Literary History of the Arabs P. 402

(٢) الحلة السراء ص ١٠١ - ١٠٣ ونفح الطيب ج ١ ص ٣٥٦ .

عنه من الفرائب والنوادر » وصار كل ما كتبه الحكم حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم. ينقلون من خطه ويحاضرون به (١) وقد وصلت عطاياه الى كبار المؤلفين من أهل الأمصار النائية منهم أبو اسحاق محمد بن شعبان بمصر وأبو عمر محمد بن يوسف الكندى وأبو بكر الأبهري المالكي عن شرحه لمختصر ابن عبد الحكم (٢) ويروى المؤرخون ان الأندلس كانت تضم ستين مكتبة عامة أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم بل ان غرناطة وحدها كانت تحوى سبعين مكتبة عامة (٣) وكان علماء الأندلس يشدون الرحال الى المشرق لمقابلة أفذاذ النابهين والرواية عنهم والحصول على النوادر من المصنفات العلمية والأدبية .

وفي القرنين الرابع والخامس زخرت الأندلس بنهضة علمية نافست فيها الشرق منافسة قوية في العلوم والآداب وبدأت الشخصية الأندلسية تبرز وتتجلى وتتحدى الأعلام وتكاد ترحمهم في ميادين العلوم والآداب .

واذا كانت الأندلس في القرن الخامس انقسمت سياسيا الى امارات عديدة متنافسة متناحرة فان هذا الضعف السياسى أنتج قوة علمية وأدبية كان سببها تنافس الأمراء فى فنون الآداب والعلوم . فقد كان بلاط مجاهد العامرى يفص بالعلماء والفقهاء والأدباء ، وكان هو من أعرق العلماء بفن القراءات واجتمع فى بلاطه طائفة من العلماء والفقهاء منهم أبو عمرو الدانى أشهر علماء القراءات فى الشرق والغرب وصاحب المنظومات البارعة فى القراءات ، ومنهم ابن عبد البر وابن معمر اللقوى وابن سيده . . فشاع العلم فى حضرته حتى نشأ فى جواريه وغلماؤه (٤) ؛ ألما بلاط بنى عباد

(١) الحلة السراء ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٣٠٢ والأدب العربى وتاريخه ج ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٤) أعمال الاعلام ج ٣ ص ٢٥٠ .

فلا يكاد يقل عن بلاط الرشيد في بغداد وسيف الدولة في حلب والبويهيين في فارس وكان المعتمد ابن عباد لا يستوزر وزيرا الا أن يكون شاعرا (١) والدارس لتاريخ ملوك الطوائف يعرف كيف كانوا يتنافسون في جذب العلماء والأدباء ورجال الفنون على الرغم من المحن السياسية التي كانت تحيط بهم ، وفي هذا يقول ميتيندر بيدال : « ان طبيعة حكم ملوك الطوائف شهيرة بالتناقض بين اضمحلاله السياسي وازدهاره الفكري والاقتصادي في القرن الحادي عشر » (٢) ويقول هنري بيريز : « ان ملوك الطوائف ما كانوا يتنافسون في الميدان السياسي فحسب . بل كانوا يتنافسون ايضا في ميدان آخر هو جذبهم كتابا مشهورين بقوة فصاحتهم وبراعتهم التي كانت تمكنهم من التبريز في مجالس الأدب واقحام الآخرين باستعمال الكلمات الماثورة » (٣) ومع شغف الجميع بالعلوم والآداب والفنون فان كلا منهم غلبت عليه سمة خاصة به « فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغريز وابن ذي النون صاحب طليطالة بالبذخ البالغ والمقتدر ابن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبذا ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع ، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم جميعا يلقى منهم كل رعاية ، ولكن عناية بني عباد أصحاب اشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل . . » (٤) ولازدهار الشعر بالاندلس يكاد الباحث يعتقد أن أهلها جميعهم شعراء والى هذا أشار القزويني « ان أى فلاح يحرق في شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات . . » ومضى الشعراء يقطعون الاندلس وينتجعون قصور الأمراء ويفشون أصحاب النفوذ وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين وتخلع عليهم وظائف التدريس ولقد

(١) المعجب ص ٧١ .

(٢) Menendez Pidal : The Cid and His Spain. London 1934 P. 33

(٣) La Poesie P. 23

(٤) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٧٨ .

كان أحدهم يرتجل المقطوعة الصغيرة فيبلغ بها مرتبة الوزارة (١) ولقد كان الأندلسيون يقلدون المشاركة في مبدأ أمرهم ويشدون الرحال إلى المشرق لينشدوا ما فيه من أدب جم وعلم غزير ، وكانوا يستقدمون كبار المشاركة كزرياب المغنى وأبى على القالى وصاعد البغدادي وغيرهم ثم أخذوا في مجاراتهم في القرن الرابع الهجرى ، فقد ظهر بالأندلس أطباء أفذاذ فاقوا المشاركة مثل الفافقى وابن البيطار وابن جليل وبنو زهر . . كما ظهر فيه فحول في الآلهيات والرياضة والطبيعة والمنطق (٢) ، وزاحموا المشاركة في مصنفاتهم اللغوية والأدبية فقد ألف الأعلام الشنترى للمعتضد ابن عباد « شرح الأشعار » الستة و « شرح الحماسة » وألف له غيره مصنفات عديدة لم يسبق إليها (٣) واعتز بعض الباحثين بمصنفاتهم وبالفوا في هذا فقد رفض أبو غالب اللغوى أن يقبل ألف دينار من مجاهد العامرى في مقابل أن يضع اسمه في مقدمة كتابه (٤) ثم بدأت المعارضة للمشاركة سافرة ، فقد ألف ابن فرج الجياني كتاب الحقائق للحكم المستنصر معارضا فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود بن على الأصفهاني ولم يورد ابن فرج في كتابه شيئا لغير الأندلسيين ؛ وأبو الصلت أبية بن عبد العزيز مؤلف كتابه الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للشمسلى ويلتزم ألا يروى فيه لغير أندلسى (٥) وعبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢١ هـ يؤلف كتابا في أخبار شعراء الأندلس لإبراز مدى شاعريتهم الفذة (٦) وكتاب الذخيرة لابن بسام الذى صنفه

(١) المصدر السابق ص ٧٩ .

(٢) طبقات الأمم ٦٤ ، ٦٩ ، ٨ ابن أبى أصبغة ج ٢ ص ٣٩ وتاريخ

الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٤) جذوة القتبس ص ١٧٢ ونفع الطيب ج ٢ ص ١٢٩ .

(٥) بغية الشمس ص ٢٤١ .

(٦) نفع الطيب ج ٢ ص ١١٨ .

سنة ٥٠٢ هـ ملىء بتحدى المشاركة وهو كتاب فذ فى تأليفه تناول فيه الشعراء والأدباء الأندلسيين فى القرن الخامس الهجرى وهو فى أربعة أقسام كبيرة طبعت جامعة القاهرة منه ثلاثة أجزاء ولا تزال خمسة منه تحت الطبع (١) .

والاعتزاز بالأدب الأندلسى يبدو واضحا فى رسالة الشفندى التى رواها ابن سعيد فى كتابه « المعرب » كما حفظها المقرئ فى كتابه نفح الطيب (٢) وهذه الرسالة تعتبر وثيقة تضم أهم فحول العلماء ونوابغ الأدباء الأندلسيين فهو يعدد فيها « من أنجبته الأندلس من الفقهاء واللغويين والنحاة والفلاسفة والرياضيين والأطباء والمؤرخين والمؤلفين والنقاد ومن أطلعهم الأندلس من الشعراء الذين أبدعوا فى كل فن من فنون الشعر . . أولئك الشعراء الذين أنشأوا من القصيد ما سارت بمدبحه الركبان ، وأحسنوا التعبير عن أدق العواطف . . وكان الأندلسيون يتحدثون كل شاعر مشرقى بشاعر أندلسى فقد كانوا يسمون شعراء بأسماء أعلام شعراء الشرق (٣) فكانوا يقولون : « الرصافى ابن رومى الأندلس ، ومروان ابن عبد الرحمن ابن معتز الأندلس » وابن خفاجة صنوبرى الأندلس ؛ وابن زيدون يحترى الأندلس وابن دراج (٤) متنبى الأندلس ، ومحمد بن سعيد الزجالى الأديب الحافظ أصمعى الأندلس لحفظه وذكائه ، وأبو بكر الزبيدى الشاعر اللغوى ابن دريد الأندلس . كما يقولون فى الفيلسوف ابن باجة (٥) الشاعر الموسيقى انه فارابى المغرب وحمدة بنت زياد الشاعرة بأنها خنساء المغرب . . » (٦) .

(١) طبع منه القسم الأول فى جزئين كما طبع الجزء الأول من القسم الرابع .

(٢) ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) Pérés P 48

(٤) فى إحدى الروايات ابن عبدون وفى أخرى ابن دراج .

(٥) أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة .

(٦) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ٢٦٢ .

وبالغ بعضهم في نقد المشاركة وتفضيل الأندلسيين عليهم كما فعل أبو الوليد الحميدى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ في كتابه « البديع في وصف الربيع » جمع فيه أشهر المقطعات الشعرية الأندلسية في وصف الطبيعة ويقول في مقدمته : (١) « وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس ولا يرونها منها العقد النفيس ، مع أنى أستغنى عنها ، ولا أحوج إليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع والنظم المخترع وأكثر ذلك لأهل عصرى ، إذ لم تغب نوادرهم عن ذكرى .. » .

ويقول في الصفحة الثانية من مقدمة كتابه « لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم ، وتثقيفهم لأخبارهم ، مذ تدامت العرب بكلامها ، وشغلت بنشرها ونظامها ، لا يجردون لأنفسهم من التشبيهات ، في هذه الموضوعات ما وجدته لأهل بلدى » ثم يقول عن الأندلسيين : « وقد سبقوا في أحسن المعانى مجتنى ، وأطيبها مجتنى ، فلهم فيه من الاختراع الفائق ، والابتداع الرائق ، وحسن التمثيل والتشبيه ، ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه » .

وكانت هناك مواقف فكهة في تحدى الأندلسيين للمشاركة فقد هاجر يحيى بن الحكم البكرى المعروف بالغزال الى العراق بعد وفاة أبى نواس « فجلس يوما مع جماعة من الأدباء فأزروا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبى نواس فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشرب أكدت سـمـاؤهم

تأبطت زقى واحتبست عنـسـائى

فلما رأيت الحـسـان ناديت ربه

فثاب خفيف الروح نحو ندائى

قليل هجوع العين الا تعـلـة

على وجل منى ومن نظرائى

---

(١) مطبوع بالمطبعة الاقتصادية بالرباط تحقيق هنرى بيريز .

فقلت اذقنيها ، فلما اذاقها  
 طرحت اليه ريطتى وردائى  
 وقلت أعرنى بذلة أستتر بها  
 بذلت له فيها طلاق نسائى  
 فوالله ما بـرت يمينى ولا وفت  
 له غير أنى ضامن بوفائى  
 فأعجبوا بالشعر وذهبوا فى مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم :  
 خفضوا عليكم فائه لى ، فأنكروا ذلك فأنشدهم قصيدته التى  
 أولها :

تداركت فى شرب النبىذ خطائى  
 وفارقت فيه شيمتى وحيائى  
 فلما أتم السورة بالانشاد خجلوا واftرقوا عنه « (١) .

واذا كانت العصبية الأدبية تلون الحقائق بغير ألوانها وتدعو  
 الى المبالغة فى بعض الأحيان فالانصاف يقتضينا أن نقرر أن المشاركة  
 هم الأساتذة الأولون وهم الذين وضعوا الأسس ، ورسموا المناهج  
 وتركوا آثارا علمية وأدبية خالدة على الزمان ؛ ولكن الأندلسيين  
 نافسوهم بقوة فى هذه الميادين وظهر فيهم عباقرة طاولوا المشاركة  
 وزحموهم فى بعض الميادين ، وحسبنا أن نشير الى عالم الأمة  
 الاسلامية الكبير الفقيه الفيلسوف الناقد الشاعر أبو محمد على  
 ابن حزم الأندلسى ، المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ألف فى علوم الحديث والفقه  
 والأصول ومراتب العلوم ، وكتب أول بحث فلسفى فى مقارنة الأديان  
 ونقلها لم يسبقه اليه سابق سماه «الفصل فى الأهواء والنحل» (٢)  
 نشر بالقاهرة سنة ١٣٢١ هـ وهو فى كتابه هذا يستعرض الأديان

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٦٢٦ - ٦٣٤ .

(٢) وصفه بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الاسلامية بأنه كتاب لم يسبق  
 الى مثله فى الادب العربى ووصفه آسبن بلاسيوس بأنه سبق علماء أوربا  
 بقرون .

السابقة للإسلام في احاطة ودقة وشمول ويذكر مختلف العقائد ويناقش الفلاسفة والسوفسطائيين مناقشة المتمكن القدير ، وقد تأثر بأرائه كثير من الفلاسفة الغربيين ومن أشهرهم توماس الاكوينى ، وقد أشار الى عدد منهم المستشرق الشهير آنخل جنثالث بالنشيا كما أشار اليهم أسين بلاثيوس الذى كتب بحثا قيما عن هذا الكتاب وأثره العميق فى الباحثين من بعده وذكر فى بحثه « اننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هى أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب « الفصل » لابن حزم يمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذى لم يتوقف أبدا خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب » (١) وله أيضا كتاب « الاحكام فى أصول الأحكام » وقد سلك فيه مسلكا يدل على الابتكار كعادته دائما ويعد من أهم المراجع التى لا يستغنى عنه باحث أو فقيه ، ومن أهم كتبه « المحلى فى الفقه الظاهرى » ويعتبر ابن حزم هو المؤسس الفعلى لهذا المذهب وان كان قد سبقه اليه داود الظاهرى ، وهو مرجع فقهى لا يزال كبار الفقهاء والباحثين يرجعون اليه وينهلون من ينابيعه الفياضة .

ومن أعجب الأمور أن يكتب هذا الفقيه العلامة الكبير فى فلسفة الحب كتابه الخالد « طوق الحمامة » وهو أشبه بالتراجم الذاتية Autobiography ترجم فيه ابن حزم لنفسه ، وصور خلجاته وعواطفه ، وقد سبقه الى الحديث عن الحب محمد بن داود الظاهرى فى كتابه « الزهرة » ولكن شتان بين الكتابين فكتاب ابن حزم أبرع وأثمن وأوفى وأدق تحليلا وأبدع تصويرا ويعده الباحثون أول ترجمة ذاتية فى الأدب العربى ، وتتجلى فيه العناية بالتحليل النفسى أكثر مما تتجلى فى سرد الحوادث وفيه لمحات قوية من أدب الاعتراف ، وكله من آثار قلمه الشعرية والنثرية (٢) ، كتب هذه الرسالة بعد أن تجاوز الثلاثين وهو يتحرى فيها الصدق

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢١٩ - ٢٢٩ .

(٢) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٤ .

وتبدو شخصيته في هذه الرسالة واضحة قوية (١). ويقول في مقدمتها « وما مذهبي أن أمتطى مطية سوى ولا أتحملي بحلي مستعار » ويعتبر أنجل جنثالث بالنشيا هذه الرسالة أهم ما ألف ابن حزم في فن الأدب (٢) .

ولا يتسع المجال للحديث عن تراجم فحول العلماء في هذا العصر .

وحسبنا أن هذا العهد قدم للغة العربية أعلاما خالدين مثل أبى عمرو الدانى شيخ القراء وابن عطية شيخ المفسرين وابن حيان عميد المؤرخين - وقد وضع خمسين مصنفا في التاريخ - كما قدم لنا هذا العصر ابن سيده المتوفى سنة ٥٨٨ هـ صاحب أكبر معجم موضوعى عرفته العربية سماه « المخصص » وهو من الكتب النادرة في اللغة العربية لأنه مرتب على حسب الموضوعات يذكر الشيء ، وأوصافه كلها وأجزائه ويستوعب الألفاظ والمفردات الدالة على ذلك ، وقد أشرف على طبعه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده والأستاذ العلامة اللغوى الشنقيطى فى سبعة عشر مجلدا ، وله معجم آخر قيم مرتب على حروف المعجم سماه « المحكم » وتطبعه الآن الادارة الثقافية بالجامعة العربية وهو يبلغ بضعة عشر مجلدا ، ومن الغريب ان هذا المؤلف كان أعمى وأبوه أعمى أيضا .

أما الأدباء والشعراء فقد أنجب هذا العصر طائفة من ألمع شعراء العربية فى جميع العصور مثل ابن دراج والرمادى وابن حزم وابن زيدون والمعتضد بن عباد والمعتد بن عباد وان حمدىس الصقلى وابن برد الجدى وابن برد الحفيد وابن وهبون وابن عبدون كما أنجب طائفة من ألمع الكتاب وأشهر المصنفين مثل ابن بسام وابن حيان وابن عبد البر وابن القسبرة وابن خاقان . . ممن لا يتسع

---

(١) ابن حزم للأستاذ محمد أبى زهرة مطبعة مخيم سنة ١٩٥٤ ص ١٨٨  
طوق الحمامة ص ٣ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢٢٩ - ٢٣٧ .

لذكرهم المجال . وهذه الكثرة الكثيرة هي التي أوحى اليهم أن ينافسوا شعراء المشرق ؛ وإذا كان المشارقة يعتزون بكتاب الزهرة لأبي محمد بن داود ويذكرون أنه أورد فيه مائة باب في كل باب مائة بيت مختارة ، فإن ابن فرج صاحب كتاب الحقائق الذي أشرنا إليه سابقا أورد كتابه في مائتي باب في كل باب مائتا بيت مختارة من شعر الأندلسيين وحدهم (١) ومن أرق شعراء هذا العصر ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ وهو الشاعر المبدع والكاتب الناقد الشهير ، وكان ظريفا خفيف الروح فكاه المجلس وهو صاحب الرسالة الخالدة في الأدب العربي « رسالة التوابع والزوابع » (٢) وهي رحلة خيالية في مساكن الجن بوادي عبقر ثم بالجنة والنار تخيل فيها أن له شيطانا ككل الشعراء المبدعين ، وقد اتصل به شيطانه وسار به الى العالم الآخر ، وأركبه فرسه ، وطاف به على الشعراء الأقدمين ، وهم في حياتهم الآخرة فأخذ ينشدهم وينشدونه الشعر ثم تخيل لكل شاعر شيطانا وجهة ينزل بها ومنزلا يقيم فيه ، ثم أخذ يستعرض أشعارهم وينقدها نقدا بارعا يدل على اطلاع واسع وبصر نافذ ؛ وقد حفظت لنا الذخيرة قسما من هذه الرسالة ، ثم أفردتها بالنشر حديثا الأديب بطرس البستاني سنة ١٩٥١ معتمدا على ما جاء منها في الذخيرة ويذهب بعض الباحثين الى أنه عارض بها رسالة الففران لأبي العلاء المعري ، ولكن بروكلمان في حديثه عن ابن شهيد في كتابه « الأدب العربي » أثبت أن ابن شهيد ألف رسالته قبل أبي العلاء بعشرين عاما ، إلا أن بطرس البستاني يرى أنها لم تتقدم عليها إلا بتسع سنوات (٣) ، وليس لدينا دليل يثبت أن أبا العلاء تأثر بها أو اطلع عليها ويبدو لنا

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٨٧ .

(٢) الزوابع : الشيطان أو رئيس الجن ، والتابع من ينقاد للشيطان ويتأثر به أو الجن المصاحبة للانسان كالقرين .

(٣) راجع مقدمة الرسالة للبستاني .

ان ابن شهيد استوحى رسالته من المقامة الابليسية لبديع الزمان الهمداني (١) ، ويدور بين النقاد والباحثين جدل طويل حول نأثر دانتي برسالة الغفران للمعري ؛ ومن يدري فقد يكون تأثيره بالتوابع والزوابع لأنها أقرب اليه منالا من رسالة الغفران ؛ وان كانت قصة الاسراء والمعراج تبدو واضحة الأثر في الكوميديا الالهية لدانتي ، والمجال لا يتسع لمناقشة هذا الموضوع . واذا كانت الطبيعة قد تركت أثرا عميقا في الأدب الأندلسي فان هذه الطبيعة قد تركت في حياتهم الخاصة أعمق الآثار حيث صرفت معظم الشعراء والكتاب الى مجالس اللهو والشراب والموسيقى والغناء ، والى هذا يشير ابن شفيق بقوله : « لو طبعت على الزهد لحملني حسن بلادي على المجنون والتعشق والراح » (٢) ، ويعبر عن هذه النزعة ابن عمار حيث يقول :

أدر الزجاجة فالتسليم قد انبرى  
والنجم قد صرف العنان عن السرى  
والصبح قد أهدي لنا كافوره  
لما استرد الليل منا العنبرا  
روض كأن النهر فيه معصم  
صاف أطل على رداء أخضرا  
كما يعبر عنها المعتمد بن عباد بقوله :  
ولقد شربت الراح يسقط نورها  
والليل قد مد الظلام رداء  
حتى تبسدى البدر في جوزائه  
ملكا تناهى بهجة وبهاء

---

(١) ذكر ابن شهيد في رسالته انه ألفها في عهد سليمان المستعين ابن الحكم ( ٤٠٠ - ٤٠٧ هـ ) ، وجاء في رسالة الغفران ما يدل على أن المعري ألفها في سن السبعين ( سنة ٤٢٢ هـ ) .  
(٢) صفة جزيرة الأندلس ص ٤٥ .

وحكيته في الأرض بين مساوئ  
وكواعب جمعت سنا وسناء  
كما يرددها ابن زيدون في قوله :  
أين أيا منا وأين ليـسال  
كرياض لبسن أفواف زهر  
وزمان كأنما دب فيه  
وسن أو هفا به فرط سكر  
حين تغدو الى جداول زرق  
يتغلغلن في حـدائق خضر  
نتعاطى الشمول مذهبة السر  
بال ، والجو في مطارف غبر

وكانت مجالس الأمراء والشعراء حافلة بالموسيقى والفنساء  
بل كان من الأمراء من يجيد الشعر والموسيقى والفنساء كالمعتمد  
ابن عباد حيث كان يجيد الغناء والضرب على الطنبور ، وكان ابنه  
الرشيد بارعا في التوقيع على العود وغيره من آلات الموسيقى (١) ،  
ومن المشهورين بالموسيقى والغناء الحكيم المطرب أبو بكر الاشبيلي  
والمغني السوسي (٢) روى أبو الوليد بن جهور انه تلقى في يوم واحد  
كتاب ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة ، وكتاب  
ابن عباد يطلب جارية زامرة وسمع المعتضد عن جارية ابن الرمي  
بقرطبة فأرسل في شرائها (٣) .

ومن المناسب ان نسردها هنا نادرة تدل على مدى شغفهم بالشراب  
حتى بين المتزمتين منهم ، روى المقرئ أن الحاجب المنصور استدعى  
لمجلس شرابه بعض الوزراء والندماء وأحضر ابن شهيد في محفة  
لنقرس كان يعتاده فمر عليهم يوم حافل بالبهجة والسرور واستبد

(١) تاريخ العرب لفيليب حتى ترجمة مبروك نافع ص ١٦٥. ٢٠٦ Ccndé V 2 p.

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٩٢ ، ٤٨٣ ووفيات الأعيان ج ٧ ص ٢٩ .

(٣) البيان المقرب ج ٣ ص ١١١ ، ١١٢ ، ٢٥٠ .

بهم الشراب حتى تناوبوا الرقص ، فلما انتهى الدور الى ابن شهيد  
قام يرقص متكئا على الوزير ابي عبد الله بن عباس ويومئ الى  
المنصور منشدا وقد غلبه السكر :

هاك شيخ قاده السكر لكا  
قسام في رقصته مستهلكا  
لم يطق يرقصها مستثبنا  
فانشنى يرقصها مستمسكا  
عاقه عن هزها منفسدا  
نقـرس احنى عليه فاتكا  
من وزير فيهمو رقاصـة  
قام للسكر يناغى ملكا  
قهقه الابريق متضاحكا  
ورأى رعشة رجلى فبكا

فقال أحد الحاضرين : لله درك يا وزير ترقص بالقائمة وتصلي  
بالقاعدة فضحك المنصور وأثاب الجميع (١) .

ويرى دوزى « ان للاختلاط بين العرب وغيرهم بالأندلس اثرا  
كبيرا في الغناء والأدب معا ، وقد كانت طبيعة الاقليم الجميلة من  
دواعى الغناء والطرب واللهو وكانت مجالس الغناء معقودة مستمرة  
حيث كانت الجوارى يفدن عليها من مختلف الأقطار منذ عهد  
زرياب موصلى الأندلس وصاحب اليد الطولى في الحركة الغنائية  
بها » (٢) .

ومما يدل على مدى شغفهم بالغناء أن المظفر بن الأفطس بعد  
هزيمته المنكرة أمام المعتضد أرسل في طلب القيان من قرطبة مع  
أن خزينته كانت شبه خاوية وجيشه مهزوما وملكه مهددا

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) Spanish Islam P. 26x 265

بالزوال (١) وأتاحت الحضارة الاجتماعية للمرأة مكانة ممتازة . فكان لها دور فعال في ازدهار العلوم والفنون والآداب وحسبنا في الدلالة على مكانتها أن الناصر بنى مدينته الزهراء وأنفق عليها الأموال الطائلة ارضاء لاحدى زوجاته ، وأن «اعتماد» حظية المعتمد ابن عباد رأت قطع الثلج تتساقط في قرطبة فتمنت على زوجها مثل ذلك ، فأمر بأن تزرع أشجار الازر في هضبات قرطبة فتزهر في آخر الشتاء فتظهر بيضاء كالثلج ، ورأت الناس يمشون يوما في الطين فاشتتت المشى فيه فأمر المعتمد فسحقت الطيوب وعجننت بالأيدى حتى عادت كالطين وخاضته مع جواربها (٢) .

وقد نالت المرأة في الأندلس قسطا وافرا من التعليم في الوقت الذي كانت المرأة الأوروبية فيه تعد مخلوقا في الدرجة الثانية طبقا للمذهب الكاثوليكي ولهذا قلما كانت تنال حظا من الثقافة الا في طبقات النبيلات حيث كن ينلن قشورا من الثقافة لا تكاد تعدو القراءة والكتابة (٣) هذا في الوقت الذي فازت فيه المرأة الأندلسية بمنصب الأستاذية ونالت بعضهن مناصب غريبة حتى ان « لبانة » كانت تشغل وظيفة سكرتيرة خاصة للخليفة الحكم (٤) واشتهر من النساء عدد كبير كن يساجلن الرجال في ميادين الشعر والعلم والفن ، وكن زينة مجالس السحر والطرب والغناء ، وكان لبعضهن صالونات أدبية تضم عظماء الرجال في الفنون والآداب ، وكان التعليم شائعا بينهن ، وكثيرات منهن كن يحفظن بضعة دواوين لشعراء العرب وينظمن الشعر ويترسلن كالأوربيات اليوم (٥) روى ابن فياض في تاريخه أنه « كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة

---

(١) اللخيرة ق ٢ ص ١٦ « مخطوطة » والبيان المقرب ج ٣ ص ٢١١ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٨ .

(٣) تاريخ التربية الاسلامية للدكتور شلبى ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

(٥) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٧ .

كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا في ناحية من نواحيها فكيف بجميع أحيائها (١) بل كان في دكان نسخ واحد بها مائة وسبعون جارية يشتغلن في نسخ المؤلفات لطلاب الكتب النادرة (٢) .

\* \* \*

وأخيرا لا نحب أن نتعصب مع الأندلسيين فنجد فضل المشاركة وسبقهم كما أننا لا نستطيع أن نغمط الأندلس حقها فيما أنتجته من علوم وفنون ، وإنما نقول ما قاله أستاذنا أحمد أمين في ختام كتابه ضحى الاسلام « كما انتفع الأندلسيون بعلوم الشرق ومنتجاته انتفع الشرق بآثارهم ، فكم انتفع المشاركة بالعقيد وظرفه ، والمخصص والمحكم ومنهجها في اللغة . وابن رشد وفلسفته (٣) ، والموشحات وطرافها فلولم تقم الحضارة الأندلسية بعالمها وفنونها وآدابها ثمانية قرون تعمل جاهدة في خدمة العلم والأدب لتغير تاريخ العالم الاسلامي » .

وقبل أن نختم هذا نرى من الأمانة العلمية أن نصحح خطأ وقع فيه بعض الباحثين عن رسائل اخوان الصفاء ، حيث ظن ان الفيلسوف الأندلسي مسلمة المجريطي المتوفى سنة ٣٩٥ هو مؤلف هذه الرسائل ، والواقع أن هذه الرسائل ألقتها جماعة فلسفية سياسية نشأت بالبصرة في القرن الرابع الهجري وجمعت بين حرية فكر المعتزلة واتجاه الشيعة وجمعت بين شتى الآراء والمذاهب ، وتضم هذه الرسائل واحدا وخمسين بحثا جمعت أنواع المعارف العميقة المعروفة في هذا العصر مما يجعلها تشبه دوائر المعارف الحديثة (٤) وتكتم مؤلفوها أسماءهم ليتحدثوا فيها بملء حريتهم ،

(١) المعجب ص ٣٧٢ .

(٢) نضيف اليه تفسير ابن عطية والقرطبي وابن العربي ومؤلفات ابن مالك النحوية وابن عربي الصوفية .

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣١٠ .

(٤) نشرتها المكتبة التجارية بتحقيق خير الدين الزركلي سنة ١٩٢٨ .

ولقد لقيت هذه الرسائل رواجا كبيرا في الشرق والغرب ؛ وحملها معه المجريطى الى الأندلس ورواها عنه وأذاعها تلميذه أبو الحكم الكرمانى (١) ؛ ولعل الذى أوقع فى هذا اللبس ما ذكره المجريطى فى كتابه « رتبة الحكم فى علم الكيمياء » - : « وقد قدمنا من التأليف فى العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية رسائل استوعبنا فيها استيعابا لم يتقدمنا فيها أحد من أهل عصرنا ، وقد شاعت هذه الرسائل فيهم وظهرت اليهم فتنافسوا فى النظر اليها وحضوا أهل زمانهم عليها ، ولا يعلم أحد من ألف ولا من أين ألف غير الحذاق منهم » .

وقال صاحب كشف الظنون فى حديثه عن رسائل اخوان الصفاء « وقد وجد بالأندلس كتاب آخر اسمه رسائل اخوان الصفاء ألفه الحكيم أبو محمد مسلمة المجريطى ؛ ويظهر أن الوقت الذى ألف فيه المجريطى رسائله هو الوقت الذى ألف فيه اخوان الصفاء رسائلهم ، والى هذا يشير شيخ العروبة أحمد زكى باشا بقوله معقبا على من ظن أن المجريطى هو مؤلف الرسائل المعروفة - : « الظاهر أنهم لما أطلعوا عليه ( قول المجريطى ) قالوا ان الرسائل التى يقصدها هى رسائل اخوان الصفاء ، وهو وهم لأنه يقول : ( وقد استوعبنا فيها العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية استيعابا لم يتقدمنا فيه أحد من أهل زماننا ) وليست رسائل اخوان الصفاء كذلك » (٢) .

ومهما يكن من شىء فان الأندلس بدأت تزاحم المشرق فتزحمه حيناً وتقصر عنه أحيانا ، وتطاوله فتطوله تارة وتقف دونه تارات ؛ ولو طال بها الزمان واستشعرت الأمان لاضافت الى الحضارة العربية والثقافة الاسلامية والفنون الأدبية فصولا خالدة . وقد كشف الزمن وسيكشف من آثارهم ما يؤيد هذا الاتجاه .

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٥٥ ونرجح أن الذى حملها هو الكرمانى التلميذ لا المجريطى الأستاذ .

(٢) الأدب الأندلسى للأستاذين بلافريج وخليفه ص ٦٠ .



القسم الثاني  
الأديب الموهوب

## الفصل الأول

### بداية صالحة

للبيئة أثرها العميق في تكوين شخصيات العباقرة الموهوبين ، كما أن للوراثة أثرها العميق في تكوين الميول الفطرية والاعتماد الذهني لهؤلاء العباقرة - فلا نستطيع أن نتعرف الى شخصية عظيم دون أن ندرس بيئته التي شب فيها وتأثر بها قبل أن يؤثر فيها ، ودون أن ندرس أسرته التي ورث منها خصائصه العقلية والجسمية وتأثر بتوجيهاتها قبل أن يبلغ تمام الرشد والاستواء . ولقد تناولنا في القسم الأول الحديث عن البيئة الأندلسية وما تزخر به من تيارات ثقافية ، وأحداث سياسية وحضارة عمرانية وبقي علينا أن نتحدث في مستهل هذا القسم عن بيئة شاعرنا الخاصة أو بعبارة أدق عن الأسرة التي انحدر منها وانتمى اليها ودرج في أحضانها وتلقى معارفه وثقافته الخاصة والعامة تحت ظلالها وتأثير توجيهاتها ، قبل أن نصحبه في رحلة حياته الطويلة العريضة وقبل أن ندرس ما حفلت به هذه الحياة من أحداث وما تركته في الأدب العربي من آثار .

### أسرة الشاعر

امتازت قريش عن القبائل العربية بالقداسة الدينية في الجاهلية والاسلام ، أما في الجاهلية فلأنها كانت تقوم على سداثة الكعبة وخدمة ما بها من أصنامها وأصنام بقية القبائل ؛ وأما في الاسلام فلأن الدين الاسلامي الحنيف انبثق منها فعم الأرجاء وغمر العالم من أقصاه الى أقصاه ، هذا فضلا عن نسبتها المشهورة الى اسماعيل وأبيه ابراهيم عليهما السلام ، وهما اللذان بنيا البيت الحرام . .

وظلت الخلافة الاسلامية مقصورة على قريش أكثر من تسعة قرون حتى انتزعها منها الأتراك العثمانيون . وبطون قريش عديدة ولكن عشرة بطون منها انتهى اليها الشرف في الجاهلية ووصلته في الاسلام ؛ ومن هذه البطون بنو مخزوم ومن زعماء بنى مخزوم خالد ابن الوليد وكانت اليه القبة والأعنة (١) وقد رحلت عشائر عديدة من بنى مخزوم الى الأندلس مع من رحل اليها من القبائل والعشائر والشاعر يمتد نسبه الى بنى مخزوم ، ولا نعرف عن آبائه وأجداده شيئا . وان كان الذين عاصروا الشاعر وسجلوا تاريخ حياته أشاروا اشارات مبهمه الى أنه نشأ في أسرة كبيرة نابهة فيقول ابن حيان معاصر الشاعر وجامع ديوانه : « أنه من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفتنة » (٢) وأنه « ذو الأبوة النابهة بقرطبة » (٣) وقد راجعنا كتب التراجم والتواريخ الأندلسية مراجعة دقيقة بحثنا عن آباء الشاعر وبخاصة كتاب ابن الفرضي . . الذي استوعب تاريخ علماء الأندلس وسماه « تاريخ علماء الأندلس » وقد طبع مرتين ، كما راجعنا ذيله لابن بشكوال الذي سماه « الصلة » وقد طبع مرتين ؛ ثم راجعنا تاريخ قضاة الأندلس للنياهي ، ولم نجد فيها جميعا ذكرا لأجداد الشاعر ، وكل ما وجدناه فيما وصلنا من المراجع يقتصر على بضعة أسطر عن والد الشاعر سنتحدث عنها بعد قليل - ومما لا شك فيه أن لوالد الشاعر مكانة بين قومه أما أجداده ، فلا نعرف عنهم شيئا على الإطلاق . ولكن أوغست كور الذي كتب كتابا قيما عن الشاعر باللغة الفرنسية يذكر في كتابه أن أجداد الشاعر وصلوا الى اسبانيا في أوائل الفتح الاسلامي ، وانهم كانوا من أشياع بنى أمية ، وأن الحكام الأمويين

(١) القبة كانوا يقيمونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش . والأعنة قيادة الفرسان في الحروب .

(٢) المقصود بأيام الجماعة أيام الخلافة الأموية حتى موت الحكم بن الناصر سنة ٣٦٦ والحاجب المنصور سنة ٣٩٣ هـ . وبأيام الفتنة ما تلا هذا من أحداث

(٣) الدخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ واعتاب الكتاب ص ٧٦ .

أسندوا اليهم كثيرا من المناصب العالمية (١) ؛ ولا ندرى المصدر الذي استند اليه كور .

**أما والد الشاعر :** فهو الفقيه عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي ؛ ولقب الفقيه من أكرم ألقاب التكريم بالأندلس حتى كانوا يطلقون هذا اللقب على الأمير العظيم (٢) ويترجم القاضي إسماعيل في كتابه ترتيب المدارك لوالد ابن زيدون (٣) مع من ترجم لهم من كبار اعلام المذهب المالكي فيقول عنه : « كان متفنا في ضروب العلم جَم الرواية والمعرفة فصيحاً جميل الأخلاق » (٤) ومن هذا الوصف يتضح أنه كان واسع الثقافة غزير العلم مشهوراً بالبلاغة معروفاً بمكارم الأخلاق ، وكان على حظ وافٍ من الشراء أتاح له - مع علمه وخلقه وفصاحته - أن يكون ذا شأن في بلده وكان معدوداً في عليّة القوم ، وكان ذوو الشأن يستشيرونه في الخطير من أمورهم ويستفتونه في المشكلات العارضة (٥) ونحن نعلم أن المشورة والفتوى كانتا محصورتين في عدد قليل من كبار الفقهاء ؛ كما نعلم أن الأندلسيين كانوا لا يقدمون أحداً للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره وتعقد له مجالس المذاكرة ويكون ذا مال ؛

ولقد عاش الفقيه عبد الله بن زيدون والد الشاعر في عصر الفتن الشائرة والثورات العارمة بين العسرب والبربر والصقالبية ثم بين هؤلاء والمسيحيين مما عرض كثيرين من ذوى المناصب والرتب الى القتل أو الأذى والعدوان ومصادرة الأموال ؛ فكيف سلم من هذه الأحداث ؟ نستطيع أن ندرك السر في نجاته ؛ ونرجح أن هذا يعود الى عدة أسباب ، مجتمعة ، أهمها - :

(١) Ibn Zaidoun مؤلفه أوغست كور p. ٢5

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٢١ وأعمال الاعلام ج ٣ ص ١٦٦ .

(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤) ج ٢ ص ١٤٣ .

(٥) الصلة ص ٢٥٤ ، والتكملة ج ٢ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

- ١ - منزلته العلمية التى أحاطته بسياج من الهيبة والاحترام .
  - ٢ - عصبيته فى بنى مخزوم ومصاهرته لقيس عيلان وهى قبيلة كانت صاحبة شأن خطير فى الجزيرة العربية ثم فى الجزيرة الأندلسية .
  - ٣ - مصدر ثرائه كان فى البيرة بعيدا عن مواطن الثورات بفرطية ، وكان البربر فيها هم أصحاب الكثرة والسلطان .
  - ٤ - مع مكائنه العربية كان أثرا لدى البربر ، فقد ذكر ابن الأبار أنه كان من أنصار الخليفة سليمان بن الحكم المستعين بالله (١) ونحن نعلم أنه كان يستعين فى تثبيت عرشه ومناوأة خصمه محمد بن هشام المهدي بطوائف البربر .
  - ٥ - كان وثيق الصلات بجميع الزعماء المعروفين على اختلاف ميولهم وبخاصة بنى ذكوان ، وكان له تلاميذ عديدون يشغلون مراكز علمية ومناصب هامة فى الحياة السياسية والاجتماعية .
- هذه الأسباب كلها مجتمعة مضافة الى حنكته ولباقته ومكائنه جعلته بمنجاة من الأحداث العنيفة التى عصفت بكثيرين من الزعماء فى عصره .
- وأهم ما يمتاز به ما ذكره ابن بشكوال من أنه « كان من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب » (٢) وما وصفه به القاضى عياض من أنه يخضب بالسواد (٣) وهذا يدل على أناقته وحسن مظهره ، ويصفه ابن الأبار بأنه « كان فى ضروب العلم جم الرواية من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب » (٤) ؛ وقد استطاع بلباقته ومرونته وحسن تأتبه أن ينجو من المحنة التى تعرض لها صديقه الحميم أبو العباس بن ذكوان وكانت نتيجتها نفيه

(١) التكملة ج ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) الصلة ص ٢٥٤ .

(٣) ترتيب المدارك ( مخطوط ) ج ٢ ص ١٤٣ .

(٤) التكملة ج ٢ ص ٤٤٥ .

عن الأندلس بسبب ميله الى البربر على الرغم من عصبيته القوية  
ومكانته الاجتماعية (١) .

ويظهر أنه كان موضع الاعزاز والتكريم من تلاميذه ، والى هذا  
يشير شاعرنا في الرسالة التى كتبها فى محنته الى أستاذه وصديقه  
أبى بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى حيث يقول (٢) : « ولعمرك  
يا سيدى ان ساحة العذر لتضيق عنك ، وما تكاد تتسع لك ، فى  
اسلامك تلميذك ، وابن جارك وشيخك ؛ الذى لم تزل متوفرا عليه  
أخذا عنه مقتبسا منه مع اكثارك من ذكر هذا والاعتداد به وادعاء  
الحفظ له » وتوفى والد الشاعر أثناء تفقده ضيعة له فى البيرة ،  
ولمكانته العظيمة وراثته الواسع نقلت جثته الى قرطبة فدفن بها  
سنة ٤٠٥ هـ (٣) ولما توفى رثاه أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء من  
شعراء الدولة العامرية ، وكان كما يقول فيه ابن بسام « شيخ  
الصناعة وامام الجماعة ومن أكبر مؤسسى فن الموشحات » (٤) رثاه  
بهذه الأبيات ..

أى ركن من الزياضة هيزا  
حملوه من بلدة نحو أخرى  
مثل حمل السحاب ماء طيبا  
وجموم من المكارم غيضا (٥)  
كى يوافوا به ثراه الأريضا (٦)  
لتداوى به مكانا مريضنا

- (١) ترتيب المدارك ج ٢ ص ١٤٣ وتاريخ قضاة الأندلس ص ٨٤ - ٨٦ .  
(٢) ديوان ابن زيدون ورسائله ص ٧٤٠ .  
(٣) نفع الطيب ج ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ والتكملة ص ٤٤٥ .  
(٤) ترجم له ابن بسام فى مستهل الجزء الثانى من القسم الاول  
من اللخيرة .

- (٥) هيز : تحطم ؛ جموم : ماء كثير ، غيظ جف .  
(٦) روض أريض : كثير النبت حسن المنظر .

هذه صورة واضحة المعالم لوالد الشاعر افتبسناها من اللوحات  
الخاطفة التي أشارت إليه في بعض ما وصل الينسبا من المراجع  
الأندلسية .

أما أم الشاعر فلا نعلم عنها شيئاً ، وكل ما نعلم أنه أشار إليها  
في رسالته إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أفلح حين كان مسجوناً ،  
حيث قال في هذه الرسالة : « وغبت عن أم أنا واحدها تمتد أنفاسها  
شوقاً إلى ، وتفرض أجفانها حزناً على . والله يرى بكاءها ويسمع لى  
على من ظلمنى نداءها » (١) ثم هو يناجي أمه في غيابة السجن  
هاتفاً بها - :

أمقتولة الأجفان مالك والهيا ؟  
ألم ترك الأيام نجماً هوى قبلى ؟ (٢)  
أقلى بكاء لست أول حـرة  
طوت بالأسى كشحاً على مضض الشكل (٣)  
وفى أم موسى عبـرة اذ رمت به

إلى اليم في التابوت ، فاعتبرى واسلى (٤)

ومن هذه الاشارات يتضح مدى تعلق الشاعر بأمه واستمرار  
هذا التعلق من الطفولة إلى سن الشباب ، كما يتضح أنه كان ابنها  
الوحيد ؛ وان كفلته بعد وفاة أبيه وهو في الحادية عشرة من عمره ،  
فكانت له بمثابة الأب والأم معا ؛ وكان من المتوقع له في سنه  
الصغيرة وثروته الواسعة وفقده والده المرشد الموجه (٥) كان من  
المتوقع له أن ينحرف أو ينصرف عن التعليم أو التوجه لمعالي الأمور  
لولا أمه من جهة ، ولولا جده لأمه من جهة أخرى ، وقد عرفنا هذا

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله ص ٧٥١ .

(٢) مقتولة الأجفان ضعيفة أجفان العين لكثرة البكاء واله : واهية العقل .

(٣) طوى كشحه : ضم جنبه ، مضض الشكل : وجع فقد الولد .

(٤) الديوان ص ٢٦٤ .

(٥) وكان إلى هذا وسيم الوجه كما سنذكر فيما بعد .

الجد عن طريق قصيدة بالديوان وجهها الشاعر الى جده أبى بكر محمد بن محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسى وأرفقها بهدية عنب (١) وبالرجوع الى كتب الأنساب نعرف ان اسم قيس يطلق على عدة بطون أشهرها قيس عيلان ؛ واذا أطلق اللقب انصرف اليها ولقد ذكر المقرئ أن منها بالأندلس كثيرين وأنها تولت زعامة المضربين جميعا بما فيهم قریش في بعض الأحداث الهامة (٢)، مما يدل على ما بلغت من قوة ونفوذ في هذه البلاد ومن هذا يتضح أن الشاعر كان حسيب الأبوين .

أما الجد فان له اثرا كبيرا في سبطه سواء عن طريق الوراثة او عن طريق التوجيه ، فانه كفل الشاعر بعد وفاة ابنه سنة ٤٠٥ ( سنة وفاة الأب ) وظل يرعاه حتى سنة ٤٣٢ ( سنة وفاة الجد ) وكان الشاعر يقارب الأربعين .

وقد راجعنا كتب التراجم فعثرنا على ترجمة موجزة لجد الشاعر لأمه ولوالد هذا الجد (٣)  
أما والد الجد فهو محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسى من أهل قرطبة يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن أبى القراميد ، وكان ذا بصر بالحديث ورجاله يحسن التقييد والضبط فيما يكتب . وكان من أضبط الناس لكتبه ، وأجمعهم للدخائر الرواية ، وله تأليف جمع فيه كلام يحيى بن معين في ثلاثين جزءا ، وكان يتولى النظر في الأوقاف بقرطبة حتى نزعه فالج في مجلس القاضى فحمل الى داره حيث توفي سنة ٣٩١ هـ ، وأما ابنه — جد الشاعر لأمه — فهو أبو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم ويعرف بابن الهداهيد حدث عن أبيه عن القاضى أبى عبد الله بن مفرح وغيرهما ، وتولى

(١) الديوان ص ٢١٩ .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٩٦ ، ج ٢ ص ١٠١ وجملة

المقتبس لوحة ١٨ وبغية الشمس ص ٤٦ .

القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والسوق بقرطبة ، وكان من أهل الصرامة في أحكامه ويروى أنه لقي أساءة بالغة من حكم ابن سعيد وزير المعتد بالله الأموي آخر خلفاء بني أمية بقرطبة ، وكان كثيرا ما يسىء إلى الوزراء وإلى الرعية حتى لقي حتفه على أيديهم . ولعل لهذا دخلا في تحمس الشاعر للقضاء على الأمويين وإقامة الحكم الجمهوري بقرطبة في مستهل حياته . وكان أبو بكر هذا صاحب عناية بالعلم حدث عنه أبو مروان الطبتى : وتوفي سنة ٤٣٢ هـ وكان مولده سنة ٣٥٥ هـ وقد نعته الشاعر في ديوانه بالوزير الفقيه صاحب الأحكام ، ونستطيع أن نقرر أنه كان ثريا فأننا نعلم أن الثروة من شروط ولاية القضاء .

فالشاعر نجله والدان كريمان ، ونشأ في أسرة مرموقة المكانة مشهود لها بالعلم والجلالة ؛ فالبيئة العامة التي درج في ظلها والبيئة الخاصة التي شب بين جدرانها مهدتا له وسائل الثقافة العميقة والتربية الصحيحة وولدتا فيه عوامل الطموح والنبوغ .

### نشأة الشاعر

وُلد في ظلال بيئة كريمة وفي كنف أسرة مجيدة برز الشاعر إلى الوجود سنة ٣٩٤ هـ ؛ وتجمع المصادر الأفرنجية على أنه وُلد سنة ١٠٠٣ م وبمقارنة التاريخين الهجري والميلادي نجد أنهما يتفقان في فترة تمتد من يوم السبت غرة المحرم سنة ٣٩٤ هـ الموافق ٣٠ من أكتوبر سنة ١٠٠٣ م إلى يوم الجمعة ٤ من ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ الموافق آخر ديسمبر سنة ١٠٠٣ م (١) وبهذا نستطيع أن نقرر أن شاعرنا وُلد في أوائل سنة ٣٩٤ هـ أو خريف سنة ١٠٠٣ م ونرجح أن الشاعر درج في حي الرصافة بقرطبة حيث كان أبوه مقيما إلى جوار أستاذه الأصيلي ، وبحدثنا ياقوت أن الرصافة مدينة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسمّاها بهذا الاسم تشبيها لها

(١) التوفيقات الإلهامية ص ١٩٧ .

برصافة حده هشام بدمشق (١) ويقول ابن حوقل انها مساكن  
أعلى البلد متصلة بأسافلها من ربضها (٢) مشتبكة أبنيتها محيطة  
بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها (٣) ويذكر المقرئ  
أنها تقع الى شمال قرطبة منحرفة الى الغرب وأن الداخل اتخذها  
مقرا له ومنتزها في معظم أوقاته ، وانه نقل اليها غرائب الفروس  
واكارم الشجر من كل ناحية فطار ذكرها واتصلت عمارتها من بعده  
وقد اشتهرت بجناتها الفيحاء وثمارها اليانعة التي انتشرت منها  
الى أنحاء الأندلس ، قال ابن سعيد ان الرمان السفري الذي فاض  
على أرجاء الأندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه أصله من هذه  
الرصافة (٤) وقد لهج بذكرها شاعرنا في قصائده ، فهو يقول في  
مخمسته :

ويوم بجوفي الرصافة (٥) مبهج مررنا بروض الأقحوان المدبج  
وقابلنا فيه نسيم البنفسج ولاح لنا ورد كخد مخرج  
تراه أمام النور وهو امام (٦)

كما لهج بذكرها الشعراء ، وتكتفى بإيراد مقطوعة واحدة على  
سبيل المثال صاغها أبو حفص بن برد صديق الشاعر يقول فيها - :  
سقى جوف الرصافة مستهل  
تؤلف شمله أيدي الرياح

- 
- (١) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٧ .
  - (٢) الربض ما حول المدينة .
  - (٣) المسالك والممالك ص ٧٧ .
  - (٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٥ .
  - (٥) الجوف عند الأندلسيين المغاربة هو الشمال « الحلل السندسية »  
ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ هـ .
  - (٦) الديوان ص ١٣٠ والأقحوان أبيض الورق مشرشر في وسطه  
دائرة صفراء .

محل ما مشيت اليه الا  
 مشى في ابتهاجى وارتيـــــــــــــــــاحى  
 كأن ترنم الأطيــــــــــــــــار فيه  
 أغان فوق أوتار فصــــــــــــــــاح  
 كأن تشنى الأشــــــــــــــــجار فيه  
 عذارى قد شربن ســــــــــــــــلاف زاح  
 كان الجدول المنساب نصــــــــــــــــل  
 صقيل المتن هــــــــــــــــيز الى كفاح  
 كأن رياضــــــــــــــــه أبراد وشى  
 تعطف فوق أغصــــــــــــــــان ملاح (١)

ومن الطبيعى أن للجمال أثره الفعال فى ارهاف الحس وانماء  
 الموهبة وتكوين الذوق الجميل...

ومن الطبيعى أيضا أن والد الشاعر أعد الوسائل الفعالة لتثقيف  
 ابنه وتهذيبه ، وأنه بدأ اتخاذ هذه الوسائل حتى توفى وابنه فى  
 الحادية عشرة من عمره فخلفه فى الارشاد والتوجيه جد الطفل لأمه  
 أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم القيسى ونعلم أنه كان من أهل  
 الجد والصرامة وأنه ولى مناصب قضائية وإدارية اشتهر فيها  
 بالحزم وحسن التدبير ، كما نعلم أنه واسع الثقافة غزير العلم فهياً  
 لسبطه جميع وسائل الثقافة والتهذيب ؛ وكان لوالد الشاعر  
 أصدقاء عديدون من ذوى المكانة المرموقة والثقافة العميقة ومن  
 المتوقع أن يحيطوا الابن بالرعاية والعطف وفاء لحق صداقة أبيه ،  
 وقد أشار الشاعر الى هذا فى رسالته لأستاذه وتلميذ أبيه أبى بكر  
 مسلم بن أفلح النحوى المشهور وقد أشرنا إليها فيما سبق .

والمناهج المألوفة فى هذه البيئة « كانت فى التعليم الابتدائى تتناول  
 كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف ورواية الشعر ..

(١) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٤٩ .

أما التعليم العالي فيقوم على تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية « (١) ويحدثنا ابن خلدون عن التعليم في الأندلس فيذكر أن أبا بكر بن العربي يفضل طريقة الأندلسيين على طريقة المشاركة حيث يقول : « وقد تم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس لأن الشعر ديوان العرب » ثم يقول : « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم » . . . ويعقب ابن خلدون على هذا بقوله : « وأما أهل الأندلس فقد أفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرق في اللسان العربي (٢) .

ومن الطبيعي أن شاعرنا سار على هذا المنهج في تعليمه والدارس لآثاره يرى ثقافته متنوعة ويرى أثر هذه الثقافة متجليا في فنون شعره ونثره ويرى الاصطلاحات العلمية تتردد في ثنايا قوله ، فآثاره غاصة بمصطلحات القرآن الكريم والحديث الشريف وأصول الفقه والعلوم الفلسفية والطبية ، أما العلوم التاريخية والفنون الأدبية والحكم والأمثال فهي كثرة كاثرة تكاد تتجاوز الحد فيما خلفه من آثار (٣) .

وقد شهد له معاصروه بالثقافة الواسعة العميقة ، فيقول المعتمد بن عباد - وهو من هو - في مقطوعة شعرية وجهها إليه :  
وكم قد توكتها روضة      تقرب لى الأمل الأبعدا  
ينور علمك أرجاءها      ويقطر طبعك فيها ندى

(١) تاريخ العرب ٦٦٨/٣ ، ٦٦٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

(٣) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ١١١ - ١١٧ .

لك العلم مهما أرد بحسره لأروى به أحمد الموردا (١)  
ويصفه ابن حيان « بسعة الذرع وتدفق الطبع وغزارة البيان  
ورقة حاشية البيان »<sup>(١)</sup> ويقرر أن هذه الصفات « هي الصبح الذي  
لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذي لا يحصر ولا يعد »<sup>(٢)</sup> وينعته  
ابن دجنة بأنه « ذو المعارف والفنون » ويذكر ابن نباتة أنه « اشتغل  
بالأدب وفحص عن نكته وتقب عن دقائقه الى أن برع وبلغ من  
صناعته النظم والنثر المبلغ الطائل » .

ولهذا نقرر أنه لم يكن مبالغاً في فخره حين قال :  
وأنجد في علم توالت فنونه كما يتوالى في النظام سخاب

### أساتذته

ألف العلماء والفقهاء أن يذكروا أساتذتهم في كل فن تعلموه  
أو كتاب درسوه وقد ورثوا هذا التقليد عن علماء الحديث ، فكتب  
التراجم الخاصة بطبقات المفسرين أو الفقهاء أو المحدثين أو القضاة  
تلتزم هذا المنهج التزاماً دقيقاً وبخاصة في الأندلس كما نرى في  
تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي والصلة لابن بشكوال والتكملة  
لابن الأبار . . بل أن بعضهم كان يؤلف معجماً خاصاً بأسماء شيوخه  
مثل ابن حير والصدقي ، وكنا نتمنى أن يسلك مؤلفو التراجم  
الأدبية هذا المسلك لأنه يلقي أضواء كاشفة على نشأة من يترجمون  
لهم .

ونحن لا نعرف من أساتذة ابن زيدون أحداً اللهم إلا أستاذه  
أبا بكر بن مسلم بن أفلح النحوي وعرفناه لأن الشاعر وجه إليه

(١) ديوان المعتمد بن عباد ٥٥ .

(٢) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٢ .

رسالته « البكرية » مستغيثا به في محنته وخاطبه بأستاذته  
وبتلميذ أبيه .

ونحن نرجح أن أستاذ شاعرنا الأول هو أبوه ، فالقراءن توحى  
بأنه كان وحيد أبويه ، والذين تحدثوا عن الوالد يذكرون أنه عالم  
جليل من علماء الدين وأنه من أهل المعرفة باللغة والأدب ، ومع أنه  
لم يحترف مهنة التعليم إلا أنه أفاد بعلمه الكثيرين ، ومن كان حريصا  
على افادة الناس بعلمه فهو بالطبع أشد حرصا على افادة ابنه  
الوحيد .

كما نرجح أن جد الشاعر لأمه كان من أساتذته غير المتفرغين  
لأنه كفل الشاعر بعد وفاة أبيه ، وكان من رجال الدين والادارة  
وكان يتذوق الأدب ، ولا شك أنه ترك في نفس سبطه بعض الآثار  
سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

أما أستاذة أبو بكر مسلم بن أحمد فقد خلط أوغشت كور في  
ترجمته لابن زيدون بينه وبين أبي بكر الداني المعروف بابن اللبانة (١) ،  
وقد تابعه في هذا الخلط نيكل (٢) وأحمد أمين (٣) واكتفت المصادر  
العربية القديمة باسم أبي بكر بن مسلم (٤) ومعنى هذا أن مسلما  
أبوه فما اسمه هو ؟ وقد رجعنا الى جميع دواوين الشاعر المخطوطة  
فوجدناها تتفق على ان اسمه « أبو بكر مسلم بن أحمد » وقد رجعنا  
الى كتب التراجم العديدة فوجدنا الوحيد الذي ينطبق عليه هذا  
الاسم هو « أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى » وترجمته  
توحى بأنه هو الأستاذ المقصود ولكن نسخ دواوين الشاعر التي  
وصلت الينا مكتوبة حديثا والذخيرة أقدم منها بكثير ، وتكاد الذخيرة  
تكون أهم مصدر في تاريخ الشاعر ومعاصريه بالأندلس ؛ وقد حملنا

(١) Ibn Zaidoun P. 16

(٢) Hispano Arabic Poetry P. 106

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٥٨ .

(٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٠٥ .

الشك على الرجوع الى جميع المصادر المخطوطة للذخيرة فاذا بها كلها تؤيد رأينا وتخالف النسخة المطبوعة وتذكر أن اسمه أبو بكر مسلم لا ابن مسلم كما في النسخة المطبوعة مما حملنا على الاطمئنان الى ما ذهبنا اليه ، وقد راجعنا في هذا صديقنا الدكتور شوقي ضيف فاقتنع به وأثبتته في بحثه عن ابن زيدون .

أما هذا الأستاذ فيحدثنا عنه ابن بشكوال فيقول : « مسلم ابن أحمد بن أفلح النحوى الأديب من أهل قرطبة يكنى أبا بكر . . وكان رجلا جيد الدين حسن العقل متصادنا لين العريكة واسع الخلق مع نبله وبراعته وتقدمه في علم العربية واللغة راوية للشعر وكتب الآداب ، كان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق مجتهدا في تبصيرهم متلطفا في ذلك سنيا ورعا وافر الحظ من علم الاعتقادات سالكا فيها طريق أهل السنة يقصر اللسان عن وصف أعماله الصالحة ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣ هـ وكان أمام مسجد السقاء وكان متمسكا فاضلا » (١) .

وقد انتفع الشاعر بتقدم أستاذه في « علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الآداب » كما انتفع بثقافته الدينية وان كان لم ينهج منهجه في الحياة لاختلاف المواهب الفطرية ولأن الشاعر كان على العكس من أستاذه يتصف بالطموح وينقاد لنزعات العواطف الوجدانية ويتعلق بأسباب الجمال . .

وهناك وهم آخر وقع فيه أوغست كور وهو قوله (٢) : « ان الشاعر تلقى دروسه على القاضي أبي بكر بن ذكوان وان أستاذه توفي سنة ٤١٣ هـ فرثاه الشاعر بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

أعجب لحال السر وكيف تحال ولدولة العلياء كيف تدال »

وكور يخلط كثيرا في الأسماء ولا يذكر مصادره ، وقد تابعه

(١) الصلة ص ٥٦٧ .

(٢) Ibn Zaidoun P. 16

في هذا الخلط آنخل جنشالت بالنشيا (١) على الرغم من دقته وسعة معارفه ثم تابعهما نيكل (٢) فذكر أن الشاعر تتلمذ لأبي بكر ابن اللبانة (٣) ولأبي بكر بن ذكوان ثم سار على نهجهم أسـتـاذنا الدكتور أحمد أمين (٤) وفاتهم أن أبا بكر بن ذكوان أصغر من شاعرنا بعام ، وإن الذي يشيرون إلى أنه توفي سنة ٤١٣ هـ ليس أبا بكر بن ذكوان وإنما هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان والد أبي بكر بن ذكوان الذي توفي سنة ٤٣٥ هـ وقد رثى الشاعر الابن لا الأب (٥) وليس من المعقول أن أبا بكر بن ذكوان ولي القضاء ودرس لشاعرنا - وهو أصغر منه بعام - ثم توفي في الثامنة عشرة من عمره ، ومن هذا يتضح أن الجميع خلطوا بين أبي العباس ابن ذكوان وابنه أبي بكر ، والأول من كبار الوزراء وكانت له الصدارة في الدولة العامرية وبعدها وكان صديقا حميما لوالد الشاعر ويظهر أن الابنين ورثا عن أبويهما هذه الصداقة ، ولأبي العباس بن ذكوان أخ جليل هو أبو حاتم محمد بن عبد الله بن ذكوان ، صاحب المظالم ، وكان يخلف أخاه في القضاء وفي الوزارة أثناء سفره وتوفي سنة ٥١٤ هـ وكلا الأخوين كان مرموق المكانة واسع الشهرة طائر الصيت (٦) وكلاهما جدير أن يكون استاذا للشاعر لصلاتهم الوثيقة بأبيه ، وإن كانا لم يحترفا مهنة التعليم . ولهذا نرجح أن الشاعر تأثر بهما وإن لم يتتلمذ عليهما .

أما أبو بكر بن ذكوان فهو صديق الشاعر الحميم وسنتحدث عنه في بحثنا عن صلات الشاعر بالأصدقاء ومما لا شك فيه أن الشاعر تتلمذ لكثيرين من أعلام عصره المرموقين وإلى أنه كون

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ص ٨٠ .

(٢) صححنا هذا الوهم فيما سبق .

(٣) Hispano Arabic Poetry p. 107

(٤) ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٥٨ .

(٥) راجع الديوان ص ٥٣٠ .

(٦) ترتيب المدارك ج ٢ ورقة ١٣١ وتاريخ قضاة الأندلس ص ٨٦ ، ٨٧ .

ثقافته الواسعة بقراءاته العديدة في مكتبة أبيه وجده لأمه وغيرهما من المكتبات التي كانت منبثة في هذا العصر . ولا شك أن ثروته مكنته من اقتناء ما يشبع نهمه للمعرفة من أمهات الكتب في شتى العلوم والفنون .

### الأصدقاء الثلاثة

يقول الشاعر العربي :

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتسدى

ولا شك في أن كل صديق يتأثر ويؤثر في أصدقائه ، ومن الطبيعي أن تكون لشاعرنا صداقات عديدة اتاحتها له مكانته وثروته وحسبه ونسبه ؛ ومن الصداقات المبكرة التي كان لها في حياته أثر كبير صداقته لاثنيين من لداته من سلالة الأسرات النابغة بقرطبة في ذلك الحين . ولكل منهما طابعه الخاص وأثره الكبير في حياة شاعرنا العظيم .

هـؤلاء الأصدقاء الثلاثة ابن زيدون الذي نترجم له ، وابن ذكوان وابن جهور كانوا مضرب الأمثال في الوفاء وسنتعرف على الصديقين الكريمين فيما يلي - :

**أبو بكر بن ذكوان** : ولد سنة ٣٩٥ هـ بعد شاعرنا بعام واحد ، وكان أبوه كما ذكرنا علما من أعلام الأندلس في المكانة والجاه والعلم والمناصب الكبرى وكان صديقا لوالد الشاعر فتوارث الاثنان صداقة الأبوين ، وسار أبو بكر بن ذكوان على نهج أبيه كما ذكر ابن حيان « فقرأ العلم وسمع الحديث وعكف على النظر وتوسع في الكتب حتى كان الحدائق يتباهون بمجالسته ، وقد سلك مسلك أبيه الى أن جاء عما قريب أحوذيا (١) نسيج وحده ، وكان قد جمع أشتات

(١) الأحوذى : العالم بالامر ، أو السريع في كل ما تناوله ، أو المشغور في الأمور القاهر لها لا يشد عليه شيء منها .

الفضائل منع رفعة المنصب وعزة القدر والعلم والرصانة والأدب وعزة النفس ؛ ولم يكن من نمطه بالآندلس أكثر كتباً منه « (١) ويقول ابن بسام : « . . . » وغرب (٢) شأو أبي بكر فجاء أحوذيا نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته « (٣) مع أنه كان قد جاوز العشرين بقليل ؛ حين ولاه الخليفة المعتد خطة المظالم الخاصة ؛ ولما سقطت الخلافة الأموية وقام حكم بني جهّور قلده أبو الحزم بن جهور - باجماع أهل قرطبة على ذلك - أحكام القضاء فأظهر الحق ونصر المظلوم وفجع الظالم وحمد الناس أحكامه « (٤) أما أخلاقه فيحدثنا عنها القاضي عياض بقوله : « وكان حميد السيرة شديد المذهب صلب القناة حمى الأنف ، رame الرئيس ابن جهور على أخذ مال الأوقاف لينفقه على المصالح فلم يوافق عليه وألح ابن جهور فلم يساعده ولزم بيته ، فاحتشم منه « (٥) ومن هذا تتضح مكانته وصلابته في تنفيذ ما يعتقد ولم يستطع الحاكم أن يرغمه على ما يريد . . . وان كان أبو بكر اعتزل القضاء بعد حين ، وتوفي سنة ٤٣٥ هـ دون الأربعين فحزن الناس لفقده وتجمعوا لتشيع جنازته مع رئيسهم ابن جهور ورثاه جماعة من الشعراء (٦) ورثاه صديقه ابن زيدون بقصيدة باكية هي أروع ما نظمته من فنون الرثاء (٧) يقول منها - :

يا من شأى الأمثال منه واحد      ضربت به في السؤدد الأمثال (٨)

- (١) ترتيب المدارك ١٥٤/٢ ، ١٥٥ .
- (٢) غرب : أمعن في السفر والمراد طار صيته .
- (٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١٥ .
- (٤) تاريخ علماء الآندلس ١٠٤/٢ .
- (٥) ترتيب المدارك ١٥٤/٢ ، ١٥٥ .
- (٦) تاريخ علماء الآندلس ١٠٤/٢ .
- (٧) الديوان ص ٥٣٠ - ٥٣٨ .
- (٨) شأى : سبق - السؤدد : الشرف .

نقصت حياتك حين فضلك كامل .  
هلا استضيف الى الكمال كمال  
ودعت عن عمر. عمرت قصيره  
بمكارم أعمارهن طـوال  
من للندى اذا تنازع أهله  
فاستجھلت حلماءه الجهال  
من للعلوم فقد هوى العلم الذى  
وسمت به أنواعها الأغفال (١)  
من للقضاء يعز فى أثـنائه  
ايضاح مشكـلة لها أشكال  
من لليتيم تتـابعت أرزائه  
هلك الأب الحانى وضاع المال

**أبو الوليد بن جهور :** هو الصديق الثانى للشاعر ، وقد تحدثنا عنه وعن أبيه فى حكم قرطبة فى القسم الأول ، ونزيد هنا أنه أكبر من شاعرنا بثلاث سنوات فسـنهما متقاربة وشغفهما بالدرس والتحصيل متشابهة وأسرتهما كريمة ولكن أبـا الوليد يمتاز بأنه عاش وليا للعهد فترة ثم حاكما فترة أخرى وظل على مودته للشاعر طيلة الفترتين ، أما ثقافته العلمية فيحدثنا عنها ابن بشكوال فيقول انه « كان حافظا للقرآن العظيم مجودا لحروفه كثير التلاوة له . وكان معنيا بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم ، سمع فى شبيبته علما كثيرا ورواه ، وقد دون بخط يده أسماء شيوخه وما سمعه منهم ، وقد قرأته فوجدت فيه كتبا كثيرة تدل على العناية بالعلم والاهتمام به » (٢) وكان رقيق القلب لين الجانب سمح الخليفة طوال مدة حكمه فكان يدرأ الحدود بالشبهات ويبالغ

(١) وسمت تميزت بعلامة الاغفال : من لا يميزون بشيء .

(٢) الصلة ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

في ذلك حتى لا يكاد يقيّمها ارتكانا على أنه ليس هناك امام قائم مجمع عليه (١) وقد ظلت صداقته لشاعرنا قائمة قبل الحكم وبعده ؛ حتى اكتهلا وجدت ظروف استدعت فراقهما فتفرقا على غير غداء ؛ وفي هذه الصداقة يقول الفتح بن خاقان « وكان له مع أبي الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا وسقياه من تساقيهما نطافا » (٢) وقد استطاع أبو الوليد بن جهور أن يساعد الشاعر في فراره من سجنه ثم بذل جهده حتى استجلب العفو عنه من أبيه أبي الحزم ثم نجح في تقريبه وتكريمه وإلى هذا يشير ابن حيان بقوله : « وألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم فتشفع له وانتشله من نكبته وصيره في صنائعه . . ولا ولي الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته وأوسع راتبه وجلله بكرامة . . » (٣) ونرى أثر هذه الصداقة واضحا فيما نظمه الشاعر في صديقه الحاكم من قصائد ناطقة بالموودة والصفاء ، أما الأحداث التي استدعت فراق الصديقين فسنعرض لها فيما بعد .

وكانت الكلفة مرفوعة بين الشاعر وبين صديقه ابن ذكوان وابن جهور ، فقد كان الثلاثة على حداثة سنهم يشغلون مناصب هامة ولكنها مختلفة ، فأبن جهور كان وليا للعهد ثم حاكما ، وابن ذكوان كان قاضيا خطيرا وعالما كبيرا ، وابن زيدون كان وزيرا وسفيرا وشاعرا مرموق المكان ؛ وكان لهؤلاء الأصدقاء الثلاثة خلوات محبة يطرحون فيها عنهم أعباء الجلال والوقار ويطلقون انفسهم على سجيتهما ويعبثون ما طاب لهم العبث البريء اذا امنوا العيون وفضول الرقباء ؛ سمعوا أن أبا القاسم القاضي التنوخي كان ينادم الوزير المهلبى مع القاضيين ابن قريعة وابن معسروف وما منهم

(١) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) قلائد العقيان ص ٧١ والنطاف الماء العذب الصافي .

(٣) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ واعتاب الكتاب ص ٧٧ - ٧٩ .

الا ابيض اللحية طويلها ، فاذا طاب لهم المجلس ولد السماع » وهبوا ثوب الوقار للعقار وتناول كل منهم كأسا من الذهب مملوءة خمرًا فيفمس فيها لحيته بل ينقعها حتى تتشرب أكثر الشراب ثم يرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات ؛ ويصيحون كلما كثر شربهم : هر هر ، فاذا أصبحوا عادوا الى عادتهم في التزمّت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء (١) .

سمع الأصدقاء الثلاثة هذه النادرة فاستجابت لها نفوسهم الشابة الفتية فنسجوا على منوالها ، يقول ابن بسام : « . . وكان القاضي أبو بكر بن ذكوان أجل من اشتمل عليه ألوانه مجدا وشرفا وتفننا في العلم وتصرفا ، مع دعاية حين خلواته تحل حبا المحتبى (٢) ورقاعته عند نشواته كالتنوخى والمهلبى ، فاذا أصبحوا بكر أبو بكر الى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته ، وأنكر ما كان عليه من فكاهته ، فكانما في برديه الامام ، وكأنه وقار يدخل أو شمام (٣) . مع عدله في قضائه وانفاذ الحكم بمقتضى الحق وامضائه . . حتى اذا راح الرواح عادوا الى القصف وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف ، الى ان اختلس أبو بكر منهما وتقلص ذيل مؤانسته عنهما فاعتاضا عنه بسواه وأفاضل فيما كانا فيه وما تعدياه (٤) واذا درسنا هذه الصداقة وجدناها قائمة على تقارب السن وغزارة العلم ووفرة الأدب وسمو الرتب وعراقة الحمب والنسب ؛ ولهذا ظل ابن ذكوان وثيق الصلة بشاعرنا حتى مات . وظل ابن جهور وثيق الصلة به الى ان فرقت بينهما الأحداث على غير جفوة أو بغضاء ، والانصاف يقتضينا أن نذكر ان الشاعر هو الذى هاجر من بلاط صديقه الحميم الى بلاط بنى عباد لأسباب سنذكرها فيما بعد .

(١) معجم الأدباء ج ١٤ ص ١٦٦ ، ١٦٨ ووفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) تحرك الثابت المتمكن فى جلسته .

(٣) شمام جبل فى باهلة .

(٤) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٨ .

ولكن هناك صديقا رابعا ترك في حياة شاعرنا أعماق الآثار ،  
وهو الوزير أبو عامر بن عبدوس ، وما كنا لنعدده رابع الأصدقاء  
لولا أن الشاعر ذكر ذلك حيث يقول في عتابه من قصيدة طويلة (١) :  
أبا عامر : أين ذاك الوفاء ؟

أذ العيش وسنان والدهر غص (٢)  
وأي الذي كنت تعتمد من  
مصادقتي الواجب المفتـرض  
أين لي ألم أضطلع ناهضـيا  
بأعباء برك فيمن نهض ؟ (٣)

وان كان هذا العتاب قد تطور الى هجاء مقذع بسبب التنافس  
بين الصديقين على حب ولادة بنت المستكفي ، وسنعرض لهذا  
الحديث في حينه .

وهنا نشاهد صداقة تطورت الى عداة سافر لعله من الأسباب  
القوية التي ألقت بالشاعر في غيابة السجن ، ثم حملته أخيرا على  
اللجوء من قرطبة الى أشبيلية في بلاط بني عباد .  
والدارس للديوان يجده حافلا بالإشارات الى صداقات عديدة  
من الأدباء والزعماء المرموقين أمثال أبي بكر بن الطنبلي وهو أديب  
شاعر من أسرة علم وأدب وجلال ، والوزير أبي بكر ابن القصبرة  
الكاتب الشهير والشاعر الكاتب الوزير أبي حفص أحمد بن برد  
والأديب المعروف أبي طالب محمد بن مكى صاحب الشرطة والسوق  
والأحباس والوزير الكبير أبي عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح  
في حقيقة الراح والكاتب الشاعر الوزير محمد بن مروان بن  
عبد العزيز وغيرهم (٤) ممن لا يتسع لذكرهم المجال .

(١) الديوان ٥٨٢ - ٥٨٩ .

(٢) وسنان : نائم المراد غافل عن الإساءة ، غص طرى .

(٣) اضطلع بالعبء نهض به .

(٤) أشرنا اليهم وعرفنا بهم في « ديوان ابن زيدون ورسائله » الذي حققناه

ص ٧٨٧ - ٧٩٤ .

## الفصل الثاني أحداث عاصفة

ما كاد الشاعر يبلغ العشرين حتى دفعته العواصف السياسية دفعا الى الاسهام فيها لأن مكانته ومكانة أسرته ومطامحه كانت تستدعى هذه المشاركة . ولقد تعرض سكان قرطبة لأزمات عنيفة ولمعارك حربية مدمرة ، وأصبح سكانها لا يأمنون على حياتهم ولا على أموالهم ولا أعراضهم فقد احتلها البربر فترة من الزمان فتكروا فيها بأهلها فتكا ذريعا ، كما احتلها المسيحيون ومثلوا بأهلها تمثيلا شنيعا ، فضلا عن بنى حمود وقلول بنى أمية الذين كانوا يتنازعونها كالكرة بينهم ؛ هذا الى جانب الثورات العنيفة التي قام بها السكان ضد الطغاة من الحكام .

ومما لا شك فيه ان الشاعر شهد الثورات الآتية ومن المرجح انه أسهم فيها بنصيب :

**أولا -** ثورة أهل قرطبة على القاسم بن حمود وطردهم له سنة ٤١٣ هـ .

**ثانيا -** ثورتهم على الخليفة المستظهر بالله الأموي وفتكهم به سنة ٤١٤ هـ .

**ثالثا -** ثورتهم ضد الخليفة المستكفي بالله وعزله ونفيه سنة ٤١٦ هـ .

**رابعا -** ثورتهم ضد البربر واسقاطهم حكم العلويين من بنى حمود وارجاعهم الأمر للأمويين سنة ٤١٨ هـ .

**خامسا -** ثورتهم ضد الخليفة المعتد بالله واسقاطهم الخلافة

الأموية لآخر مرة ونفيهم آخر خلفائها المعتد بالله ونفيهم أمية الذي شاء أن يخلعه ويتمسك لأسرته بالخلافة سنة ٤٢٢ هـ .

ويقرر كور أن الشاعر أسهم بنصيب كبير في النضال على الحكم الأموي وأعانه على هذا نسبه ومكانة أسرته (١) ونرجع أن شاعرنا كان من أبرز الزعماء في قيام وتشيد الحكم الجمهوري بزعامة أبي الحزم بن جهور ، وإلى هذا يشير لفتح بن خاقان بقوله عنه انه : « زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجمهورية » ويقرر ابن دجنة انه « زعيم الوزارة القرطبية ونشأة دولتها السنية » ونحن نعلم ان ابن جهور كان يتظاهر بالزهد في ولاية الحكم وأنه كان يخشى مغبة التسرع في قبوله واثقا بأن الحكم هو الذي يسعى إليه في الوقت المناسب ، فلما سعى إليه الحكم رفضه أولا ، فلما ألح عليه أهل قرطبة في ذلك قبل مباشرة السلطان الى أن تستقر الأوضاع ويختار الجمهور من يحل محله ، وطلب أن يعين الى جواره مجلس شورى خاص ، وإذا سئل في أمر قال : ليس لي منسع ولا عطاء ، هو للجماعة وأنا أمينهم (٢) ونعلم أيضا انه أبى الانتقال من بيته الى دار الإمارة تظاهرا بالزهد فيها ، وفي هذه الحالة لا بد له من لسان يذيع فضائله وينشر محاسنه ويدعو الجمهور الى الاستمسك به ، وخير لسان يجيد هذا التوجيه هو ابن زيدون ؛ ولعله يشير الى هذا في رسالته الجدية وهو بالسجن مذكرا ابن جهور بمواقفه في نصرته والاشادة به حيث يقول : « وهل لبس الصبح الا بردا طرزته بفضائلك وتقلدت الجوزاء الا عقدا فصلته بمآثرك واستملى الربيع الا ثناء ملأته من محاسنك وبث المسك الا حديثا أذعته في محامدك » (٣) ويتساءل في دهشة « فقيم عبث الحفاء بأذمتي ؟ (٤) وعاث العقوق في مودتي ؟ وتمكن الضياع

(١) The Encyclopaedia of Islam 2. P 429

(٢) البيان المقرب ج ٣ ص ١٨٦ .

(٣) الديوان ص ٧٠١ .

(٤) الأذمة : الحرمان مفردا ذمام .

من وسائلى ؟ « (١) ويشير بمثل هذا فى قصيدة وجهها اليه من  
سجنه :

لى فى اعتمادك بالتأمل سـابـقة  
وهجرة فى الهوى أولى من الهجر  
فقيم غضت همومى من علا همى

وحاص بى مطلبى عن وجهة الظفر ؟ (٢)

والواقع أن صلات الشاعر كانت وثيقة متينة بزعماء بلده  
ولا شك أن الأمير استفاد من لسان الشاعر ومواهبه ومكانته ومكانة  
أسرته ، وقد كافأه ابن جهور على هذا بأن ولاه وزارته ووثق به  
واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين ملوك الطوائف فاستقل بهذا  
العبء وأداه خير أداء ، وإلى هذا يشير ابن دجنة بقوله : « وكان  
ابن زيدون زعيم الوزارة القرطبية ، ونشأة دولتها السنوية حتى  
صار ملهج لسانها ، وحل من عينها مكان انسانها » (٣) ويقرر  
نيكلسون أن الشاعر أصبح وكيلا موثوقا به لابن جهور الرئيس  
الحاكم بقرطبة (٤) ويقول ابن بسام : « أن ابن جهور قدمه للنظر  
على بعض أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه  
من الخاصة ، والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف فى ذلك  
وغلب على قلوب الملوك » (٥) ومن هذا النص وغيره يتضح أن الشاعر  
ولى المناصب الآتية .

١ - الوزير الأول لابن جهور ، وكان ابن جهور نفسه يتلقب  
بهذا اللقب فى بدء حكمه ومدحه شاعرنا بهذا اللقب .  
٢ - المشرف على شئون أهل الذمة من يهود ونصارى وهو  
منصب مؤقت استدعته حالة طارئة .

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) الديوان ص ٢٥٩ حاص : مال وحاد .

(٣) المطرب لوحة ١٢٧ .

(٤) A Literary History of the Arabs .P 424

(٥) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ .

٣ - السفارة لابن جهور عند ملوك الطوائف وقد نجح الشاعر فيما عهد به اليه الأمير وبخاصة في السفارة ، يدل على هذا قول ابن بسام « فأحسن السفارة وغلب على قلوب الملوك » فازدادت الصلات توثقا بين الأمير والشاعر وفي هذا يقول ابن دحية « وكان بينه وبين رئيسها الحسيب أبي الحزم بن جهور ائتلاف الفرقدين واتصال الأذن بالعين » (١) ولحسن براعته ولباقته في السفارة ولاء شئونها أبو الوليد بن جهور حينما ولى الأمر بعد أبيه ويشير الصفدي الى اعجاب الملوك بهذا السفير الفصيح الوسيم اللبق حيث يقول « فأعجب به القوم وتمنوا ميله اليهم لبراعته وحسن سيرته » (٢) .

ولقد حدثنا الشاعر عن احدى هذه السفارات حيث أوفده أبو الحزم بن جهور مصحوبا بابنه أبي الوليد بن جهور الى الأمير باديس حاكم البربر بغرناطة ليعقدا معه معاهدة دفاعية ضد أطماع بنى عباد ، وقد نجح الشاعر في وفادته نجاحا كبيرا ومدح باديس ومدح ابن جهور بقصيدة بارعة ، وتتجلى لباقة وكياسته في أنه لم ينسب النجاح لنفسه وانما نسبه الى ولى العهد الذى رافقه يقول منها - :

فداء لباديس النفوس ، وجـادـه

من الشكر فى أفق الوفاء غمام

ومثلك والى مثله فتصافيا

كما صافت المساء القراح مدام

ثم يتحدث عن ولى العهد وتوفيقة في السفارة قائلا :

لعمري لقد أحظيته بوفـادـة

لأسنى كريم أنجبتـه كرام

(١) المطرب لوحة ١٢٧ ، والفرقد هو النجم القطبى وبقربه نجم آخر

مماثل له وأصفر منه ، وهما الفرقدان .

(٢) الوافى بالوفيات ج ١ ص ٢٧١ .

فما ابنك الا عدل نفسك : ان يسر

فللجسم لا للنفس منك مقام (١)

حسامك مهما تخرطه لثقلها

فقل غناء السيف حين يشام (٢)

واذا كانت هذه هي منزلة الشاعر من الأمير فما الذي أفسد

الصلات بينهما حتى وصل الأمر الى القطيعة وإلى أن غضب الأمير

على الشاعر فتلمس الأسباب التي أعانته على القائه بالسجن لأمد غير محدود؟ وإلى العنف عليه في السجن عنفا بالغا صورة لنا

الشاعر في رسالته البكرية أروع تصوير؟ ان المصادر التي بين أيدينا

لم تذكر الأسباب التي أفسدت الوضع بين الشاعر والأمير ، وانما

أشارت اشارات مبهمه نستطيع أن نستوحيها وإن نقرنها بالأحداث

الجارية وأن نضم اليها ما جهر به الشاعر من شكاة ، وفي ضوء

هذا كله نستطيع أن نرسم صورة صادقة لأسباب هذا الخفاء ،

وان كانت تعوزها التفاصيل - هذه الصورة تركز على الأحداث

التالية - :

**أولا -** كان الشاعر - في فورة شبابه وحدة اعتزازه بنفسه

وبحسبه ونسبه وبمكانته الأدبية - يشعر أنه صاحب الفضل الأول

في قيام هذه الدولة ولعله كان يطمح أن يجمع زمام الأمر كله في يديه

وأن يقوم مقام الحاجب للأمير . ولكن أبا الحزم بن جهور كان

حازما بعيد النظر يمسك بأزمة الأمور جميعها في يديه وان كان يتظاهر

بالزهد في السلطان ، فلم يرض الشاعر عن نصيبه في الحكم وعبر

عن هذا بقوله :

ابائي في جواركم الدليل

وحدى في رجائكم الكليل

(١) العدل : المائل والنظر .

(٢) والمعنى أن ابنك مثل نفسك ، وحيثما سار فقلبك معه - تخرطه : نسله ،

شام الشيء : تطلع اليه ، والمعنى أن ابنك يفنى في هذه المواقف مالا تفنيه

السيوف ؛ الديوان ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

نصيب من ولايتكم كثير وحظ من رعايتكم قليل (١)  
وأعجب حادث نظري لديكم الى غلل النجاح وبى غليل (٢)

ثم يختمها بقوله :

أيا أس من مساعفة الليالى وأنت الى نهايتها سبيل ؟ (٣)

ويردد هذا فى قوله « الديوان ص ٢٥٧ » - :

حرمت منه وحظ الناس كلهم لهذه العبرة الكبرى من العبر  
أحين رف على الآفاق من أدبى غرس له من جناء أطيب الثمر

ثانيا - من الطبيعى وقد برز الشاعر فى بهائه وجلاله ومنصبه  
ومكانته أن يكثر منافسوه والحاقدون عليه ، ومن الطبيعى أن يحملهم  
الحقد على تدبير المكاييد وحوك الوسائل واللقاء التهم ، وقد أشار  
الشاعر الى هذا بقوله فى الرسالة الجديدة : « ولا ذنب الا تميمة أهداها  
كاشح ، ونبا جاء به فأسق ، وهم الهمازون المشاءون بنميم  
والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا والغواة الذين لا يتركون  
أديما صميما والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال :  
( ما ظنك بقوم الصدق محمود الا منهم (٤) . . » ويقول فى مدح  
ابن جهور من قصيدة طويلة مهنئا اياه بالعيد :

---

(١) المعنى امنحكم من موالئى ومودتى الكثير ولكن حظى من رعايتكم قليل .

(٢) الغل : الماء الكثير ، الغليل : العطش .

(٣) الديوان ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٤) الكاشح : الذى يضرر العداء ، الهمازون : الطمانون فى الاعراض ،  
صدع العصا : شق الالفة وتفريق الجماعة ، الغواة : الضالون ، أديما : جلدا  
والمقصود عرضاه الديوان ٦٩٥ ، ٦٩٦ .

كان الوشاة وقد منيت بأفكهم  
أسباط يعقوب وكنت الذبيبا

أنا سيفك الصديء الذي مهما تشا  
تعد الصقال اليه والذريبا (١)

ومن هنا يتضح ان الشاعر أحس بالمكايد تنصب حوله والشباك  
تعد لاقتناصه فحاول تفاديها ، ولكن القدر غالب والقضاء نافذ  
ولقد كان للشاعر منافسون أقوياء في المناصب السياسية كما كان  
له منافسون أقوياء في حب ولادة بنت الخليفة المستكفي الأميرة  
الجميلة الشاعرة زهرة قرطبة في ذلك الحين .

**ثالثا -** مما كان يثير الشاعر ويحز في نفسه أن يجد الملوك  
الآخرون يتمنون جذبه اليهم ويسعدون بقربه منهم ، ويحرصون  
علم أن يزينوا بلاطهم بأدبه وأن يدعموا ملكهم بمهارته السياسية  
ولباقتة اللسانية وأن يفخروا على الملأ بمدائح الشعيرة ، وهذه  
المزايا كلها تقابل في قرطبة بالفتور وهو يخلع على بنى جهور مدائح  
الخالدة ويتفانى في ارضائهم ، وهم يقدمون عليه من هم دونه في  
المواهب والوفاء فيهتف بهم في عجب :

أتحيا أنفس الأمـال فيكم	ولى أثناءها امل قتيـل
وقدحى في ودادكم معلى	وباعى في اعتمادكم طويل (٢)
وكائن لى ثناء راح يثنى	اليه العطف مجدكم الأثيل (٣)

(١) الديوان ص ٣٢٤ - ٣٢١ الصقال : الجلاء ، التدريب التحديد  
والارهاق .

(٢) القدح : السهم ، المعلى : أوفر الأسهم نصيبا في الميسر .

(٣) كائن : كم الخبرية ، العطف : الجانب ، الأثيل : الأصيل .

## تنافسه الرياض منسورات

تنفس عن نوافجها الاصيل (١)

ولم ينس الشاعر وهو في سجنه أن يكتب الى الأمير ملتصقا  
عفوه والأهجره الى غيره ممن يحفظون قدره ويعرفون مكانته  
ويغفلون ما أرخص الأمير منه :

فان تمن لى منك الأمانى فشيمة

لذاك الفعال القصد ، والخلق الرسل (٢)

والا جنيت الأنس من وحشة النسوى

وهول السرى بين المطية والرحل

سيعنى بما ضيعت منى حافظ

ويغلى لما أرخصت من خطرى مغلى (٣)

**رابعا -** بالغ الشاعر في الاعتزاز بنفسه مبالغة خرجت به الى  
العجب والتهيه ؛ والحكام لا يطيقون هذا من اقرب الناس اليهم  
بل أن كثيرين من الملوك يفضبون على الشعراء اذا بالغوا في مدح غيرهم  
وكتب الأدب العربى حافلة بهذا الاتجاه فما بالك بمن يظهر أمامهم  
بمظهر العزة والافتخار ، والشاعر لا يدع هذا حتى في سجنه فهو  
يقول فيه :

لعمر الليالى ان يكن طال نزعها

لقد فرطت بالنبل في موضع النبل (٤)

تحلت بأدبى ، وان مآربى

لسانحة في عرض أمنية عطل (٥)

---

(١) الديوان ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ والنافجة وعاء المسك .

(٢) تمن : تقدر ، الفعال : الكرم ، القصد : العدل ؛ الرسل : الرقيق .

(٣) الديوان ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٤) لعمر الليالى : وحق الليالى ، النزع : جذب وتر القوس ، قرطست

أصابت ، النبل : السهام ، النبل : الفضل والمروءة .

(٥) تزيت الدنيا بأدبى ولكنها حرمتنى آمالى .

ولو اننى أستطيع كى أرضى العبد  
شريت ببعض العلم حظا من الجهل

جواد اذا استن الجياد الى مدى  
تمطر فاستولى على امد الخصل (١)

ثوى صافنا فى مربوط الهون يشتكى  
بتصهاله ما ناله من اذى الشكل (٢)

ثم يردد هذا المعنى فى قصائد أخرى مثل قوله فى قصيدة أرسلها  
الى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد بعد فراقه من سجنه يسأله  
الوساطة فى العفو عنه :

الا هل أتى الفتىــــــــــــــــان ان فتاهم  
فريسة من يعدو ، ونهزة من يسطو (٣)

وأن الحسام العضب ثاو يجفنه  
وما ذم من غريبه قد ولا قط (٤)

فهو فتى الفتيان وهو الحسام المرهف الحد ولكنه يلقي مع هذا  
سوء الجزاء ، وهو يعلل هذا فى رسالته لأستاذه أبى بكر فيقول :  
« ولم أستغرب أن أسام مثل هذا الخسف فى مسقط رأسى (٥)  
ومعق تمائمى (٦) وأول أرض مس جلدى ترابها فقديما ضاع المرء

(١) استنت الجياد : تسابقت ، مدى ، غاية ، تمطر : أسرع ، الخصل :  
الهدف .

(٢) صافنا قائما على ثلاث ، والرابعة على طرف الحافر ، الهون : اللد ،  
الشكل : القيد - الديوان ص ٢٦٣ ، ٢٦٧ .

(٣) يعدو : يعتدى ، نهزة : فرصة ، يسطو : يهجم .

(٤) العضب : القاطع ، غريبه : حديه قد : قطع طولى ، قط : قطع عرضى  
الديوان ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٥) أسامة الخسف : أذله وأهانته ، مسقط رأسى : موضع ولادتى .

(٦) معق التمايم : موضع شق التعاويل التى تعلق على الأفعال ، وقطعها  
إيدان بانتهاء الطفولة .

الفاضل في وطنه ، وكسد العلق الغبيط (١) في معدنه قال بعضهم :  
أضيع في معشري ، وكم بسلد

يعود عود الكباء من حطيه (٢)

واذا كان للشاعر عذره في الشكوى من الإهمال وفي الإشادة  
بمواهبه فللأمير عذره في ضيقه بهذه النعمة التي لا تستريح اليها  
مسامح الحكام والأمراء .

**خامسا -** كان الشاعر والأمير في طباعهما على طرفي نقيض فكان  
من الطبيعي أن تتصادم الطبيعتان المتنافرتان ، ويتجلى هذا التنافر  
في المظاهر الآتية :

١ - كان الأمير متواضعا ، وكان الشاعر مغرورا « ذهب به  
العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب » كما يقول ابن الأبار (٣) .

٢ - كان الأمير يتظاهر بالزهد في السلطان ، والشاعر كان دائم  
الالاحاح في طلب السلطان « حتى طلب طلبا أصاره الى الاعتقال ،  
وقصره عن الوخد والأرقال » (٤) كما يقول ابن دحية (٥) .

٣ - كان الأمير وقورا متزمتا ، والشاعر كان مندفعاً مستهترا  
يلهو ويعاقر الراح ويذهب مع الحب كل مذهب .

٤ - وكان الأمير متمسكا بالدين حريصا على الدراسة العلمية  
والشاعر كان متساهلا يهيم مع الشعراء في كل واد .

٥ - هذا الى ما بينهما من فارق السن فالأمير يكبره بثلاثين  
عاما (٦) .

---

(١) العلق الغبيط : النفيس الطمئن .

(٢) الكباء : عود البخور الديوان ص ٧٣٨ ، ٧٣٩ .

(٣) اعتاب الكتاب ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٤) وخذ البعير : رمى بقوائمه مثل مشى النعام وأرقل : أسرع ، والمراد

أحله السجن وكفه عن الحركة .

(٥) المطرب لوحة ١٢٨ .

(٦) الصلة ص ١٣٣ .

هذا التناسف في الطباع أوهى ما بين الاثنين من علاقات وزاد الأمر سوءا اندفاع الشاعر في اعتزازه وادلاله بنفسه ، وتورطه في حب ولادة ثورطا أفسد عليه أمره وجلب عليه خصومة الكثيرين ، هذا الى جانب أقاويل الوشاة ومكايد الحساد . ولكن هذه العوامل كلها ان استدعت الجفوة فانها لم تكن تستدعى الانتقام والقاء الشاعر في غيابة السجون على يدى رجل مشهور بالتدين والتزام العدل في الأحكام مثل ابن جهور ، فلا بد من سبب قوى يستدعى هذا العقاب فما هو السبب ؟

هناك من الشواهد ما يوحى بأن الشاعر ضاق بتصرفات الأمير معه فهجاه وأفحش في الهجاء كما يفعل في مثل هذا الموقف كثير من الشعراء ، أو لعل أعداء الشاعر دسوا عليه هذه التهمة ونحلوه هذا الهجاء ، وفي كلام الشاعر ما يؤيد هذا الاتجاه ، فهو يقول في قصيدة الاستعطاف التى وجهها الى الأمير من سجنه :

وانى لتنهانى نهائى عن التى

أشاد بها الواشى ويعقلنى عقلى (١)

أأنكث فيك المدح من بعد قوة

ولا اقتدى الا بناقضة الفسزل (٢)

وما كنت بالمهدى الى السؤدد الخنا

ولا بالمسئء القول فى الحسن الفعل (٣)

واذا صدق ما قاله ابن زيدون فى بنى جهور فانه أقرب الى العتاب منه الى الهجاء حيث يقول - :

(١) النهى : العقل ، يعقل : يمنع .

(٢) أنكث : أحل ما قتله ؛ ناقضة الفزل : وبطة بنت عمر وكانت خرفاء تحل ما غزلته ففرض بها المثل .

(٣) السؤدد : المجد والسيادة الديوان ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

بنى جهنم أحزقتمو بجفائكم  
ضميرى ، فما بال المذائح تعبق (١)  
تعدوننى كالمندل الرطب انما  
تطيب لكم أنفاسه حين يحرق (٢)  
أما قوله فى ابن جهنم - :

قل للوزير وقد قطعت بمدحه  
زمنى فكان السجن منه ثوابى  
لا تخش لأئمنى بما قد جئته  
من ذاك فى ، ولا توق عتابى

لم تخط فى أمرى الصواب موقفا  
هذا جزاء الشاعر الكذاب (٣)

فالأبيات تدل على أنه قالها بعد سجنه ، فلم تكن هى سببا  
فى هذا السجن وانما كانت نتيجة له ، والشاعر أقرب الى أن يهجو  
نفسه فى هذه الأبيات ، وإن كان لا يليق به أن يقرر أن ما وصف  
به الأمير من محامد ومكارم غير صحيح . ولكنها نفثة مصدور لقى  
سوء الجزاء .

وقد نفى الشاعر عن نفسه هذه التهمة مرارا ، ولم يقم عليها  
دليل قاطع ، وأصحاب الجاه والمناصب لا تهدر كراماتهم بمجرد  
الاتهام .

ونخرج من هذا بأن ذلك الاتهام ليس هو السبب الرئيسى  
فيما تعرض له الشاعر من اذلال .

وهناك من الشواهد أيضا ما يوحى بأن هذا السبب كان ناشئا  
من تعلق الشاعر بحب ولادة واستهتاره فى هذا الغرام استهتارا

(١) تعبق : تفوح .

(٢) المندل : عود يستعمل فى البخور طيب الرائحة الديوان ص ٥٩٠ .

(٣) الديوان ص ٥٩١ .

لا يليق بما يشغله الشاعر من مناصب ولكننا نعود فنقول ان جميع الشعراء او معظمهم يلهجون بالحب ويتدلهون بالهيام حتى في مستهل مدائحهم الجادة ، وهذا العصر كان يألف مثل هذا الاتجاه او أكثر منه حتى من الفقهاء الاجلاء .

ثم ان الوزير ابن عبدوس اشتهر بحب هذه الأميرة الحسناء كما حام حولها كثير من العظماء فلماذا تعرض ابن زيدون وحده للمحنة بسبب هذا الهيام .

ولما تقدم نستبعد أن تكون هذه العاطفة المشبوبة هي السبب الرئيسي فيما حاق بالشاعر من الهوان . لابد من سبب رئيسي محا جميع حسنات ابن زيدون وحولها الى سيئات .

ولا نجد فيما استعرضناه من أحداث التاريخ ما يفضي الملوك ويشير ثأرتهم مثل التآمر عليهم وبخاصة من المقربين اليهم والمتصلين بهم من الزعماء .

وهذا هو السبب الأصيل في هذه النكبة كما نرجحه ، ونستطيع ان نبني أسس الترجيح على ما يلي : -

ان ابن زيدون المعتز بمواهبه المزهو بمكانه المفتون بشبابه وماله وجاهه الفخور بأنه أسقط دولة وأقام دولة يأبى أن ينام على الضيم أو يقبل الذلة والهوان أو يرضى بأن يرى من هم أقل منه شأنًا يحظون باقبال الأمير عليهم دونه والاستماع الى آرائهم والاعتزاز بهم ؛ ألا يجول بخاطر هذا الشاعر أن يفكر في اسقاط الدولة الجديدة واقامة دولة أخرى يكون هو فيها صاحب الأمر والنهى ان لم يكن صاحب التاج ؟ ان هذا أمر متوقع منه وان كانت دونه عقبات وعقبات ؛ ولكننا لا نبني حكمنا على الظنون أو الفروض وانما نبنيه على وقائع مادية ملموسة .

لم يكن ابن زيدون وحده هو الذى بدأ يضيق بقيام بنى جهور بل كان هناك كثيرون في الداخل والخارج يضيقون بهم ويرون أنهم تسرعوا في اقامة هذه الدولة دون أن تركز على أساس متين ، أنهم

عادوا يتذكرون أمجاد الخلافة الأموية ، ومكانتها المرموقة وسلطانها العظيم الذى ضم شمل جميع الولايات الأندلسية وأرهب أعداءها الألداء من مسيحيي الشمال ومن خلفهم . وأخاف دعاة الفاطمية وأزعج القبائل البربرية ، ويرون كيف انفرط العقد وتبدد الشمل وانهار البناء ، وشرعوا يفكرون ويطلقون التفكير فلا يجدون صلاحا للحال الا برجوع الخلافة الأموية قوية الجانب مرهوبة السلطان على أن يلى الخلافة خليفة شرعى يجمع على تقديمه الجميع ؛ والخليفة الشرعى الذى لا يمارى أحد فى أحقيته الشرعية للخلافة هو هشام بن الحكم الذى حجه الحاجب المنصور وابناه واغتصب حقه آخرون كالمهدى والمستعين والمستكفى والمستظهر والمعتد بالله فى أيام الفتن والاضطرابات العنيفة التى مزقت الأندلس فى مستهل القرن الخامس ، فاذا كان هذا الخليفة هشام بن الحكم موجودا فهو أحق الناس وأولاهم بالتقديم - آمن بهذا رأى كثيرون فى قرطبة وفى غيرها من الأقاليم ، الى أن ظهرت أسطورة هشام فاستفلمها القاضى أبو القاسم بن عباد ، واستدعى اليه شبيهه هشام من قلعة رياح وأنزله بقصره وادعى لنفسه حجابته ثم ورثه فى هذه الحجاجة وفى هذا الادعاء ابنه المعتضد بن عباد ، واستدعى اليه نساء هشام وحاشيته المقربة وانتزع من الجميع شهادة تثبت شخصية هشام وأنه الخليفة المفقود (١) ، ولقد لقيت هذه الدعوة أذانا مصغية وقلوبا صاغية فى عدد كبير من الامارات وبخاصة فى قرطبة مما اضطر ابن جهور الى أن يستجيب لهذه الدعوة على مضض الى حين وقد أشرنا الى هذا فيما سبق ، كما استجابت لهذه الدعوة بعض الامارات . فماذا كان موقف شاعرنا من هذا الاتجاه ؟ لا نحتاج الى عناء كبير فى تقرير ان شاعرنا كان فى مقدمة الداعين لخلافة هشام ، وأنه وجدها فرصة سانحة للتخلص من بنى جهور ولإقامة حكم مستقر فى جميع الامارات ويؤيد هذا الاتجاه المبررات الآتية - :

(١) أشرنا الى قصة هشام ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ فى هذا البحث .

١ - كان والد الشاعر وصديق هذا الوالد أبو العباس بن ذكوان من أشياع بنى أمية ، ويظهر أن الشاعر وصديقه أبا بكر بن ذكوان ورثا عن والديهما هذا الاتجاه ، ولعل عزل أبي بكر من ولاية القضاء يمت الى هذا السبب بنصيب .

٢ - ظفرت دعوة هشام باهتمام كبير من البربر (١) ، ونحن نعلم ان الشاعر وصديقه ورثا عن والديهما هذه الميول .

٣ - وقع الشاعر في حب فتاة كريمة من زهرات البيت الأموي وترك هذا الحب في نفسه أعماق الآثار وبخاصة بعد أن خاب أمله في الحكم الجديد ولقى منه العقوق والجفاء .

٤ - ان بذور الدعوة الأموية ظلت كامنة في النفوس تحاول الظهور حيناً بعد حين ، ولقد حاول الخليفة المعتد بالله أن يعود الى قرطبة بعد نفيه منها كما حاول أمية الذي يدعى انه صاحب الحق في الخلافة أن يعود اليها سنة ٢٥ هـ ليطالب بحقه المزعوم .

٥ - تهيأت جيوش بنى عباد لاقتحام قرطبة والعودة اليها بهشام ، لولا أن أفسد عليهم بنو جهور هذا التدبير (٢) .

٦ - ظلت أمجاد الأمويين تشغل ذهن الشاعر فترة طويلة حتى ألف كتاباً في تاريخهم بالاندلس سماه « التبیین » وقد ضاع هذا الكتاب ، ولعله قصد أن يبين فيه أمجاد الأمويين ويدعو الى استعادة حكمهم العظيم .

٧ - ان الشاعر حينما فر من قرطبة اتجه الى اشبيلية فتلقاء حاكمها المعتضد بالتكريم والترحيب ونحن نعلم ان المعتضد هو القائم بدعوة هشام وهو الذي ادعى حجابته كما ادعى أنه ولاه العهد من بعده ؛ ومن هذا يتضح سر اتجاه ابن زيدون الى اشبيلية ذاتها ويتضح سر الحفاوة التي غمره بها ابن عباد .

---

(١) ملوك الطوائف ص ٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩ .



هذا للأنبياء المقربين، جاتهم كلبت في الجحيم، لا يشاء هذا من غير علم له  
 شئت له ذلأع « : ذلأع متالب غير محط في ليعطه إلى مقادير الله هلم ونزركم (١)  
 لم لا أوليهم في ليعطه لعلهم في شقة تنف هذا ما د تصيحننا لعل  
 لعل في شقة تنفنا من تنفنا ن لمولم وأبتنهم لتجنبه على في شقة (٢)  
 ن أن في الشكاهه يمتكاه في شقة لالامير وهو شوازي في شقة في شقة  
 ذنوبا جنى كبائرها سواى وهو يلمح أن الامير كمن شارك في هذه  
 الكبائر ، واذا كان الشاعر قد شارك في ذلأع في شقة في هذه الذنوب  
 أزعمه فله عذرة لأنه وهو شاب - تابع فيها اشيأه من قادة  
 في شقة لعلهم تنفنا في شقة

الرأى العام :  
 هبنى جنيت فكان الجهل سببا  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم

ومثلى قد تهفـسو به نشوة الصبا في شقة في شقة  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم

حوادث استعرضتني ما نذرت بها في شقة في شقة  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم  
 (٦) ثم يقول في شقة لعلهم

جميعا في شقة لعلهم : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم : (١)  
 (١) الأوزار : الأعباء الثقيلة ، الوزر : الظهر والمعن .  
 (٢) الديوان ص ٢٥٥ د ٨٣ ر : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم (٢)  
 (٣) الديوان ص ٢٦٠ : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم (٣)  
 (٤) الديوان ص ٢٦٩ : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم (٤)  
 (٥) : استعرض في شقة لعلهم : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم : في شقة لعلهم (٥)  
 فاحترس منه على غرر : على غفلة ، الديوان ص ٢٥٤ . ٧٦ .

أمام ويظهر أنه أشار على ابن جهور بقبول هذه الدعوة فقبلها على مضض ، وفي هذا يقول الشاعر له في رسالته إليه : « والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصافية ولا نصبت لك بعد التشيع ولا أزمعت يأساً منك مع ضمان تكفلت به الثقة عنك وعهد أخذه حسن الظن عليك . . » (١) فالشاعر وفي لأميره ولا يمكن أن يتأمر على حياته ولا على سلطانه :

أن زعم الواشـون ما ليس مزعما  
تعدر في نصرى وتعذر في خذلى  
ولو أننى واقعت عمداً خطيئة  
لما كان بدعا من سـجـاياك أن تملى  
وانى لتنهـىـانى نهـاى عن التى  
أشاد بها الواشى ويعقلنى عقلى (٢)  
ثم يقول فى قصيدة أخرى :

عدا سمعه عنى واصفى الى عدا  
لهم فى أديمى كلما استمكنوا عط (٣)  
وقد وسـمـونى بالتى لست أهلها  
ولم يمن أمثالى بأمثالها قط (٤)  
وهب الشاعر قد أخطأ فان خطأه لا يخرج به عن دائرة الغفران :  
هى النعل زلت به ، فهل أنت مكذب  
يقيل الأعادى انها زلة الحسل (٥)

---

(١) الديوان ص ٦٩٧ ، الصافية : الميل الناحية إعداء العلويين والشيعة انصارهم .

(٢) تملى ترجىء العقوبة ، الديوان ص ٦٨ ، ٦٦ .

(٣) الأديم : الجلد والمقصود به العرض : عطر : تمزيق .

(٤) يمنى : يمتحن الديوان ص ٢٩٢ .

(٥) الحسل اللثيم المعنى ليس ذنبى منبعثاً عن الخسة والفدر : الديوان

ص ٢٧٠ .

فالخطأ - ان كان هناك خطأ - ناشيء عن قصد حسن لا عن  
غدر وخسة ولؤم « فكيف ولا ذنب الا نميمة أهداها كاشع ، ونبا  
جاء به فاسق . . » (١) وحساد الشاعر كثيرون وصفهم في قصيدته  
لصديقه أبي حفص بن برد بقوله : -

ما ترى في معشــــر حا

لوا عن العهد وخاسوا

أذؤب هــــــــــــامت بلحمى

فانتهاش وانتهاش

كلهم يســــــــل عن حا

لى ، والذؤب اعتســــــــاس (٢)

ولكن الحاكم ان تساهل فى بعض الشئون فانه لا يتساهل  
فيما يتعلق بتمكين سلطانه ، وكثيرا ما قتل بعض الملوك ابناءهم فى  
سبيل المحافظة على السلطان كما فعل فى الأندلس عبد الرحمن  
الناصر والمعتضد بن عباد ولذلك ورد فى الأمثال « الملك عقيم » أى  
لا ينفع فيه نسب ، وبسببه يقتل الحاكم أباه وابنه وعمه وأخاه .

هذا هو الرئيسى - فيما نعتقد - لفساد الحال بين الشاعر  
والأمير ، ولكن الأمير لا يستطيع أن يقدم الشاعر للقضاء بهذه التهمة  
لانه بهذا يناقض نفسه ويكذب ما نادى به من أنه أمين للجماعة  
حتى تتفق على امام ، ولانه هو نفسه امام ضغط الرأى العام  
استجاب لدعوة هشام فترة من الزمان .

والأمير بدهائه وحنكته آثر أن يدبر سببا لنكبة الشاعر غير  
دعوة هشام ، وآثر أن يكون الاتهام قائما على جريمة يتولاها القضاء  
بعيدا عنه ، وأن تكون هذه الجريمة ماسة بأخلاق الشاعر تشوّهه فى

(١) من الرسالة الجديدة بالديوان ص ٦٩٥ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، خاسوا : غدروا انتهاش : قضم بالأضراس :

انتهاش : قضم بأطراف الأسنان ، اعتســــــــاس : تسلل فى الظلام .



عائته على تأخره عن مظافر ثلثي والخطير له في مؤانقوتى بنفلقته لم يزل  
 (ألكما) سبيل حاله ولا المنفعة للحيلة فيه إذ المحرض على لا تتأنى  
 رملان ضلته أو لا يعتد بها إلا سبيلها المنهية وخوفه واضفني به بالهدايع وعابنى  
 بالتهذيب على الأعتاق (١) ثم نفخ عن نفسه هذه التهمة قائلا :  
 « والله ما يستعجزت ههنا بعد أن هتك من سترى ما هتك ، وانت هك  
 من جز ما تى ما انت هك إذ كنت زلقول معذورا ، وأنفش مصدورا ، فكيف  
 قبل ذلك أذلم غفطك تشلبب والإعراف من موجب بعدو لى هو الهداء الختني  
 ثم ماليا ؟ » (٢) وأوصد الأمير باب التدخل فى أحكام القضاء ففتح  
 الشاعر باب الشفاعة لرفع الغبن الفاحش عن المغبون فقال مخاطبا  
 إياه فى أعقاب قصيدة طويلة :

فاشفع أكن مشمل محطور ببلدته

جدلان بالوطن المألوف والوطر (٣)

وقال فى قصيدة أخرى بعد رسالة طويلة : -

للشفيع الشنساء والحمد فى صو

ب الحيا للرياح لا للغيوم

وزعيم بأن يدللى الصم

ب مثابى الى الهمام الزعيم (٤)

وقال من قصيدة طويلة مؤلة :

وهل لك فى أن تشفع الطول شافعا

فتنجح ميمون النقية أو تتسلى

(١) الديوان ص ٧٤٢ .

(٢) الديوان ص ٧٤٢ ، ٧٤٣ .

نعميه (٣) الديوان ص ١٤٢ : راجع ٧٧٢ د ١٧٢ ص ١٤٢ : (٤)

(٤) الديوان ص ١٤٢ : شامد زينة : ربة د المصنأ شابه : قبيقنا

منى لو تسنى عقدها بيد الرضا

تيسر منها كل مستصعب الحل (١)

ولكن لا سبيل الى الرضا في هذا المقام مما اضطر الشاعر الى  
الفرار من السجن بعد أن استبد به اليأس وأيقن من سوء المآل ،  
وسنعود الى محاكمة الشاعر وسجنه ثم فراره من السجن في فصل  
تال من فصول الكتاب ، ولكننا قبل هذا سنتحدث عن حب الشاعر  
العنيف لأن هذا الحب كان من الأسباب الثانوية لفضب الأمير .

---

(١) الديوان ص ٢٧١ ، ٢٧٢ الطول : الاحسان والانعام ، ميمون  
النقيبة : مبارك الشكائل ، تبلى : تبرز عذك ، تسنى : تيسر .

## الفصل الثالث

### عاطفة عميقة

لعل عاطفة الحب العميقة التي ألهمت مشاعر ابن زيدون والتي ألهمته أعذب ما رددته من أغاريد الهيام لعل هذه العاطفة كانت من أسباب الجفاء بين الشاعر والأمير ، وإن لم تكن السبب الرئيسي لهذا الجفاء .

لهذا كان علينا أن ندرس هذه العاطفة العاصفة التي ألهمت أحاسيس الشاعر العميقة قبل دخوله السجن وأثناء إقامته فيه وبعد فراره منه لأن هذه العاطفة القوية العميقة تركت في نفسه أعماق الآثار كما تركت في الأدب الأندلسي ثورة عاطفية قلما يجود بمثلها الزمان .

والشاعر كان فتى مدلا مترفا ثريا جميل الصورة حلوا ظريفا حسيبا نسيبا وصفه المطرف بن فتوح بأنه « الحلو الظريف البارع اللطيف » (١) ووصفه الساوي بأنه « فريد عصره ووحيد دهره أدبا وظرفا ورقة ولطفا » (٢) ونعته ابن بسام بأنه « فتى الآداب وعمدة الظرف » (٣) وقد علمنا أنه نال أرقى المناصب فكان وزيرا خطيرا وسفيرا عظيما وشاعرا ذائع الصيت وكاتبا مرموق المكانة وهو دون الثلاثين كما علمنا أنه كان مرهف العاطفة مشبوب الوجدان تواقا الى التمتع بالمسرات . فمن الطبيعي أن تتطلع نفسه الى التمتع بالجمال ،

---

(١) اللخيرة ق ١ ج ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) الكوكب الثاقب : « مخطوط » ص ٢٧٨ .

(٣) اللخيرة « ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ » .



حبشية هي بنت سكرى المورور بقية (١) ولها أم ولادة (٢) وأم ولد (٣) وهذا  
أسمها حذراء (٤) ونظن أن الوراة أثرا كبيرا في التكوين الجسمي  
والعقلي ، ونؤمن كذلك أن الوراة لا تكون مقصورة على ثلاثين  
وحداهما بل تمتد إلى عدد من الأجداد - واحداد ولادة كانوا عظماء ،  
ثم أن الزواج المشترك بين أبوين مختلفي الجنسية كثير ما ينتج  
(١) مثالا لهذا الأمر شاهد بين الحيوان والنبات ولست أغفل  
(٢) العلماء فيما يسمونه بعملية التهجين وبهذا يستطيعون أن يفسروا  
كيف جاءت ولادة مناقضة لأبيها في كثير من الصفات ونحن نعلم  
أن جدتها لأبيها أم ولد كما نرجح أن أمها حبشية في لولقد لعلنا بهذين  
الظاهريتين أنظرنا المورورين في المظهر « وكان أبوها جاهلا ساقطا ،  
وخرجت هي على نهاية الأدب والمعرفة » (٥) ولعلنا أنما احتوا  
نفسا لتي أبيضها بملة أبوها تبتلى وهو الغني بكرامة وما أبدته من شمائل  
رفيقة ، ويظهر أن أباه ترك لها بعض ثروتها فأنشأت لنفسها دارا فخلة  
فأعانتها هذه الثروة على أن تستعمل في قصرها ندوات حافلة مزدانة  
بالعظماء والشعراء والأدباء ورجال العلوم والفنون فكانت تستأجر لهم  
(٦) لسياسة في المدينة بأكملها من تساهلهم وتنقل آثارهم العلمية والأدبية والفنية « وكانت ربة  
الطبع كريمة النفس شريفة الأصل حبيبة الخلق كلهم ، وكانت لا تترك  
أحدا يتصرف في مجلسها ولا بل لرسولهم (الفرع) » (٧) ويبدو أنها توفرت لها  
من أبيها ثروة كبيرة على العريضة والتقاليد فقد نزلت حجابها  
واختلطت بالرجال وأطمعتهم بها وهو أمر غير مألوف في هذه البيئات  
الاسلامية وبخاصة بين أصحاب البيوتات العريقة تلك وقتها واعتبروا ذلك

هي عن هذا الخروج هاتفة :  
٥٥٦ قصتها فيها مديحة (٨)  
٢٧٦ راجع إلى قصة (٩)

(١) Hispano Arabic Poetry P. 707 والقرب نجفقا ورقة بقية (٣).

(٢) البيان القرب ج ٣ ص ١٤٠ . قنصلما : مثالا (٥)

ن (٤) نصح الطبيب جلفنقش في نفسه في عينا تنفي لمانا (٢)

(٤) نزهة الأبصار والأسماع ص ١٠ . ٥٣١ و ٣٣١ ر

انى - وان نظير الأنام لبهجتى -

كظباء مكة صيدهن حــــرام

يحسبن من أنس الحديث زوانيا

ويصدهن عن الخنا الاسلام (١)

أما جمالها فكان مثار الإعجاب ومنبع وحي الأدباء والشعراء

يقول الصفدى « انها كانت نادرة زمانها ظرفا وحسنا وأدبا » (٢)

ويقرر ابن بسام أنها « كانت واحدة أقرانها حسن منظر ومخير » (٣)

وقد صورها ابن زيدون فى قوله :

ربيب ملك ، كأن الله أنشأه

مسكا ، وقدر انشاء الورى طينا

أو صاغه ورقا محضا ، وتوجسه

من ناصع التبر ابداعا وتحسينا (٤)

كانت له الشمس ظئرا فى أكلتسه

بل ما تجلى لها الا أحايينها (٥)

كأنما أنبتت فى صحن وجنتسه

زهر الكواكب تعويذا وتزيينها (٦)

وليس جمالها الفتان وحده هو مصدر فتنها وروعها بل انها

تمتاز بجمال الروح وظرف الحديث ورقة الشمائل - :

له خلق عــــذب وخلق محسن

وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر

---

(١) المصدر السابق ص ١١ والشرط الاول من البيتين لها والأشطر الثلاثة

الباقية من شعر بشار .

(٢) تجريد الوافى لوحة ٢٥٥ .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٦ .

(٤) الورق : الفضة .

(٥) الظئر : الحاضنة .

(٦) كأنما بزغت النجوم فى صفحة خديه لتحفظه من الحسد الديوان

ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

يعلل نفسي من حديث تلده

كمثل المنى والوصل في عقب الهجر (١)

وكما امتازت بعذوبة الحديث امتازت بحضور البديهة وسعة الاطلاع ، ذكرها عبد الله بن مكي وكان معاصرا لها فأثنى على فضائها وسرعة بادرته ونباهتها وفصاحتها وجزالة منطقتها (٢) وقصتها مع ابن عبدوس تدل على خفة الروح وسرعة البديهة ، فقد « مرت يوما على داره فرأته جالسا أمام الدار وأمامه بركة متولدة من كثرة الأمطار ، فلما رأى ولادة نشر كفيه ونظر في عطفه وحشد أعوانه اليه ، فقالت له أبا عامر :

أنت الخصيب ، وهذه مصر

فتدققا فكلكما بحسب (٣)

فتركته لا يحير حرفا « (٤) وكانت تمتاز الى هذا بأنها تصوغ الشعر وتنقد الشعراء يقول الضبي عنها « أديبة شاعرة جزلة القول مطبوعة الشعر تغالط الشعراء (٥) وتساجل الأدباء وتفسق البرعاء « (٦) ويقول المقرئ « كانت واحدة زمانها والمشار إليها في أوانها حسنة المحاضرة مشكورة المذاكرة « (٧) ويقرر ابن نباتة « انها كانت ذات خلق جميل وأدب غرض ونوادير عجيبة ونظم جيد « (٨) ويقول ابن بسام « وأما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فأية من آيات فاطرها « (٩) ويذكر بدر الدين الصديقي من علماء القرن الحادي عشر

(١) عقب الهجر : عاقبته الديوان ص ١٢٣ .

(٢) الصلة ص ٦٣٢ .

(٣) البيت لأبي نواس في مدح الخصيب استشهدت به ولادة .

(٤) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٨ .

(٥) مالط : قال نصف بيت وطلب من نظيره تكملته .

(٦) بغية الملتبس ص ٥٣١ .

(٧) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٣ .

(٨) سرح العيون ص ٧ .

(٩) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٨ .



۱۰۸ - اَمَّا تَبَاوَأُوعِطْنِي قِبَلْتِي مِنْ يَشْمَتْهَا

فأُنشدها أحد زوارها يومًا فقول ما يختار مسيحيان لا بما فيه شانهن .

سالكاً ربنا ملا عبد واهد لى دلش تهنه و نایست لب اوله خناه

عسى الله يوفقكم في كل شأنكم

هيا رفعتنا يا رغبنا رغبنا بالصحة والبركة والحمد لله ربنا

فقال لا من ولادة (1) من الأطباء الذين يتفقون على أن

فكانت له من ولادة (أ) ومن الطبيعي أن المزمين من علماء

وفعها يصيغون بها عيونهم على الخروجها على العرف

لما واف تفوا على ما كان في الجوار من ابي عبد الله وشره فهدى، فقالوا له ابن العبد ان

شني عليها يقول: «لم يكن لها تصاوير يطابق شرفها» (٢) ويقول

[illegible]

تغمد زلها - أظرح التحصيل ، وأوحى إلى القول فيها

لَقَدْ مَلَأْنَا مِنْهَا لُجْجًا وَمِنْهَا نَزَّلْنَا السَّيْلَ الْكَبِيرَ ﴿٦﴾

لأنهم قد تعلّقوا بالشاعرة مهجّة بنت البتيان « وكانت من أخصى

هـ عیسیٰ رضع منہ و منیم مثلاً ولید  
ستارمانہا واحفہم روحا فعلت یها ولادہ

سارت شاعرة فاحتها (٦) » (٦) وكانت مهجة (٦) هذه سيطرة اللسان

مخلفا فلة الوجه لا تقدر به من علقها في الرزحان والاشياء

تسليم أولاده من أشرفنا بعد حاجتنا لها مقدور معكم يا مولانا

قوله لا آله الا الله هو الحق له الحق منه لا مقطوعات معلومة لا مظهره

وَأَمَّا الْفُلُ فَأَنزَلْنَاهَا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ

لها ، و مما نقر من شعها العاطف ما كتبه الى ابنها

قت الصفاء :-

٧٧٦ هـ = ١٤٥٨ م : رقة قريظ طالع ٢/٣٢٥ بيلجاء وفتح ٢٠١ دلستانا رسالعه (١)

١٦ (١) الْبَصَارَةُ وَالْأَسْمَاعُ مِنْ عَيْنٍ وَإِلَى أُذُنٍ وَأَنْ تَلِيْسًا وَهُ عَلِي (٢)

(٢) الصلاة ص ٦٣٢ وبغية المتحقی: ص ٣٨٤ « ٦٦٣ تحت رتبة ملا عبد نبی »

(٢) المغرب ج ١ ورقة ٢٧٩ .  
٧٥٢ خلعته / خلعته (٣)

ترقب اذا جن الظلام زيارتى .  
فأتى رأيت الليل اكتم لاسر  
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح  
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر (١)  
ولقد هام بها كثيرون منهم شاعرنا ، وأبو عبد الله بن القلاس  
الذى أنذره شاعرنا فانسحب مؤثرا السلامة ، وأبو عامر بن عبدوس  
الذى ظل يحوم حولها حتى مات وهو الذى ينبغى أن نتعرف اليه  
لموقفه العنيف من ابن زيدون .

### أبو عامر بن عبدوس

وهو البطل الثالث فى هذه الدوامة العاطفية العنيفة ولولا  
اشتراكه فى هذه الملحمة ماعرفه التاريخ ولا التفت اليه الباحثون .  
ولقد رجعنا الى مئات المصادر الأندلسية باحثين فيها عن  
ابن عبدوس فما وجدنا الا بضعة أسطر وبضعة أبيات عرفنا منها  
أنه الوزير أبو عامر أحمد بن جهور بن عبدوس أشار اليه  
ابن الأبار فى تكملة التكملة بقوله « الأديب الكاتب من أهل قرطبة  
لقى القاضى يونس بن عبد الله وسمع منه بعض شعره وشعر أبيه  
عبد الله وأخذ عنه (٢) . سنة ٤٧٢ » (٣) وأشار اليه العمري  
بأسلوبه المسجوع المبالغ فيه فقال : « وزير ما تقلد ( مثله ) الفلك  
الدوار ، ولا تفتح على مثل زهره الندى النوار ، الا أنه لم يقع  
لنا من مختار نظمه وبديع شعره - على عظمتة - أليق  
بالتخليد مما أورد له ابن سعيد وهو قوله فى فرس أبيض فى غرته  
لمعة حمراء : .

(١) محاسن النساء ١٠٩ ونفع الطيب ٥٦٤/٢ والذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٧ .

(٢) يبدو من السياق أن فعلا هنا سقط هو « توفى » لأن القاضى يونس

ابن عبد الله توفى سنة ٤٢٩ « الصلة ص ٦٢٤ » .

(٣) تكملة التكملة ٢٥٧ .

يا حسن هذا الجواد حين بدا  
في شـسـبـة لم تكن لدى بلق

قام عليه النهار مدعيا  
فانتزعت غرفه يد الشفق (١)

وذكره ابن سعيد فقال : « أبو عامر أحمد بن عبدوس أسند  
له صاحب الدخيرة .

يا حسن هذا الجواد . . . البيتان هذا في فرس أبيض في أعلاه  
لمعة حمراء » ومن الغريب أن الدخيرة ليس فيها البيتان . ولا يمكن  
أن نعتبر هذه الأسطر ترجمة لابن عبدوس ، وإذا جردناها من  
المبالغات لم نخرج منها إلا بأنه وزير كاتب شاعر درس على القاضي  
يونس بن عبد الله شعره وشعر أبيه هذا كل ما عرفناه عن ثقافته  
الأدبية . وما عرفناه أن القاضي يونس بن عبد الله وأباه كانا من  
الشعراء . أما وصف ابن عبدوس للجواد فهو متكلف ثقيل جدير  
بأن نسميه قبح تعليل لا حسن تعليل ، ولا نعلم نسبه ويقول  
الهوريني : لعله من نسل أسد بن جهور .

وإذا كان هذا النسب صحيحا فقد ورث الحفيد عن جده  
ادعاءه الشعر والأدب ؛ وإذا كان المجال لا يحتمل أكثر من الفروض  
فلنا أن نفترض أنه من نسل عبدوس بن ذكوان الجد الخامس  
لأبي بكر بن ذكوان أو لعله من نسل تدمير بن عبدوش أحد حكام  
اسبانيا المسيحيين حينما فتحها العرب ، وهما فرضان لا نملك  
عليهما دليلا أما ادعاء ابن عبدوس الشعر فقد اتهمه بهذا  
ابن زيدون حيث يقول :

عمدت لشعري ولم تثب تعارض جوهـره بالعرض

---

(١) مسالك الأبصار ج ١٠ ورقة ٢٣١ الشية : العلامة .



(١) ولكن ابن سينا قلبي، والمقري يصححاً نسبة الأبيات لابن عبد العزيز  
فقد واجهه لمصلحة ابن سينا (١) في الاعتناء بها في ريقه  
ومهما يكن من أمر فإن شعره ضعيف بالنسبة (٢) التي شاعراً  
عصره فيما بالكثرة ابن زيدون، ومن الغريب أن ابن سينا لم نجد له شعراً  
في الأدب القديم إنما مصدره غندل من كتاب مصاديق الأوجى والالهام في مدح  
مصدرية آخر بلقيش بعض الأضواء على ابن عبدوس ولكنه مصدر  
شديد الخطر ينبغي أن ننتفع به ولكن في حرص شديد (٣) على  
بالغ، هذا المصدر هو ما صور به خصمه ابن زيدون - وسنأخذ  
من هذا التصور ملامح شخصيته بعد أن نجرده من الحقد والمبالغة  
والتحامل مع الاستئناس بأراء الآخرين بما يلائم تحملنا على كشف  
الأطوائين، ليس بغير كره من الحكماء ونخرج من هذه الدراسة

بالنتائج الآتية :  
زعمنا بأن ابن سينا لم يقب لحنه لساناً « هذه لحنه ورجاء هذا  
هذا (١) كان ابن عبدوس أثرياً يتألق في ملاسيه ويعني بمظهره  
عناية فائقة، وهو لحنه ابن زيدون بأنه يقتر على نفسه في مهبشة  
ليظهر بهيدار المظهر (٢) وتجاهلتم لقميصك عن بعض قوتك  
وعطرت أردانك (٣) وحررت هميانك (٤) واختلست ثيابك مشيتك  
وحذفت فضول لحيتك، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك (٥)  
ولقد كتبنا خطاً عذراً (٥) وانتعشت عقدنا أزارك (٦) في (٧) « وقصة  
ولادته حينما منك عليه مدح على هذا فانه حينما رثاه « أنسبه كريمة  
وعظرت في عظمته وحسنه أعوانه إليه (٨) (٩) كوير وني ابن سينا لنقلها  
رجعنا إلى ابن سينا في لحنه قباله في هجته لجه د بسماح لحنه

(١) الطمح ص ١٢ ، ١٣ ونفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٢) الأردن : أكام القميص . ٨٧٦ هـ ١ ج ١ رة قيسلا (١)

(٣) الهميان : السراويل .

(٤) مط حاجبه : تكبر أو مده على جانب وجهه كما فعل النساء الآن (٧) *Idu S. noubi S. noubi*

للزينة . ٣٢٦ د ٦٢٢ هـ نايما (٧)

(٥) العذار منبت اللحية من الخدين والمراد سوى لحيته د ٢٨٥ هـ (٣)

(٦) استأنف اصلاح ثيابه فوق جسمه . ٨٨٥ هـ (٥)

(٧) راجع ص ١٥٥ من هذا البحث . ٥٦٢ هـ (٢)

كان يواسى ولادة بأمواله بعد أن تبددت ثروتها مع الأيام (١) ويقرر كور أنه استطاع أن ينال منصب الوزارة بما بذله من مال (٢) .

٢ - كان يتسم بالأدب ويتصنع الشعر وقد سخر منه ابن زيدون فقال : « أين ادعائك رواية الأشعار وتعاطيك حفظ السير والأخبار » (٣) كما سخر منه بهذا المغمز في قصيدته الضادية (٤) .

٣ - أنه كثير الجدل وافر المراء وصفه بهذا ابن زيدون .

ولا تعتصم ضلة بالحجاج  
وسلم قرب احتجاج دحض (٥)

وأنه لجوج ملحاح فأنه « الساقط سقوط الذباب على الشراب المتهافت تهافت الفراش الى الشهاب » (٦) وحياته مع ولادة تفيد الحاحه عليها واحتماله سخريتها به ، وانصرف منافسو ابن زيدون عنها ولكن الحاحه والحافه حمله على أن يمعن في التودد والتزلف اليها حتى ظفر بقربها بعد نكبة ابن زيدون .

٤ - كان في وقت المنافسة متزوجا متقدما في السن يدل على هذا قول ابن زيدون في وصفه موقف ابن عبدوس من المتنافسين في حب ولادة على لسانها « وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب ، وجاريتهم في غاية الظرف والأدب ألت تأوى

---

(١) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٨ .

(٢) Ibn Zaidoun p.31

(٣) الديوان ص ٦٦٣ ، ٢٦٤ .

(٤) ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ .

(٥) ص ٥٨٨ .

(٦) ص ٦٣٥ .

الى بيت قصيدته لكاع (١) ، اذ كلهم عزب خالى الذراع (٢) ،  
وأين من انفرد به ممن لا أغلب الا على الأقل الأخس منه ؛ وكم  
بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة والشهرة الواقعة ...  
وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره (٣) وذهب نشاطه .. « (٤)  
ومن الغريب أن ابن عيادوس كان من المتقربين الى ابن زيدون  
وكانت بينهما مودة قبل ظهور ولادة فى الميدان . والى هذا أشار  
ابن زيدون بقوله :

أبا عامر أين ذاك الوفاء ؟

اذ الدهر، وسنان والعيش غص  
وأين الذى كنت تعتمد من

مصداقتى الواجب المفترض  
أين لى ألم أضطع ناهضا

بأعبياء برك فيمن نهض (٥)

### أطوار المسرحية

من الطبيعى أن تنجذب ولادة الى ابن زيدون وأن ينجذب اليها  
وكان فى هذه الفترة شابا قويا وسيما ذا مكانة أدبية وسياسية ،  
وكان الى هذا عزبا كما نفهم من رسالته الهزلية ، وكان الشاعر  
وولادة كلاهما أديبا مولعا بالموسيقى والفناء ميالا الى معاورة  
الشراب (٦) وكلاهما كان وسيما ظريفا حاضر البديهة عذب الحديث

---

(١) القعيدة : الزوجة ، اللكاع اللئيمة الخيسة قال الحطيئة فى هجاء  
زوجته :

أطوف ما أطوف ثم آوى الى بيت فبيدته لكاع

(٢) متحرر من القيود الزوجية .

(٣) فقد حيويته الديوان .

(٤) ص ٦٧٢ ، ٦٧٣ .

(٥) الديوان ص ٥٨٥ .

(٦) تحفة العروس ص ١٠٢ .





صبرا فاضطر الى ان ينزل الى ميدان النضال مع منافسيه في هذا  
المورد العذب كثير الزحام ؛ واستطاع بوسائله العديدة أن يصرف  
المتنافسين حولها الا اثنين أولهما أبو عبد الله بن القلاس ، وقد أنذره  
الشاعر بقصيدة لاذعة يقول له فيها :

أصـخ لـقـالـتى واسـمـع

وخذ فيما نرى أو دع

وأقصر بعدها أو زد

وطـر في أثرها أو قـمـع

ثم يقول فيها :

أعد نظرا ، فان البغى مما لم يزل يصـدع

ولا تك منك تلك الدار بالمرأى ولا المسـمـع (١)

فازدجر ابن القلاس وترك الميدان لابن زيدون وابن عبدوس ،  
وطاول ابن عبدوس ما طاول وثبت في الميدان على الرغم مما تعرض  
له من أذى وهوان وأخيرا خلا له الميدان فصال فيه وجمال بعد  
نكبة ابن زيدون وبعد أن فسدت الحال بين الشاعر وولادة  
وانقلبت المودة من جانبها الى جفاء وخصام .

أما كيف تحول الوداء الى خصام ، فالشاعر هو نفسه سبب  
هذا التحول الخطير ، فانه أعلن هواه سافرا فشوه صفحتها  
البيضاء ، وأطلق حولهما الأقاويل والأراجيف وفي منازلته لأقرانه  
لمزها لمزا عنيفا فهو يدعو ابن القلاس للانصراف عنها لأنها منيحت  
نفسها غيره ولا يمكن أن تسمح لابن القلاس الا ببعض الفتات ،  
فهو يقول له :

ولا تطع التى تفويك فهى لفيهم أطـوع

فان تصارك الدهليز حيث سواك فى المضجع (٢)

(١) الديوان ص ٥٧٨ - ٥٨١ .

(٢) المصدر السابق .

ثم ألح في هذا المعنى في رسالته الهزلية فصورها بمظهر الفتاة  
الوقاح المتهالكة على الرجال التي تصرح بحاجتها الى من يعتمدها  
« بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة ، والنفس المصروفة اليها  
واللذة الموقوفة عليها (١) » وهو كلام مبتذل لا يجرى على لسان  
فتاة من سلالة البيت الأموي العريق ومن بنات الخلفاء المصونات ،  
وأطمعه انصراف ابن قلاس عنها بهذه الوسيلة فأمعن فيها وأسف  
كل الاسفاف فأندر ابن عبدوس وأنبأه أن ولادة غادرة خائنة على  
الرغم مما فيها من رقة ولين وانعطاف .

وغرك من عهد ولاده

سراب تراءى وبرق ومض

تظن الوفاء بهـ ، والظنـ

ن فيها تقول على من فرض

هى المـاء يأبى على قابض

ويمنع زبدته من مخض (٢)

ولم يكتف بهذا بل أمعن في ازدرائها وحمل ابن عبدوس اليها

رسالة امتهان وازدراء حيث يقول :

وأندر خليلك من ماهـر

بطب الجنون اذا ما عرض (٣)

واشعره أنى انتخبت البديل

واعلمه أنى استجدت العوض

وأن يد البين مشـكورة

لعـار أـماط ووصم رخص (٤)

---

(١) ص ١٦٣ من هذا البحث .

(٢) الديوان ص ١٨٧ ويشبها بالماء الذى لا يستقر فى اليد ، وليس له زبد  
يناله الماخض له .

(٣) المقصود بالخليل « ولادة » أى أن الشاعر كفىل بمداواة جنونها .

(٤) أماط : أزال ، رخص : غسل .

[illegible]

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيان. شعبان ٦٢١ هـ (١)



قد علقنا سواك علقا نفيسا  
 وصرقنا اليه عنك النفوسا (١)  
 ولبسنا الجديد من خلع الحد  
 ب ، ولم نأل أن خلعنا اللبسا (٢)  
 ليس منك الهوى ولا أنت منه  
 اهبطى مصر ، أنت من قوم موسى (٣)  
 يشير بهذا الى قوله تعالى في بنى اسرائيل « واذ قلتم يا موسى  
 لن نصبر على طعام واحد » وقد استوحى أبو نواس هذا المعنى  
 فقال :

ومظهرة لخلق الله نســــــــــــكا  
 وتلقــــــــــــانى بدل وابتسام  
 اتيت فؤادها أشكو اليه  
 فلم أخلص اليه من الزحام  
 فيا من ليس يرضيها خليل  
 ولا ألفسا خليل كل عام  
 أظنك من بقية قوم موسى  
 فهم لا يصبرون على طعام (٤)  
 ثم يزداد غضبا وحدة فيعلن أنه قال من ولادة كل ما يشتهى  
 وأن سبب الجفاء بينهما هو غيرتهما من جاريتهما المغنية عتبة  
 فيقول من مقطوعة نثرية طويلة في ديوانه (٥) : « كنت في أيام  
 الشباب ، وغمرة النصاب (٦) هائما بغادة ، تدعى ولادة » فهو كان

- (١) علق الشيء : أحبه ، العلق النفيس .  
 (٢) لم نأل : لم نقصر ، اللبس : البالي من كثرة اللبس .  
 (٣) الديوان ص ١٦٥ .  
 (٤) ديوان أبي نواس ص ٥٤٢ .  
 (٥) الديوان ص ٧٧٧ - ٧٨١ .  
 (٦) غمرات التصابي : غفلات الفتوة .

هائما بها أيام الشباب فقط ؛ ثم يذكر انها كتبت اليه تستدعيه  
« فلما طوى النهار كافوره ، ونشر الليل عبيره (١) أقبلت بقد  
كالقضيبي وردن كالكثيب (٢) ، وقد أطبقت نرجس المقل على  
ورد الخجل ... وبتنا نجنى اقحوان الثفور (٣) ، ونقطف رمان  
الصدور ... وكانت عتبة قد غنتنا :

أحبتننا انى بلغت مؤملى  
وساعدنى دهرى وواصلنى حبى  
وجاء يهينى البشير بقربه  
فأعطيتنه نفسى وزدت له قلبى  
فسألتها الاعادة بغير أمر ولادة ، فخبأ منها برق التبسم  
وبدا عارض التجهم ... فبتنا على العتاب فى غير اصطحاب «  
ثم يذكر أخيرا انها كتبت اليه بعد أن ضربت جاريتها عتبة  
لو كنت تنصف فى المودة بيننا  
لم تهو جاريتى ولم تتخير  
وتركت غصنا مثمرا بجماله  
وجنحت للفض الذى لم يثمر  
ولقد علمت بأننى بدر السما  
لكن دهيت لشقوتى بالمشتري  
ومن هنا نفهم أن مودتهما لم تكن صافية وإنما كان يشوبها  
الجفاء حتى فى أيام اللقاء ، بل أن يده امتدت اليها بالضرب حيناً ،  
حيث يقول :  
ان تكن نالتك بالضرب يلى  
وأصابتك . بمسا ثم أرد

(١) انطوى الضياء واقبل الظلام بنسيمه العطر .

(٢) بقوامها المشوق وعجزها المعتلى .

(٣) الاقحوان : زهر أبيض طيب الرائحة وسطه أصفر تشبه الثفور به .

هياقستك كنيتك تبيلعملوزاي فليديا لحقة بلبشا وليا لها لمانه  
 ريف تمانية (١) هيبه رايانا بشالك د بللمفلح السويطه في ح والولولة (١١)  
 رله فلم الطرفه عنه تنقير افلعلها د، (١٢) تنجيد المجهن وبها نلبس الموقلة  
 رله بلبشة د (١٣) ونغفلن امة ابد من ان تنصرف عنه وبذلك  
 حيثما القيفة حينا ولم يكن هناك بد من ان تنصرف عنه وبذلك  
 الحاقدون والحساد ما بذلوا من جهود اقلت بالشاعر في غيابة  
 السحن فقاسي فيه ما قاسي من الهوى والهوان ثم استطاع ان يفر  
 من سجنه بعد ان قضى فيه قريبا من العامين وفر الى اشبيلية ،  
 رله من مقرطبة جنبتيها اليها بعليلقوة قوين عامل العاطفة المتسبوبة  
 بالتيه الم رفر به الم حيلة الاشدة بالام وعامل الطمعة فلهذا لا يستلزم مكانته  
 «المفوق» وان يفودع الى الطمعة بالالتمس مكانه في قلب الاميرة ولد اختفى  
 بالزهر لخصلة رقرطبة النجوم القوي وبها رابعد الى اسبيلية حبيبته  
 ثم الى اميره والى اصدقائه الذين بطمع في وساطتهم لدى الامير ،  
 ويقول «اوغست كور» انه كان يؤد اقناع ولادة بالسفر معه الى  
 اشبيلية (٢) ثم ارسل اليها القصيدة النونية الخالدة (٣) التي  
 شرق ذكرها وغرب والتي مطلعها  
 اضحى التنسائي بدلا من لمانينا ربه ريثا تملد لبقاء  
 ريتشال ريتقشا تيه ، وفلا عن طيب لقيانا تجافينا (٤)  
 لها من يظهر ان الاميرة طامنت من كبرياءه ، وانه عرف معرفه  
 دقيقة بان الى سبيل التمدد استعمالها مع منافسها ومع حبيبته  
 تنجح الا في ابعادها عنه ، فعاد اليها متوسلا مستعظما يؤكل لها وللاءه  
 ويقسم على وفائه بأغلظ الايمان :  
 ريتشال ببال ثلستان ريتنا

١٤ (١) السيران ص ١٧٥ ثلثا لسان

(٢) Ibn Zaidon P. 6

(٣) بروي المراكشي في المصاحف ص ١٠١ (١) اشبيلية ،

واذا صح هذا يكون قد ارسلها قبل عودته مستخفيا في حياها لواءه (٦)

د (٤) المصاحف ص ١٠١ (١) بلبه ريتنا : ن امة ١٧ (٦)



يا روضة طالما أجنّت لواحظنا  
 وردا جلّاه الصبا غضا ونسرينا (١)  
 لسنا نسميك أجلا وتكرمة  
 فقدرك المعتلى عن ذاك يفنيها  
 إذا انفردت ، وما شوركت في صفة  
 فحسبنا الوصف أيضا وتبييننا (٢)  
 ثم يستثير في ذاكرتهما نفحات النعيم الماضي وخلصات اللقاء  
 الحبيب وذكريات الوصال العذبة ، لعلها تحن الى هذا الماضي  
 السعيد :  
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا  
 ومربع اللهو صاف من تصافينا  
 واذ هصرنا فنون الوصل دانية  
 قطافها ، فجئنا منه ما شينا  
 ليسق عهدكم عهد السرور ، فما  
 كنتم لأروا . الا رباحينا (٣)  
 ثم يلح في هذا المعنى هاتفا بها :  
 يا جنّة الخلد ابدلنا بسدرتها  
 والكوثر العذب زقوما وغسلينا (٤)  
 كأننا لم نبت ، والوصل ثالثنا  
 والسعد قد غص من أجفان واشينا  
 سران في خاطر الظلماء ، يكتمننا  
 حتى يكان لسان الصبح يفشيها (٥)

- 
- (١) النسر : زهر طيب الرائحة .  
 (٢) الديوان ص ١٤٥ ، ١٤٦ .  
 (٣) الديوان ص ١٤٣ .  
 (٤) السدرة : شجرة النبق ، الزقوم شجرة خبيثة مرة الثمر ، الفسلين :  
 ما يسيل من جلود أهل النار أو شجرة يعذب الله بها الكفار لطعمها الكريه .  
 (٥) الديوان ص ١٤٦ .

واذا كان في عهده الأول يتدل ويتجنى ولا يقنع الا بجنى  
« أقحوان الثغور ، وقطف رمان الصدور » (١) « ورشف الرضاب  
أعذاب رشف وهصر القد أطف هصر ولف جسم بجسم وقرع  
ثغر بثر » (٢) اذا كان في عهده الأول لا يقنع الا بهذا فهو الآن  
قانع ببذل الوعود وان لم تتحقق ، فالطيف يقنعه والذكر يكفيه ،  
وفي رد الجواب متاع اى متاع .

أولى وفاء ، وان لم تبدل صلة  
فالطيف يقنعنا ، والذكر يكفيننا  
وفي الجواب متاع ، ان شفعت به

بيض الأيادي التي ما زلت تولينا (٣)

وأخيرا ظفر الشاعر بحريته واسترد جانبا كبيرا من مكانته  
السامية ؛ ثم عاد الى عهده السابق في أول ولاية صديقه أبى الوليد  
ابن جهور للحكم في قرطبة وكان الحاكم الجديد يعلم الجرح  
العميق في نفس صديقه الوفي فأرسله في سفارات خاصة الى عدد  
من أمراء الطوائف لعله يلهيه بهذه المشاغل عن حبه اليأس  
العنيف ، ويقول نيكل انه أراد بهذا معالجة جراح صديقه  
العاطفية الدامية (٤) ولكن عاطفة الشاعر ازدادت اشتعالا فردد  
أعذب الأغاريد ورتل أشجى الألحان ، واستفاد الأدب العربى  
من هذه المحنة ثروة أدبية خالدة على الزمان وظل الشاعر  
يهتف بهذه الألحان بضعة وعشرين عاما حتى طوته المنون - أما ولادة  
فقد لظمت خدرها واكتفت بعلاقة صداقة محدودة مع  
ابن عبدوس ، وبخاصة بعد أن تبددت ثروتها فكان يواسيها  
بموفور ماله حيننا بعد حين .

(١) الديوان ص ٧٧١ .

(٢) الديوان ص ١٢١ .

(٣) الديوان ص ١٤٨ .

(٤) Hispano Arabic Poetry P. 119

ولقد بقى علينا أن نتعرف الى نفسية ولادة التي نزعنا بها  
الى الخمول بعد الشهرة ، والى الوحشة بعد الايناس والى العنوسة  
بعد أن تهاقت عليها عظماء الرجال .

### دراسة تحليلية

أعلن بعض كبار اللغويين قديما - ولعله الأخفش - أنه يموت  
وفى نفسه شيء من « حتى » لصعوبة وضع قاعدة دقيقة لأعراب  
ما بعدها ، وردد هذه القولة بعض الباحثين المحدثين فقال :  
« أموت وفى نفسى شيء من ولادة » لأن موقفها محفوف بالغموض  
الشديد فانها على جمالها ورقتها وكثرة الراغبين فيها المتهافتين  
عليها من الأكفاء ظلت عانسا حتى جاوزت الثمانين ثم أن تصرفاتها  
عجيبة حتى حار فيها من عاصرها من الأدباء والمؤرخين ، فى  
تصرفاتها ما يوجد الى القول فيها السبيل ولكنها تخط ذلك  
بكرم أنساب وطهارة أثواب (١) ، فهى تقبل على ابن زيدون ثم تعرض  
عنه ثم تعود اليه لتصرف عنه انصرافا تاما ، ولقد أطعمت فيها  
ابن القلاس حتى انصرف عنها أو انصرفت عنه ، ثم تقبل على  
ابن عبدوس وتعود فتسخر منه ثم تعود اليه صديقة لا حبيبة وقد  
حار فيها القدماء « لقلّة مبالاتها ومجاهراتها بلذاتها » ونحار نحن  
معهم فيما نقرأ من هجائها الفاحش لابن زيدون حيث تناولت عرضه  
فرمته بالشذوذ الجنسى واتهمته بعلامه وعادت فاتهمت غلامه به فى  
شعر بدىء أن صحت نسبته اليها والقدماء مجمعون على نسبته  
اليها ، وإذا أحسننا الظن بها ووصفناها مع معاصريها « بالتصون  
والعفاف » فأننا نظن أن هذا الشعر نظمه ابن عبدوس على لسانها  
لا ردا على الرسالة الهزلية التى كتبها على لسانها ابن زيدون فى  
تحقير ابن عبدوس ، ونحن لا نملك على حسن ظننا بها أى دليل .

(١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٦ والصلة ص ٦٣٢ وبغية الملتبس ص ٥٣٢ .

ولقد حار فيها المستشرقون أيضا فرموها بالجنسية المثلية Homosexuality وهي عشق الذكر للذكر والأنثى للأنثى واتهموها أو اتهموا بها مهجة بنت التيماني القرطبية فيتشكك هنري بربس في أنوثتها مشيرا الى علاقتها بمهجة (١) ويقول غومس انها كانت امرأة رجلة (٢) وربما ساعد على هذا الاتهام أنها كانت تتهم الشاعر دائما بالجنسية المثلية ، والمصائب بالعيوب يلقيها دائما على خصمه محاولا تبرئة نفسه أو سترها بإلقاء هذه التهم على أعدائه أو المحيطين به ، ولكن هذا الاتهام يدفعه هجاء مهجة بنت التيماني لها ورميها اياها بأنها تتهاك على الرجال في شعر قبيح مكشوف لا نستطيع روايته (٣) ومن العجيب أن نيكل على دفته سار على نهج من سبقه من المستشرقين فقرر أن صلاتها بمهجة كانت صلات مريبة (٤) ولعله تأثر بما رواه ابن سعيد من أنها علقت بمهجة (٥) واذا صدقنا ما وصفها به ابن زيدون أيام اقبالها عليه استطعنا ان ننفي عنها ناحية الشذوذ ، ولكن كيف نفسر اقبالها على الرجال واعراضها عنهم ؟ ثم كيف ظلت عانسا حتى ماتت وقد تجاوزت الثمانين ؟ حاولنا تفسير هذه الظاهرة الغريبة في رسالتنا عن ابن زيدون (٦) الى أنها كانت مصابة بما يسميه علماء النفس مرض السادية Sadiism وهي حب ايقاع التعذيب على الجنس الآخر . وهذا المرض تبدأ بذوره عند المرأة من الطفولة حين تشعر أنها تنقص عن الطفل بعض الأعضاء فتشعر بحسد وغيرة يسميها علماء النفس بحسد

(١) La Poésie Andalouse p. 428

(٢) الشعر الاندلسي ٣٢ .

(٣) راجع هذا الهجاء في نفع الطيب ج ٢ ص ٦٣٣ .

(٤) Hispano Arabic Poetry p.III

(٥) المقرب ج ١ ورقة ٢٧٦ .

(٦) ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه ١٧٤ - ١٧٩ .

الدكورة Penis Envy ( ١ ) ، ويظل هذا الحسد ينمو حتى يؤول الى مرض خطير بعد البلوغ ، ويرجح بعض الباحثين أن يكون هذا المرض أثرا وراثيا لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالخمير (٢) ، ونحن نعلم أن والد ولادة كان من المدمنين (٣) ومن مظاهر السادية أن تنصب المرأة شباها للرجل حتى يقع فريسة هواها فتكر عليه فتذيقه أنواع الصدود وتجرحه مرارة الحرمان بعد أن أطعمته حلاوة النعيم ، وقد روى العالم النفساني اشتكل Stekl كثيرا من الأمثلة عن هذا المرض وساق اعتراف سيدة من هذا النوع حيث قالت له : « ان اللذة الجنسية ضعيفة اذا قيست باللذة التي استشعرها من العمل السادی ، فهي لذة لا يحدها الوصف ولا تصورها الألفاظ فأننى أشعر بشخصي يسمو ويعلو ويملأنى الزهو والكبرياء والجلال ، وتبلغ بى النشوة أوجها كلما شعرت اننى بسطت سيطرتى على هؤلاء الرجال دون أن أشبع لهم رغبة أو أطفئ لهم شهوة ، فهم عبيدى يظنون يجرون خلفى طمعا فى أن يتذوقوا حلاوة وصالى بعد أن ذاقوا مرارة قسوتى وكبريائى فهم أتباع لى دائما يحدوهم الأمل فى نعيمى فلا يدخلون الا جحيمى » (٤) والى هذا يشير شاعرنا بقوله :

عللتنى بالمنى حتى اذا علقت  
بالنفس لم أعط من أسبابها طرفا  
غيرت عن خلق قد لان لى زمنى  
لين النسيم ، فلما لذ لى عصفا (٥)

- 
- (١) سيكلوجيا المرأة ص ١٠٤ .  
(٢) المسألة الجنسية ج ١ ص ٢٣٩ .  
(٣) الدخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٨٢ .  
(٣) الاضطرابات الجنسية ص ١٥٠ ، ١٦٤ .  
(٥) الديوان ص ١٨٣ .

ويقول :

أحين علمت حظك من ودادي  
ولم تجهل محلك من فؤادي  
وقادني الهوى فأنقذت طوعا  
وما مكنت غيرك من قيسادي  
رضيت لي السقام لباس جسم

كحلت الطرف منه بالسهاد (١)

وديوان الشاعر حافل بتصوير هذه المواقف فلا داعي للأدلة فيها - ومن مظاهر السادية حب التلويث (٢) كتلويث الملابس بل قد يمتد الى تلويث الشخص لنفسه ، وهي كما قلنا « أطرحت التحصيل وأوجدت الى القول فيها السبيل » ، وانها لم يكن لها تصاون يطابق شرفها « وقد لوثت ابن زيدون بما صاغته فيه من مقطعات هجاء فاحشة مقذعة لا نستطيع روايتها (٣) ، كما لوثت ابن عبدوس بسخريتها منه « وكانت كثيرة العبث به » (٤) ثم لوثت الأصمعي ومزقت عرضه وعرض ابنه كل تمزيق في شعر لا نستطيع روايته (٥) وإلى هذا أشار العمري بقوله : « وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد . . » (٦) ويقرر نيكل : « أن سلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادي الطبيعي الذي يذكرنا بجورج صائد » ويقرر « أنها ورثت عن أبيها

(١) الديوان ص ١٨٥ .

(٢) الاضطرابات الجنسية ص ١٥٥ .

(٣) من الممكن مراجعته في نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ونزهة الجلساء ص ٤٢ ، ٤٣ ونزهة الأبصار ص ١٢ وقبسات منه في كفايته ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ١٥١ .

(٤) سرح العيون ص ٧ .

(٥) راجعه في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٤ ونزهة الجلساء ٤٣ .

(٦) مسالك الأبصار ج ١٠ ص ٢٣٠ .

بعض الخشونة « (١) - والمريضة بهذا المرض لا تدوم صلاتها الا برجل ذى انحراف مقابل لانحرافها تسيطر عليه نزعة قبول التعذيب والشفق به ، وهذا المرض يسميه علماء النفس « الماسوشية » ، ويظهر في صورة الرغبة الملحة في الخضوع والاستسلام للشخص المحبوب ، وقد توغل الى درجة العبودية والاسر التي تتمثل في الطاعة العمياء لكل نزعات ونزوات الشخص المحبوب ، ولعل ولادة صادفت هذا الشخص في ابن عبدوس الذي كانت تسخر منه وتكثر العبث به فلا يزداد الا توددا اليها ، وتعرض عنه منصرفا الى ابن زيدون فينتظر حتى تعود اليه ، ويزجره ابن زيدون فيزدجر حتى يرحل ابن زيدون عن قرطبة فيعود الى ولادة متزلقا مترددا ، وقد رأينا من شعره كيف وقف على باب أحد القضاة فحجبه فانصرف شاكيا لاعنا ، ولعل نيكل أدرك بفطرته لمحة من هذا الاتجاه حين قرر أن ولادة كانت محتاجة الى شخص أقل من مستواها العقلي (٢) ولعلها وجدته في ابن عبدوس ؛ هذا ملخص ما ذهبنا اليه في رسالتنا عن ابن زيدون - وان كنا ذهبنا في تفسير تصرفاتها وتحليل شخصيتها مذهبا آخر في مسرحيتنا الشعرية عنها وعن ابن زيدون (٣) حيث تصورنا أن الفن الجميل من شعر وموسيقى وغناء استأثر باهتمامها واستغرق كل جوانب حياتها فأغناها عن الزواج كما يفعل بعض المشتغلين والمشتغلات بالفنون الآن ، وهو افتراض مجرد لا نملك عليه دليلا .

واذا كنا لا نملك الا القروض فأننا نستطيع أن نفترض أنها بعد أن بددت ثروتها اضطرت الى الانزواء في

(١) Hispano Arabic Poetry p. 107

(٢) Hispano Arabic Poetry p. 112

(٣) ولادة مسرحية شعرية طبعتها لجنة البيان العربى .

خلرها في عفة وقناعة واستحياء ، أو أنها بعد أن لاكت الألسن حياتها وارتفعت الى ذروتها الشبهات وحامت حولها الشكوك أدركت أنها فرطت في حياتها وتساهلت في كرامتها وأساءت الى حسبها ونسبها فأثرت الانسحاب من الحياة العامة ورفضت الزواج حتى لا يظن القادحون أنه نتيجة حب عنيف . ومن التقاليد العربية المتوارثة أن الأسرة كانت ترفض زواج فئاتها بمن أشتهر بحبها نفيا للظنون وإبعادا للشبهات .

وقد تكون انسحبت من الحياة العامة خشية أن تتعرض حياتها لما تعرض اليه آلهاء بعد أن ذهبت دولتهم وتبدد سلطانهم . . هذه كلها فروض قائمة على مجرد الظنون . . . . ونعود فنقول مع القائلين : « نموت وفي أنفسنا شيء من ولادة » ولكل قارىء في ضوء ما ذكرناه أن يختار لنفسه الرأي الذي يستريح اليه في شأن هذه الفتاة الشاعرة الساحرة الموهوبة ذات الأصل الكريم والمجد الخالد .

## الفصل الرابع

### محنة قاسية

ضاق الأمير أبو الحزم بن جهور ذرعا بابن زيدون لما ذكرناه في الفصل الثاني من أسباب ، حتى لم يبق في قوس صبره منزع وزاده ضيقا بالشاعر الندوات الأدبية التي كان يعقدها في قصر ولادة وخشية الأمير من أن تلفت هذه الندوات أنظار الشعب الى ولادة والى الأمويين من جديد ، ويظهر أن ولادة أحست بهذا أو تلقت تحذيرا عنيفا فآثرت الانسحاب من الحياة العامة ولعل بنى جهور أشفقوا من أن تكون هذه الندوات ستارا للتآمر على ارجاع الأمويين ، وولادة زهرة يانعة من زهرات هذا البيت الكريم ، وقد عرفنا أن بنى جهور أعلنوا في قرطبة الا يبقى بها أحد من الأمويين وقد اغتالوا أمية حينما هم بالرجوع اليها (١) وطردها ابن المرتضى شر طردة قطعاً للفتن والثورات (٢) ويرجح نيكلسون هذا الرأي فيقول « قد وقع الشاعر في مأزق لعله نشأ من حبه للأميرة الحاذقة الجميلة التي ألهمته أعذب الألحان (٣) ويؤيده الدكتور « فيليب حتى » في هذا الاتجاه ، ومما يزكى هذا الرأي أن أحدا من الشعراء لم يجرؤ على التفضل فيها بعد ابن زيدون ، وقد أشرنا في الفصل السابق الى هذا الاحتمال ، ولعل هذا ما أشار اليه ابن خاقان بقوله (٤) « ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر لسوء أثره في ملك قرطبة

(١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٣٠ .

(٢) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) Aliterary History of the Arabs p. 425

(٤) تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٦٦٤ .

وواليتها . . . » وربما كان هذا هو ما عناه الشاعر بعد خروجه من السجن بقوله فيها .  
ولئن تجنبت الرشاد بفدرة

لم يهو بي في الفى غير هواك (١)  
وان كان السبب الرئيسى هو التآمر لارجاع سلطان الأمويين كما ذكرنا ؛ - وأخيرا لفق أعداء الشاعر له تهمة اغتصاب عقار ويظهر أن الأمير كان من الموحين بهذا الاتهام أو وجده فرصة مناسبة للانتقام من الشاعر أتاحتها له الأقدار فعزل القاضى ابن ذكوان من ولاية القضاء أو اضطره الى الاعتزال لأنه صديق الشاعر الحميم وولى قاضيا يتلقى وحى الأمير فينفذه دون مناقشة أو اعتراض ، هذا القاضى هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ويحدثنا عنه معاصره ابن بشكوال فيقول :  
« ولم يكن من القضاء فى ورد ولا فى صدر لقله علمه ومعرفته ،  
وانما كانت أثرة أثر بها (٢) » ولسقوط همته ضن عليه ابن جهور بلقب القاضى ولهذا نعتة ابن حيان بأنه أحد حكام قرطبة ، ويقول ابن سعيد فى ترجمته « ولم يكن فى نصاب القضاء ، وهو ممن أثر الخمول للدعة ، والقلاحة على الدراسة . . . ولم يطلق عليه اسم القضاء على سبيل ابن ذكوان قبله (٣) » لأنه ولى هذا المنصب لغرض مقصود ولفترة محدودة من الزمان « وقد اكتسب فى منصبه صرامة واعجابا حتى استخف بكثير من وجده الناس فجرت له بذلك خطوب . . . من رجل قليل العلم نكد الخلق . .  
ألح الناس فى صرفه حتى صرفه أبو الوليد بن جهور فى ربيع الأول سنة ٤٣٥ » (٤) ولقد بقى ابن المكوى بعد عزله « خاملا معطلا الى أن ركبته علة الذبول . . » (٥) .

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

(٢) الصلة ص ٢٧٢ .

(٣) المقرب ج ١ ورقة ١٢٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الصلة ص ٢٧٢ .

هذا هو القاضى ؛ أما التهمة فهى أن الشاعر اغتصب عقارا لأحد مواليه بعد وفاته وأحضر الذى اتهمه شاهدا شهد بهذا فما كاد القاضى يسمع الشاهد ويعرف الاتهام حتى أصدر أمره بسجن الشاعر دون تثبت أو مراجعة وبهذا وافق هوى الأمير ونال رضاء الأعداء ، وقد ترك الشاعر لنا وثيقة عن هذه التهمة وعن أسلوب القاضى فى الحكم عليه ، هذه الوثيقة هى الرسالة البكرية ، التى وجهها الى أستاذه وصديقه أبى بكر مسلم ابن أحمد بن أفلح النحوى (١) ، وفى ضوء هذه الوثيقة نستطيع أن نصور هذه المهزلة القضائية التى تعرض لها ابن زيدون :

ما كاد القاضى يسمع التهمة والشاهد حتى أمر بسجن الشاعر ، ولكن أنصار الشاعر من جهة ورجال الدين من جهة أخرى لم يستريحوا لهذا التصرف الغريب ، وأحس القاضى هذا فجمعهم وحاول أن يبرر موقفه أمامهم فلم يقتنعوا برأيه ، وأشاروا عليه أن يتيح للشاعر فرصة الدفاع عن نفسه وتقديم ما يثبت براءته قبل الحكم عليه ، والدفاع عن النفس حق مشروع كفه الاسلام كما كفلته جميع الشرائع والقوانين ، فأظهر القاضى الموافقة على رأيهم ، ولكنه لم ينفذ مشورتهم ، وقد صور الشاعر هذا الموقف بقوله : « وكان المتولى سجنى بعد شهر من انفاذه ، له مجلس حضره فقهاء الحضرة ومن أعلم بسيماهم ، وجرى فى غشيان الحكام مجراهم ، فذكر أنه اتهمنى بالفيب على عهد المتوفى مولاي - كان - نفع الله صداه وبلى ثراه ؛ وثبت عنده مع ذلك أنى من تعلقه التهم ولا ترتفع عنه الظنن ، فكلهم افتى بالاعذار الى فيما شهد به من ذلك على ؛ ثم سجنى ان لم آت بمدفع ، أو أصدر من الحجة بمقنع ، فاحتاط واجتهد ، وتحرى واقتصد ، وصالحنى من هذه الفتيا على النصف بتأخير الاعذار

وتقديم السجن (١) « ومن الغريب أن ينزل العقاب بالشاعر قبل أن يتقدم عن نفسه بالدفاع ، مع أن القاعدة القانونية المعروفة تنادى بأن المتهم برىء حتى تثبت ادانته ، وإن كان هناك حبس احتياطي في بعض الحالات خشية فرار المتهم ، ولا ينطبق هذا على الشاعر بأي حال .

وبالرجوع الى قوانين القضاء المطبقة بالأندلس في ذلك الحين وجميعها مستمدة من مذهب الامام مالك رضى الله عنه نجد القاضى قد ارتكب عدة مخالفات كانت تستدعى مثوله هو امام القضاء ؛ ونستطيع أن نضرب أمثلة على بعض هذه المخالفات :  
**اولا :** قنع القاضى بشهادة واحد منهم ، والشهادة لا تتم الا بشاهدين عدلين وقد طعن ابن زيدون في الشاهد وشهادته حيث قال : « وشهد ابن العطار-العشار العارى عن الثقة والأمانة البعيد عن الرعاية والصيانة الناشر لأذنيه طمعا ، الأكل بيديه جشعا فكان القول ما قالت حدام (٢) ، ولم يقتصر على ان الحق بالشهود وهو واو عمرو فيهم (٣) ونون الجمع المضاف معهم » (٤) مع أن قوانين القضاء تحتم التحرى الكامل عن الشهود قبل قبول شهادتهم (٥) .

**ثانيا :** كان على القاضى قبل أن يأمر بسجن الشاعر أن يعطيه فرصة للاعذار « الدفاع عن نفسه » لعله يأتى بما يدفع التهمة أو يقدم دليلا مقنعا على براءته ، وهذا حق من حقوق المتهم

(١) تراجع الرسالة البكرية ص ٧١٨ - ٧٥٣ بالديوان .

(٢) اشارة الى قول لجيم بن صعب في صدق زوجته

إذا قالت حـدام فصدقوها

فان القول ما قالت حـدام

(٣) هذه الواو زيادة في الكتابة .

(٤) نون الجمع تحذف عند الاضافة مثل هؤلاء معلمو المدرسة .

(٥) راجع الشروط الواجب توفرها في الشهود في رسالتنا « ابن زيدون

ص ١٩٠ » .

ولو كانت التهمة ثابتة عليه ، وفي هذا يقول ابن فرحون « كل من قامت عليه بينة بحق من معاملة أو نحوها أو دعوى بفساد أو غضب أو تعدد فلا بد من الأعذار قبل الحكم عليه إلا أن يكون من أهل الفساد الظاهر أو من الزنادقة المشهورين بما ينسب إليهم » (١) . ولا يمكن أن يدخل الشاعر في عداد هؤلاء ، وإن كان القاضي عده ممن تعلقه التهم ولا ترتفع عنه الظن .

**ثالثا :** أدرك الشاعر ما هو مبيت له فأراد أن يقطع الطريق على أعدائه فعرض الصلح على خصومه ، والحكم الشرعي أن الصلح جائز بين الخصوم بل إن من واجب القاضي أن يسعى إليه بين المتخاصمين ، وإلى هذا يشير ابن سلمون بقوله « والصلح جائز باتفاق ، قال صلى الله عليه وسلم : ( الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ؛ وهو على نوعين على الإقرار وعلى الإنكار » والخصومة القائمة بين ابن زيدون خصومة مالية إذا تراضى الطرفان على الصلح فيها فهو أمر مباح بل مندوب إليه ، ويقول ابن فرحون « وإذا خشى القاضي من تفاقم الأمر بين الخصمين أو كانا من أهل الفضل أو بينهما رحم أمرهما بالصلح (٢) » .

**رابعا :** قرر الفقهاء « أنه لا يجوز الحبس في الحق إذا تمكن الحاكم من استيفائه مثل أن يمتنع المتهم عن دفع الدين ونحن نعرف ماله فانا نأخذ مقبض الدين ولا يجوز لنا حبسه » (٣) والشاعر من الأثرياء ، ويمكن استيفاء الحق منه إذا ثبتت التهمة عليه ولهذا لا يجوز حبسه مهما كانت الملابسات .

**خامسا :** من واجب القاضي « أن يكشف عن حال المحبوسين

(١) تبصرة الحكام ج ١ ص ١٣٥ .

(٢) العقد المنظم للحكام ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) تبصرة الحكام ج ٢ ص ٥٢ .

فينظر في أمرهم وفي مدة اقامتهم في الحبس فقد يكون منهم من طالت اقامته فتكون اقامته في الحبس ظلماً له « (١) .

ولقد طالبت اقامة الشاعر في حبسه حتى قاربت العامين مع أن الفقهاء لم يتركوا أمر الحبس فوضى ، بل قدروا له أمدا محدودا « فحبس التعزير (٢) راجع الى اجتهاد الحاكم فقد يكون يوما وقد يكون شهرا للاستبراء والكشف وستة أشهر للتأديب والتقويم ومن دونهم بالنفي والابعاد اذا تعددت ذنوبهم ولا يبلغ بنفيهم حولا ، وحبس المتهم بالقتل والضرب الخطير شهرا (٣) وحبس القاتل عمدا اذا عفى عنه (٤) على الدية سنة « (٥) .

**سادسا :** قدم الشاعر وثيقة كتابية كان المتوفى الذي يدعون أن الشاعر اغتصب ماله أثبت فيها كفاية وأشهد فيها على نفسه أن لا مال له ولكن القاضي تجاهل هذا الدليل القاطع على البراءة لفرض في نفسه وأخيرا يئس الشاعر من القاضي فلجأ الى ابن جهور مستشفعا متوسلا ولكن شعره ونثره وضراعاته كلها لم تجد سبيلا الى قلب الأمير .

### في غيابة السجن

تخبط القدماء والمحدثون في تحديد تاريخ سجن الشاعر ومدة سجنه حتى ادعى كثيرون أن الشاعر سجن مرتين مرة في عهد أبي الحزم بن جهور ، ومرة في عهد ابنه أبي الوليد ، وزعم بعضهم أنه سجن خمسة أعوام في المرة الأولى وأن سجنه تم قبل الثلاثين .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٢) التأديب بما دون الحد الشرعي ويترك للقاضي تقديره في غير اسراف .

(٣) هذا اذا لم يكن متعمدا .

(٤) اذا صالحه أهل القتل على الدية .

(٥) تبصرة الحكام ج ١ ص ٢٢٥ .

وقد استطعنا في رسالتنا عن ابن زيدون (١) أن نقدم الأدلة القاطعة على أنه سجن مرة واحدة فقط في عهد أبي الحزم بن جهور وحددنا مدة السجن في الفترة الواقعة بين اليوم السابع من المحرم سنة ٣٢٢ هـ واليوم الثامن من شعبان سنة ٣٣٣ هـ وهي تتجاوز الخمسمائة يوم بحوالي شهرين تقريبا ، ولا نحب أن نثقل هذا البحث الموجز بالنصوص العديدة التي رجعنا إليها في رسالتنا عن ابن زيدون .

ولقد لقي الشاعر في سجنه معاملة قاسية صورها لنا في رسالته البكرية حيث يقول : « وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن في موضع جرت العادة بوضع مستورى الناس وذوى الهيئات فيه ... فمئيت من مطالبة بعض من يآتمر الناظرون في السجن له ويسمعون منه بما اقتضى نقلى الى حيث الجنة المفسدون واللصوص المقيدون ومنع منى عوادى ، وشكوت ذلك الى الحاكم الحابس لى ... فانتفى من الرضى به وأظهر الامتناع منه ، وتقدم الى الموكل بالسجن في اختيار مجلس أباين فيه من لا تليق بى ملابسته (٢) ... ثم لم البث أن أحضره مجلس نظره وأمر بتأديبه على امثاله في ما أمره به وانتهائه الى ما حد له ، واستأنف العهد في التضييق على ومنع من اعتاد صلتى من الوصول الى ... فنقلت في نفسى ثلاث نقل (٣) على أقبح النصب (٤) وأسوأ الرتب ، ودخل الى في هذه الحال من أبلغنى عن ابن أخى الحكم رسالة جامعة من السب الفاحش لفنون مشتملة من الوعيد المرهب على ضروب ... » (٥) .

---

(١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ١٦٤ - ٢٠١ .

(٢) ملابسته : مخالطته .

(٣) أمر الحاكم من يقوم على المسجونين بوضع الشاعر في المكان المناسب بمكانته ثم عاقبه على أنه أطاع أوامره ثم أعاده الى حيث يقيم الرعاع والسفلة

(٤) النصيب : الشر والبلاء .

(٥) الديوان ص ٧٣٣ - ٧٣٥ .

ومن هذا النص تتضح النية المبيتة للشاعر وأن الهدف لم يكن تنفيذ حكم قضائي وإنما هو الانتقام من الشاعر أبشع انتقام .

وتعرض الشاعر لآلام جسمية زادته هموما على هموم وقد يخفف عن المريض آلامه ما يلقاه من عواده من مشاركة وجدانية ولكن الحاكم منع عنه الزوار والعواد .

أفصبر مئين خمسا من الأي  
سام ؟ ناهيك من عذاب مقيم  
ومعنى من الضنى بهنسات

نكأت بالكوم قسرح الكلوم (١)  
سقم لا أعاد فيه وفي العسا

ثد أنس يفى ببسراء السقيم (٢)  
أما آلامه النفسية فلعلها أقسى من آلامه الجسمية ، فقد فشل في حبه وخسر مكانته وانتهى به الأمر الى حيث ينتهى بالمجرمين والسفلة وحياته مهددة بالخطر ، هذا كله الى جانب شماتة الحساد وتنكر الأصدقاء الذين أذاقهم الوداد الصافي فانقلبوا عليه في محنته ينهشون لحمه ويمزقون أديمه كالذئاب الضارية .

اذؤب هامت بلحسمى  
فانتهاش وانتهاش  
كلهم يسأل عن حا

لى وللذئب اعتسّاس (٣)

(١) الضنى : المرض ، هنات دواه ، نكأ الجرح قشره قبل أن يندمل فأدماه ، الكلوم الجروح .

(٢) الديوان ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٣) الديوان ص ٢٧٦ ، الانتهاش : القضم بالأضراس والانتهاش : القضم بأطراف الأسنان ، اعتسّاس : تسلل في الظلام .

وكان يحز في نفسه أكثر من هذا كله ما يتصوره من حال أمه التي هو وحيندها « وغبت عن أم أنا واحدها تمتد أنفاسها شوقا الى ، وتفيض أجفانها حزنا على والله يرى بكاءها ويسمع لى على من ظلمنى نداءها » (١) ومما يزيد في أثر الصدمات أنها وقعت على رجل مترف مرفه نشأ في مهاد النعمة وتقلب في احضان النعيم واعتاد أن تكون له الصدارة في كل مجال ، ثم هو رجل شاعر مرهف الاحساس مشبوب العاطفة تتلقى أعصابه الصدمات العادية مضاعفة فما بالك بهذه النكبات الفادحة - ولكنها مع ذلك أكسبته شدة ، وأفادته تجربة ولقنته عظات انتفع بآثارها في مستقبل الحياة .

وأخيرا لم يجد بدا من الفرار فاستعان بصديقه ولى العهد كما حدثنا ابن حيان (٢) واذا كان ولى العهد لم يستطع أن يشفع لصديقه في هذه الفترة فلعله استطاع أن يعاونه في الفرار من سجنه . ولقد كان يخشى أن فراره من السجن يثبت التهمة عليه ويتيح للألسنة أن تتناوله وللأقلام أن تمزقه كل تمزيق ، وصدقت فراسته واضطر الى أن يدافع عن نفسه بسبب هذا الفرار .

فررت فان قالوا الفـرار اراية

فقد فر موسى حين هم به القبط (٣)

وانى لراج أن تعود كبـدئـها

لى الشيمة الزهراء والخلق البسط (٤)

ويقول في رسالته البكرية « فلم أستطع صبرا ، وعلمت

(١) من الرسالة البكرية للشاعر ، الديوان ص ٧٥١ .

(٢) اعتاب الكتاب ص ٧٧ .

(٣) اراية اتهام وشك ويشير الى فرار موسى عليه السلام بعد قتله احد المصريين قال تعالى على لسانه « فررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين » .

(٤) الديوان ص ٢٦٢ - السبط : السهل الكريم .

أنى قد أبليت عسكرا . . . ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين  
العير والوتد (١) وذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق  
من سنن المرسلين . . .

لا عار لا عار في الفرار فقد

فر نبي الهدى الى القار «

. . . ووجدت الحر ينام على الثكل ولا ينام على الذل . . .  
فاستخرت الله عز وجل في انفاذ العزم واضح وجه العذر ، ثابت  
قدم الحجبة عند من غض عين الهوى وخزن لسان  
التعسف . . (٢) » .

ونفذ الشاعر عزمه ولا نعرف كيف نفذه على الرغم من الرقابة  
الدقيقة المفروضة عليه ، ولا شك في أن هناك أيديا خفية قوية امتدت  
الى معونته وأعدت له فرسا مطهمة ؛ مكنته من اجتياز المسافة  
بين قرطبة واشبيلية في ليلة واحدة مع أن الأمد بينهما ثلاثة  
أيام (٣) ويرجع أوغست كورونيكل ونحن معهما في أن لأبي الوليد  
ابن جهور يدا في هذا الفرار (٤) ، وما كان لغير ولي العهد أن يجرؤ  
على تقديم هذا العون القوي السريع ؛ ونحن نعرف ما تربطه  
بالشاعر من صلات وثيقة .

ومن الطبيعي أن يلقي الشاعر حفاوة وترحيبا في بلاط  
بنى عباد مثل من سبقوه الى هذه الهجرة من قرطبة ؛ ومثل  
ابن زيدون يتنافس الملوك في جذبهم اليهم وبخاصة ملوك الطوائف ،

(١) العير : الحمار ، قال المتلمس :

ولا يقيم على ذل يراد به

الا الاذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته

وذا يشج فلا يرئى له أحد

(٢) الديوان ص ٧٣٥ - ٧٣٦ .

(٣) المطرب لوحة ١٢٨ وفلايد العقيان ص ٧١

(٤) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ٢١١ ، ٢١٢ .

ولقد قربه المعتضد بن عباد منه فمدحه وهناه بزواجه من بنت  
الأمير مجاهد العامري حاكم دانية وجزر مينورقة وميورقة  
ويابسة (١) وكتب على لسانه اليه - والشاعر في قصيدة التهئية (٢)  
يوحى اليها بأنه كان يلزم مجلس المعتضد ، ويحضر معه مجالس  
أنسه ويتساجلان السماع والشراب ، وأنه كان من المعتضد  
بمنزلة المشير الوزير ولقد كان لقب الوزارة يطلق على من يجالس  
الملوك ويشير عليهم ولكن قصيدة الشاعر توحى بأنه كان بمنزلة  
المشير الأول أو المشير الأوحد حيث يقول :

وأمنت عادة العدا الاقتال ، مذ

أعصمت في أعلى يفاع حماكا (٣)

جهدا يفل نصيحة محوضنة

أفردت مهديها فلا اشراكا

وثناء محتفل كان ثناءه

مسك بأردان المحافل صاكا (٤)

ولقد رفع المعتضد الكلفة بينه وبين الشاعر فكان يهدى اليه  
الخمر والفاكهة والأزهار ويقبل هداياه ، ولا يكاد يصبر عن لقائه ،  
فلما احتجب في أسبوع الزواج خاطبه الشاعر بقوله انه في وحشة  
بالفة اليه مع انه يعلم انه في أنس ونعيم ويترنم بما أغدقه عليه  
من احسان .

أسبوع أنس معقب لي وحشة

علما بأنى فيسه لست أراكا

(١) هي الجزائر الواقعة شرق الأندلس ويطلق عليها الجغرافيون اليوم اسم  
جزائر البلبار وكان لمجاهد أسطول بحري قوى يهدد شواطئ فرنسا الجنوبية  
وغربي إيطاليا .

(٢) الديوان ص ٤٣٨ - ٤٤٥ ، ٢٣٧ .

(٣) الاقتال : المقاتلون ، أعصمت : اختصمت ، يفاع : ذروة .

(٤) الأردن : الأكمام ، صاك : لصق .

فأنا المعذب غير أنى مشعر  
 ثقة بأنك ناعم فهناكا (١)  
 أنى أقوم بشكر طولك بعد أن  
 ملأت من الدنيسا بدى يداكا (٢)  
 بردت ظلال ذراك ، واحلولى جنى  
 نعماك لى ، وصفت جمام نداكا (٣)  
 ثم يتقدم الى أميره معلنا استعداده لمعاونته فى مهاجمة عدوه  
 البغيض اللدود - ولعله يقصد ابن جهور الذى تقضى بيعة هشام  
 وسبه وسب من ناصره فيقول :  
 ولتدعنى وعدوك الشانى ، فان  
 يرم القراع يجد سلاحى شاك (٤)  
 ولكن هوى الشاعر الغلاب وحنينه الى وطنه والى أهله جذبه  
 الى قرطبة فعاد اليها مستخفيا قائلا « ان الذى اخترته الى نفسى  
 غاية ما يسىء العدو به ، ويساء المولى منه ، فالجلاء أخو الفتل  
 والغربة أحد السبائين (٥) . . . وقد هجرت الأرض التى هى  
 ظئرى (٦) والدار التى كانت مهدى . . . (٧) » ولعله عاد الى وطنه  
 مستخفيا بإشارة من ولى العهد طمعا فى أن يظفر من أبيه بالعفو  
 عنه ، وكان هذا التصرف من ولى العهد حكيما فان اسلام  
 ابن زيدون الى بنى عباد سيرفع من شأن الشاعر وسيكون خطرا

(١) مشعر : عالم .

(٢) أنى : كيف ، طولك : غناك أو فضلك .

(٣) الدراكل ما أظلل الانسان أو أحسن اليه ، احلولى : حلا ، الجنى : الثمر  
 الغض : الجمام : المياه الغزيرة .

(٤) الشانى : المبغض ، القراع : القتال ، شاك : ظهرت شوكة وحده .

(٥) السبائ : الأسر .

(٦) الظئر : الحاضنة .

(٧) الديوان ص ٧٥١ .

أى خطر على قرطبة إذا لج بنو جهور فى العداء ؛ عاد الشاعر  
الى الزهراء احدى ضواحي قرطبة الجميلة على خوف وحذر ،  
ومن المكان الذى اختفى به وجه رسائله الى أصدقائه القدماء  
والى ابن جهور والى ولى العهد ثم الى حبيبته التى قهره  
هواها الغلاب هاتفا بها :

انى ذكرتكَ بالزهراء مشتاقا  
والأفق طلق ، ووجه الروض قد راقا  
وللنسيم اعتلال فى أصبائه  
كأنمارق لى ؛ فاعتل اشفاقا

ثم يختم قصيدته فى مناجاتها بقوله :  
يا علقى الأخطر الأسنى الحبيب الى  
نفسى اذا ما اقتنى الأحباب اطلاقا  
كان التجازى بمحض الود من زمن  
ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا  
فالآن - أحمد ما كنا لعهدكم -

سلوتم وبقينا نحن عشاقا (١)  
ثم هو يناجى قرطبة فى شوق وحنين :  
أقرطبة الغراء هل فىك مطعم ؟  
وهل كبد حرى لبينك تنقع

---

(١) الديوان ص ١٣٩ ، ١٤٠ - العلق : الغالى : النفيس ، الأخطر الرفيع  
الأسنى الأضواء ، التجازى هنا : تبادل المجاملات الودية ، اطلاقا : فى حرية  
تامة ؛ والبيت الأخير معناه أننا فى الوقت الذى كنا فيه أكثر حمدا لوفائكم  
انصرفتم عن مودتنا وبقينا نحن عشاقا .

وهل للياليك الحميدة مرجع ؟  
 اذ الحسن مرأى فيك واللهم مسمع  
 واذا كنف الدنيا لديك موطئاً (١)  
 معاهد أبكيها لعهد تصرما  
 أغضض من الورد الجنى وأنعمنا  
 لبسنا الصبا فيها حبراً منمنماً  
 وقدنا الى اللذات جيشاً عرمرماً  
 له الأمن ردد والفضارة مرباً (٢)  
 كساهما الربيع الطلق وشى الخمائل  
 وراحت لها مرضى الرياح البلائل  
 وغادى بنوها العيش حلو الشمائل  
 ولا زال منا بالضحي والأصائل  
 سلام على تلك المدائن يقرأ (٣)  
 ثم عاد يبرر فراره من السجن :  
 ظننت وكان الحر يجفى فيظعن  
 وأصبحت أسلوب بالأسى حين أحزن

---

(١) لبينك : لفراقك ؛ الكنف : الناحية او الظل ، وكنف الله : ستره ورحمته ؛ موطئاً : مهد ومهياً .

(٢) الحبر المنمنم : الثوب الناعم الموشى ، ردد : ظهر ومعين ، الفضارة : السعة النعمة والخصب الربأ : مكان المراقبة .

(٣) الوشى : الزخرف والزينة ، الخمائل : الشجر الملتف ، راحت : خفت وطابت الديوان ص ١٣٣ - ١٣٦ .

وفر على اليأس الفؤاد الوطن  
وأن بلادا هنت فيها لأهـون

ومن رام مثلى بالدنية أدنا (١)  
وفي هذه الفترة ردد الشاعر أحلى الأغاريد ورتل أعذب  
الأناشيد ومنها قصيدته النونية الخالدة .

وأخيرا نجحت الشفاعة ولم يكن هناك بد من نجاحها بعد أن  
بذل أصدقاء الشاعر جهودا جبارة ، وبعد أن أبدى الشاعر  
توسلات وضراعات عديدة وكبح جماح لسانه فلم يلجأ إلى الهجوم  
أو الدفاع القاسى العنيف ، والشاعر بعد هذا حر طليق لا سلطان  
للأمير عليه ، وإذا لج الأمير في عناده أسلم الشاعر إلى الحكام  
الآخرين وهم جميعا يتطلعون إلى جذبهم اليهم ، وفي هذا خطر  
أى خطر على الأمير ، ثم إن الأمير لا يستطيع مع هذا كله أن يفضب  
جل ذوى الرأى والمكانة فى قرطبة ومعظمهم يرى الشاعر مظلوما  
ويرى عقابه قاسيا عنيفا .

### عهد جديد

ما كاد الشاعر يخرج من سجنه حتى لقي ابن جهور ربه فى  
مدى عام أو بعض عام . وكان معظم الأمر فى بدايته صديق الشاعر  
أبو الوليد بن جهور وكان قد مد يده إلى الشاعر « وانتشله  
من نكبته وصيره فى صناعته ولما ولى الأمر بعد والده نوه به  
وأسنى خطته » (٢) وهنا تطلع الشاعر لاستعادة مكانه فى قلب  
ولادة ، وهيئات هيئات !! فقد انصرفت عنه إلى غير رجعة  
ويقرر نيكل أنها « صرفت سمعها عن توسلات الشاعر وضراعاته  
ولم يمض وقت طويل حتى تفهقرت من الحياة الأدبية الناشطة

(١) الديوان ص ١٣٦ ، ١٣٧ ظعن : رحل ، الأسى بضم الهمزة : ما يتعزى

به الحزين .

(٢) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .

لتعيش في حريم ابن عبدوس (١) « وكان أولى به أن يقول « على  
صلة بابن عبدوس » ليكون أدق تعبيرا ؛ وإذا كانت ولادة  
قد انصرفت عنه ؛ فانه ظل يتغنى بها طول الحياة ، وكثيرا ما كانت  
عواطفه تخونه فتفلت منه بعض التعبيرات الوجدانية حتى في  
مواقف الرثاء فقد رثى أبا الحزم بن جهور (٢) وواسى الحاكم  
الجديد قائلا فيه ما هو أقرب الى الغزل منه الى المديح ،  
وكثيرا ما تطفو نزعات العقل الباطن الى السطح من حيث يريد  
الشاعر أو لا يريد ، يقول بعد أن وصف النكبة وقدم العزاء  
الى الحاكم الجديد :

أهابت اليه بالقلوب محبة

هي السحر للأهواء ، بل دونها السحر

سرت حيث لا تسرى من الأنفس المنى

ودبت ديبا ليس يحسنه الخمر

فان هذه المحبة الساحرة التي تسرى من النفوس في مجال

لا تبلغه الأماني والأحلام ، ولا تصل اليه نشوات الشراب الصق  
بالغزل الرقيق منها بالرثاء الحزين ، ثم يقول :

لبسنا لديه الأمن تندى ظلاله

وزهرة عيش مثلما أينع الزهر

وعادت لنا عادات دنيا ، كأنها

بها وسن ، أو هز أعطافها سكر (٣)

فما هي الدنيا التي يرنحها الكرى وتهز أعطافها المدام ، والتي

أنست الشاعر أنه في موقف رثاء ؟ ولقد جهد الشاعر بعد اليأس

(١) Hispano Arabic Poetry p. 119

(٢) الديوان ص ٥٢٣ - ٥٣٠ .

(٣) الديوان ص ٥٢٥ .

من حبيبته أن يضمن مشاعره العميقة مقدمات قصائده في المدائح  
ليتجنب خلجات الشك ووساوس الظنون ، وتلمح في هذه  
المقدمات اليأس المرير والصراع العاطفى العميق .

خلى ما لى كلما رمت سلوة  
تعرض شسوق دون ذلك حائل  
أراح اذا راح النسيم شاميا  
كان شمولاً ما تدير الشمائل  
ضلالاً تمادى الحب فى المعشر العدا  
ولج الهوى فى حيث تخشى الغوائل (١)

ثم يرمى حبيبته بالفدر والخيانة فيقول :  
ماذا يريبك من فتى عز الهوى  
فعلنا لعزته بذلة خاضع  
هل غير أن محض الوفاء لغادر  
أو غير أن صدق الوصال لقاطع (٢)  
ثم قنع الشاعر بترديد ذكرياته العذبة فى الماضى وتغنى  
بها حيناً بعد حين :

واها لعطفك ، والزمان كأنما  
صبغت غضارته ببرد صباك  
والليل - مهما طال - قصر طوله  
هاتى - وقد غفل الرقيب - وهاك

---

(١) الديوان ص ٣٩١ أراح : أجد ربح العبر الذكى أو أرتاح ، الشمول :  
الخمر الباردة ، الشمائل : الرياح الشمالية ، لج : ألج ومعنى البيت الأخير  
' أن الحب تمادى ضلالاً وجذبني الى هدو لا الى حبيب واقحمنى فى غوائل  
واخطار .

(٢) الديوان ص ٤٠٠ .

ولطالما اعتل النسيم فخلتبه

شكواى رقت ؛ فاقتضت شكواك (١)

وقد رقاہ أبو الوليد الى مرتبة السفراء وأوسع راتبه (٢)  
فنجح الشاعر نجاحا عظيما وعاد نجمه الى التألّق ولا عجب فقد  
كسب تجارب عديدة الى جانب ذكائه وسعة ثقافته وقوة  
عارضته ووسامة مظهره وجلال منبته ؛ وهى جماع ما يراعى فى  
فى اختيار السفراء فى العصر الحديث ؛ وكان أبو الوليد بن جهور  
قد تهيأ ليهجر مجالس الشراب وينهض بأعباء الملك فى جلال  
ووقار حاذيا حذو أبيه ، وفى أثناء السفارات التى قام بها الشاعر  
اتصل بحاكم مالقة ادريس الثانى الملقب بالعالى وكانت فيه صفات  
تجذبه الى الشاعر وتجذب الشاعر اليه ، فقد كان متادبا حسن  
اللقاء جيد الشعر ؛ وكان رقيقا لطيفا ولكنه كان يفسح مجالسه  
للطبقات الشعبية ولا يحجب نساءه عنهم ، وكل من طلب منه  
حصنا أعطاه آياه (٣) ولعل نفس الشاعر الطموح حدثته بآمال  
عظيمة لدى هذا الحاكم الذى يهب الولايات اذا وهب غيره الألقاب  
والأموال والذى يخطط نفسه بخلصائه ويرفع الكلفة بينه وبينهم  
حتى لا يحجب عنهم اماءه ونساءه ، وهو الى هذا يهتز للشعر  
ويثبت عليه ويجيد صياغته ، فأطال الشاعر مكثه لمديه واقترب  
منه وخف على نفسه وأحضره مجالس أنسه (٤) ويظهر أنه نسي  
المهمة السياسية التى كلف القيام بها ، فلم يرتح ابن جهور لتصرف  
سفيره فان للسفير أن يسلك أيسر السبل للوصول الى أهداف  
حكومته ، ولكن عليه أن يتقيد بأوامرها وأن يلبي مطالبها ، أما أن

(١) الديوان ص ٣٤٥ ، واما : كلمة تعجب ، الفضارة : العمة ،  
البرد : ثوب مخطط ، هالك : خلى والمراد تبادل الكئوس .

(٢) اعتاب الكتاب ص ٧٩ .

(٣) الكامل ج ٧ ص ٢٨٩ والقصود ولاء آياه ومعنى هذا تساهله فى توليه  
الولاية .

(٤) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .

يقيم حيثما شاء وكيفما أراد مستهترا مع المستهترين ، فأمر  
لا تطبيقه حكومة تعرف ما عليها من واجبات ، ثم ان اماره مالفقة  
بربرية وحاكمها ادريس الثانى شيعى يدعى الخلافة ، ولقد قاست  
قرطبة من البربر ما قاست ، ولا تزال مطامعهم تحوم حولها ،  
وهذا الحاكم الشيعى يطمع فى اقامة خلافة علوية تضم الأندلس  
جميعها ؛ فهل يتأثر ابن زيدون بهذه المطامع وينسى دولته ويتآمر  
ضد أميره وصديقه ؟ ولابن زيدون خصوم أقوياء ما زالوا يتحسبون  
الفرصة للقضاء عليه ، ومن الطبيعى أن ينتهز هؤلاء الخصوم  
الفرصة التى أتاحها لهم الشاعر بتصرفه الفريب ، وقد أرسل  
الأمير الى سفيره يعتب عليه ، فلم يستجب للعتاب فاضطر الأمير  
الى عزله من منصبه قبل رجوعه الى قرطبة (١) وللأمير عذره  
ولو كان الأمير السابق حيا لنكل بالشاعر كل تنكيل ، فان أهل  
قرطبة كانوا ينقمون على البربر ما أنزلوه بقرطبة من فتك وتخريب  
وتدمير ، فاذا سالوهم الآن فليدفعوا بهم خطر بنى عباد لأنهم خطر  
على الطرفين ، ونحن نعلم أن والد الشاعر كان من المشايعين  
للبربر مما يحمل على اساءة الظن به فى هذا المقام .

أما ميل الشاعر الى ادريس فيقوم على التجاوب العاطفى  
بينهما ، وعلى أن الشاعر جريح يحاول أن يجد ما ينسيه أو يسليه  
حبه القديم ؛ ولكن كيف عاد الى قرطبة بعد عزله ، ولماذا أثر  
أن يترك مالفقه التى وجد فيها أنسه وأمانيه وعاد ليجابه خصومه  
وأعداءه وما قد يتعرض له من خطر عقاب الأمير ؛ الواقع أن الشاعر  
كان يطمع فى عفو الأمير فضلا عن تعلقه بقرطبة وبهواه القديم ؛ هذا  
الى أن عرش ادريس الثانى بمالفقة كان مهترا ، وكان البربر  
ينقمون عليه تدبيره السيء واقباله على اللذات وتهاونه فى التقاليد  
ولم يلبثوا أن عزلوه عن عرشه وأقاموا مكانه ابن عمه

(١) المصدر والصفحة السابقين .

محمد بن ادريس ، فلم يبد أى مقاومة وبادر بالاستسلام (١). وعاد  
الشاعر الى أميره فقابله بالجفاء والاعراض فتضرع وتوسل اليه  
هاتفا به :

سرور الفتى ما لم يكن منك حسرة  
وأرى المنى مالم ينسل بك صاب  
وان يك فى أهل الزمان مؤمل  
فأنت الشراب العذب وهو سراب (٢)  
ثم راح يذكره بمدائح فيه وأفضال الأمير عليه آملا منه  
ألا يهدم ما بناه ، وألا يضيع ما رعاه .

ولكن الأمير ظل يعرض عنه ، وتآلم الشاعر من هذا الاعراض  
وحز فى نفسه أن يلقى هذه المعاملة بمرأى ومسمع من خصومه  
الأقوياء وأعدائه الألداء ، وقد يحتمل الشاعر العزل فلديه  
من ثرائه ما يكفيه ، ولكنه لا يستطيع احتمال الذل والهوان ، فأخذ  
يلوح بالهجرة عن البلد الذى لقى به الهوان .  
من مبلغ عنى البلاد اذا نبت

أن لست للنفس الألوف بباخع (٣)  
أما الهوان فصنت عنه صفحة  
أغشى بها حد الزمان الشارع (٤)

وأخيرا ضاق الشاعر بقرطبة فهجرها الى غيرها من الامارات  
متصلا بحكام هذه الامارات وكان ينشد من وراء هذا الى أن يجد  
الأمير فرصة يراجع فيها نفسه ويتذكر صديق شبابه وأليف صباه

---

(١) ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) الديوان ص ٣٨٤ الأرى : العسل : الصاب : المر .

(٣) أثبت : تجافت وتباعدت ، باخع نفسه : قاتلها هما وحزنا .

(٤) الشارع : الشاعر سيفه أو رمحه ، الديوان ص ٤٠١ .

فيغفو عن زلته ويعيده الى مناصبه ، واذا لم يتم هذا فان الشاعر يستطيع أن يختار لنفسه المكان المناسب عند الأمير المناسب ؛ وتردد الشاعر على عدة امارات منها امارة بلنسية . وامارة بطليوس ولكنه - كما يقول نيكل - أخطأ الوسط الملائم لمواهبه (١) ولعل الشاعر أخر اتصاله بالمعتضد بن عباد الذي لقي منه كل حفاوة وتنويه لأنه خشي أن يكون الأمير قد وجد عليه لانصرافه عنه أو لعله كان يهاب سطوته وغدره ، ولأن المعتضد كان مشهورا بالحدة والفدر والفتك بأقرب أصدقائه اليه ، وقد ضربنا أمثلة لهذا الفدر الشنيع (٢) ثم عاد الشاعر الى قرطبة ، وقد غفر الأمير له زلته وما كاد يستقر تحت ظلاله حتى قامت ثورة في قرطبة تولى كبرها بنو ذكوان ، ونحن نعلم انهم كانوا وثيقي الصلة بشاعرنا وبأبيه من قبله ، فلفحت هذه الثورة شاعرنا بما لم يكن له في حساب ؛ والحديث عن هذه الثورة لم تتناوله المصادر التي بين أيدينا الا بلمحات خاطفة غامضة أوضحها ما نقله ابن سعيد عن ابن حيان المعاصر لهذه الأحداث وخلاصته أن الأمير عزل ابن المكوي عن القضاء وعهد به الى ابي علي حسن بن ذكوان لأنه كان عفيفا حازما « ذا صرامة وثروة ومرانة بالحكومة وان كان عاريا من العلم عاطلا عن الأدب ضاربا بأوفر حظ في شكاسة الخلق وخشونة الطبع » ولكنه « استقل بالعمل لطول دريته بالحكم على نقصان العلم » كما عين الأمير أخاه أبا حاتم ذكوان بن محمد ابن ذكوان سفيرا ، ولكن أحمد بن محمد بن ذكوان جمع رهطا وسعى في الوثوب على السلطان بقرطبة فانضم اليه عمه القاضي أبو علي حسن بن محمد بن ذكوان « فعزله أبو الوليد بن جهور سنة ٤٤٠ هـ وألزمه منزله الى ان توفي سنة ٤٥١ هـ وشهد

---

(١) Hispano Arabit Poetry p, 119

(٢) راجع ص ٦٨ ، ٦٩ من هذا البحث .

جنازته (١) « ولقد صاغ الشاعر قصيدة مسهبة تبرأ فيها من هذه  
الفتنة ومن القائمين بها يقول فيها :

قل للوزير (٢) الذى تأميلة وزرى  
ان ضيق مضطرب أو هال مطلع  
اصح لهمس عتساب نخته مقة  
تكلف النفس منه فوق ما تسع  
ما للمتأب الذى أحصفت عقده  
قد خامر القلب من تضييعه جزع  
لا تستجز وضع قدرى بعد رفعه

فالله لا يرفع القدر الذى تضع (٣)

ولكن ابن جهور بعد أن خذله أصدقاؤه انصرف عنهم جميعا ،  
وألقى بزمام الحكم الى رجل حازم بعيد عن الشبهات منزّه عن  
الأغراض هو ابراهيم بن يحيى المشهور بابن السقاء وقوض اليه  
الحكم فاستمر يباشره مطلق اليد نحو خمسة عشر عاما (٤) .

وهنا استبد اليأس بالشاعر وأشفق من الإقامة في بلد كثير  
الفتن دائم الثورات تتطلع اليه أعين الأمراء ويتربص كل منهم  
الفرصة لاحتلاله ، وكاد يقع في يد البربر ثم وقع فعلا في يد المأمون  
ابن ذى النون حاكم طليطلة لفترة محدودة حتى انتزعه منه  
بنو عباد .

تطلع الشاعر الى بلنسية ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يزاحم فيها  
أربعة من كبار الأدباء تمكنوا من نفس الأمير واستولوا على مشاعره ،

(١) المقرب ج ١ ورقة ١٢٣ .

(٢) الديوان ص ٢٩٦ - ٣٠٤ كثيرا ما كان أمراء الطوائف يلقبون بلقب الوزير  
أو الحاجب وأحيانا الخليفة .

(٣) المقة : الحب - أحصف : أحكم - الديوان ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٤) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٣٢ .

والشاعر لا يقنع بغير الصدارة في أبي منان ، هؤلاء الأدباء الأربعة هم ابن طالوت وابن عباس وابن عبد العزيز وابن التاكرنى وقد اشتهر بهم بلاط بنى عبد العزيز حتى سماهم الناس بالطبائع الأربع (١) - ثم تطلع الى المظفر صاحب بطليوس وكان قد وجه اليه رسالة رائعة ومدحه بقصيدتين رقيقتين ولقى منه حفاوة واقبالا ، ولكن المظفر كان يضع ثقته المطلقة في وزيره وكاتبه أبى عثمان سعيد ابن خيرة (٢) ، واستعرض الشاعر غيرهما من الأمراء ، وفي كل مرة يعود به تفكيره الى المعتضد بن عباد لأن ميوله تتفق وميول الشاعر ولأنه شاعر أديب ، ومطامحه واسعة وأمارته قوية تتسع شيئا فشيئا وتبتلع ما حولها من أمارات ، وقد جربه الشاعر فحمد التجربة واتصل به فسرر الاتصال ، وللشاعر أصدقاء عديدون هاجروا من قرطبة الى اشبيلية وطاب لهم العيش في ظل بنى عباد . ولعل الشاعر كان يتوقع سقوط قرطبة في يد المعتضد بعد زمن يسير فهي دانية القطوف سهلة التناول على بنى عباد لولا كثرة المتنافسين عليها من الأمراء . أما غدر الأمير بوزرائه والمقربين اليه فإن الشاعر قد عرف المعتضد وخبر طباعه ، فمن السهل عليه أن يتجاوب معه ، وبخاصة بعد التجارب العديدة التي اكتسبها والأحداث العاصفة التي خاض غمارها ، وبعد أن اتصل بحكام عديدين فعرف ما يرضيهم وما يفضيهم من التصرفات .

واقتنع الشاعر بهذا فاتجه الى صديقه القديم أبى عامر ابن مسلمة الذي فر من قرطبة وأوى الى ظل المعتضد ابن عباد ينبئه بما تقتضيه العظلة من اظلام الخاطر وصدأ النفس ويسأله أن يتوسط عند المعتضد (٣) ولم تكن رغبة المعتضد في ابن زيدون تقل عن رغبة ابن زيدون فيه ، لما يتصف به الشاعر من ظرف

(١) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٢) البخيرة القسم الثانى ص ٣٩٥ .

(٣) الديوان ص ٧٦٣ - ٧٦٨ .

ولباقة وذكاء وشاعرية فذة وأدب بارع فضلا عن تجاربه العديدة  
في شئون الوزارة والادارة والسفارة ، ولمعرفته الدقيقة بأحوال  
قرطبة التى يتطلع الأمير الى التهامها فى كل حين .

وقام أبو عامر بن مسلمة بما عهد اليه الشاعر به خير قيام  
ونجحت الوساطة وتبادل الشاعر والأمير الرسائل (١) وأفاض  
الشاعر من مدائح على الأمير ما أفاض ، ورحل الشاعر الى  
اشبيلية ليقضى فيها الشطر الثانى من حياته فى ظل بنى عباد  
فغمره المعتضد بحفاوته واحسانه ، وأنزله صديقه أبو عامر بمنزله  
والتف حوله أعلام اشبيلية من الشعراء والكتاب والعلماء . وبعد  
أن اطمأن لمقامه الجديد استأذن الأمير فى العودة الى قرطبة ليدبر  
شئونه ويرتب أموره بها قبل الرحيل النهائى عنها فأذن له ،  
ومن قرطبة وجه الى الأمير رسالة شكر وثناء (٢) وأعلن عزمه على  
الدخول فى طاعته المقترنة بطاعة الله ، فتوالت عليه هدايا الأمير ،  
وردد الشاعر شكره على هذا الانعام :

وواصلنى جميلك فى مفيبى

وطالعنى نذاك مع انتزاحى (٣)

ولم أنفك أذ عدت العوادي

اليك رهين شوق والتياخ (٤)

وانتقل الشاعر من حياة الى حياة ، ومن بلاط الى بلاط ،

ومن حياة عاصفة الى حياة متسمة بالهدوء والقرار .

(١) الديوان ص ٧٦٩ ، ٧٧٣ .

(٢) الديوان ٧٧٣ .

(٣) الديوان ٤٣٣ - ٤٣٨ .

(٤) انتزاحى : بعدى ، الالتياخ : الظما - الديوان ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

## الفصل الخامس سياسة حكيمّة

### لقباء كريم

كان المعتضد حريصا على ضم ابن زيدون اليه ، فما كاد  
يقد اليه حتى غمره بحفاوته وبره « وجعله من خواصه يجالسه  
في خلواته ويركن الى اشاراته في صورة وزير (١) » وقابل الشاعر  
هذه الحفاوة بالمبالغة في الشكر والاغراق في الثناء ويرجح أنه  
صاغ في هذه الفترة قصيدته المسهبة التي جاوزت الثمانين  
بيتا ، ومطلعها :

للحب - في تلك القباب - مراد

لو ساءف الكلف المشوق مراد (٢)

وضع لها مقدمة غزلية تقليدية في خمسة وعشرين بيتا ؛  
ومن الطبيعي أن يتيقظ هواه في هذه المقدمة على الرغم من حرصه  
على طبعها بالطابع التقليدي ، فهو يعجب لتجلده ويقطع بأن  
الأمد بينه وبين حبيبته فسيح يحتاج الى جهاد طويل وبخاصة  
بعد أن أجاد حبك الشباك لصيدها فأفلتت منه ؛ وهو لا يطمع  
منها الآن الا في صلة الخيال :

---

(١) الواقي بالوفيات المجلد الأول ص ٢٧١ .

(٢) المراد بفتح الميم : موضع الارتداد وهو طلب الشيء المرغوب فيه ،

الكلف : المحب ، مراد : أمل - الديوان ص ٤٤٧ - ٤٦٧ .

كم ذا التجلد ؟ لن يساعفك الهوى  
 بالوصل الا أن يطول جلاد  
 أعقيلة السرب المباح لوردها  
 صفو الهوى ، اذ حلّى الوراد (١)  
 ما للمصايد لم تنلك بحيلة ؟  
 ان الظباء لتدرى فتصاد (٢)  
 لا تقطعى صلة الخيال تجنباً  
 اذ فيه من عوز الوصال سداد (٣)  
 ثم يعتذر الى حبيبته كما يعتذر الى أصدقائه بأنه هجرهم  
 في خوف وضيق ليتمكن من العودة اليهم في عزة وأمن واستعلاء ،  
 ولعل في هذا اشعاراً بما كان يطمح اليه من معونة بنى عباد  
 في الاستيلاء على قرطبة وتوحيد شمل الولايتين ؛ وقد تحقق  
 هذا الأمل ولكن بعد عشرين عاماً ، وهو يحب أن يطمئنهم  
 الى أنه لم يسترح الى بعدهم عنه .  
 من مبلغ عنى الأجابة ، اذ أبت  
 ذكرهم أن يطمئن مهــساد  
 لا بأس ، رب دنو دار جامع  
 للشمل ، قد أدى اليه بعاد  
 ثم تخلص الى المديح تخلصاً بارعاً فقال :  
 ان اغترب فمواقع الكرم الذى  
 فى الغرب شمت بروقه ارتاد  
 أو انا عن صيد الملوك بجانبى  
 فهم العبيد ملكهم عباد

---

(١) العقيلة : كريمة الحمى ؛ السرب : جماعة النساء ، حلّى الوراد : طردوا  
 فى عنف ، والمعنى ما أعذب وردك أيتها العقيلة لولا عنف القائمين على حراسته .  
 (٢) أدري الصيد وتداره : أوقعه فى حبالته .  
 (٣) العوز : الحاجة والضيق ، سداد من عوز : ما تسد به الحاجة .

والشاعر هنا يبالغ فيجعل الملوك جميعا عبيدا للمعتضد ولكنه يريد أن يلبس مبالفته ثوب المنطق ويريد في الوقت نفسه أن يرضى المعتضد بآثبات نسبة القديم في المناذرة ملوك اللخمييين (١) - وأن كان بعض المؤرخين يشك في هذه النسبة - والشاعر هنا يؤكد هذه النسبة . ويستعرض تاريخ هذه الأسرة ليثبت أن الأمير عريق في الملك سواء في الجاهلية أو الاسلام وانطلق الشاعر في هوايته التاريخية فاستعرض أسماء أشهر ملوك المناذرة وأمجادهم ، ثم وصف حفدتهم من بنى عباد وقرر أنهم زينوا أمجادهم التاييدة بأمجادهم الطريفة ، ووصلوا حاضرهم العظيم بماضيهم الكريم .

بيت تود الشهب في افلاكها

لو أنهـا لبنائـه أوتاد

متقادم ؛ الا تكن شمس الضحى

لدة له ، فنجومها أرآد (٢)

ثم التفت الى مدح الأمير فجعله واسطة عقد هذا البيت الكريم :

نيطت بعباد لآلىء مجدهم

فتالآت في تومها الأفراد (٣)

أرج الحديث متى تفز بجواره

يطب الحديث ويعبق الترداد

لو أن خاطره الجميع مفرق

في الخلق أوشك أن يحس جماد

(١) ملوك الحيرة قبل الاسلام واشتهر منهم المنذر بن ماء السماء والنعيمان بن المنذر .

(٢) اللدة : الرميل والنظير ، أرآد جمع راد وهو وقت ارتفاع الشمس في الضحى ، والمعنى هذا البيت قديم المجد ان لم يعادل الشمس فهو معادل للنجوم .

(٣) نيطت : علقت ، التوم : الآلىء المزدوجة .

وبعد أن وصف الأمير بالشجاعة الخارقة والعزم المكين ؛ وصف  
جماله الرائع الذى تحوطه المهابة والجلالة « والأمير كان مشهورا  
بالوسامة والهيبة حقا » :

نفسى فداؤك أيها الملك الذى  
زهر النجوم لوجهه حساد  
تبدو عليك من الوسامة حلة

يهفو اليهسا بالنفوس وداد (١)  
لم تشف منك العين أول نظرة  
لولا المهابة راجعت تزداد

ثم ذكر ما لقيه من حفاوة وتكريم فى هذا الجنب الكريم  
ثم شفع قصيدته السابقة بقصائد أخرى أطلق نفسه فيها على  
سجيتها وأهدى الى المعتضد وتقبل هداياه وحضر معه مجالس  
شرابه ووصف هذه المجالس فى عبارات رقيقة ، وساجل الأمير  
ما كان يصوغه من الشعر العذب فى وصف هذه المجالس .

أهدى اليه المعتضد هدية من الراح والفاكهة وبعث معها  
بأبيات أجاب عنها الشاعر بقصيدة يقول فيها (٢) .

أمولاي بلغت أقصى الأمل  
وسوغت دأبا نساء الأجل (٣)  
وعمرت ماشئت فى دولة  
تقصر عنها طوال السدول

ثم يقول :

---

(١) يهفو : يسرع ؛ المعنى لم تقنع العين بالنظرة الاولى اليك ولولا هيبتك  
وجلالك لمادت النظر اليك مرارا .

(٢) الديوان ص ٢٢٢ .

(٣) نساء الأجل : امتداد العمر .

لشرف مملوكك المســــــــــــــتر

ق نظم من الكلم المنتخل (١)

وراح تعيــــــــــــــد الى من أسن

طيب زمان الصبا المقتبل (٢)

ودعاه الأمير الى حمام قصره وبعث اليه بطيب وبخور فكتب اليه  
شاكرا من أبيات (٣) :

رضاك لنا - قبل الطهور - مطهر

وقربك - من دون البخور - معطر

فلو عز حمام لأدقانا ذرا

يفيض به ماء الندى المتفجر (٤)

ولو لم يكن طيب لأغنت حفاوة

تمسك منها حالنا وتعنبر

وأباح له المعتضد النزهة مع بعض نسائه في إحدى حدائقه

الخاصة . وبها حمام رخامي مفعم بالماء الحار والى جانبه تمثال

مصقول لفادة هيفاء ، فوجه اليه الشاعر قصيدة عصماء وصف

فيها الحديقة والحمام وأبدع في وصف التمثال ثم خلص الى مدح

الأمير (٥)؛ إقائلا :

ملك زاد عن حمى الدين منسه

من اليه في نصره التفويض (٦)

ان أســــــــــــاء الزمان أحسن دأبا

مثلمــــــــــــا باين النقيض النقيض

---

(١) المنتخل : الفضل المختار .

(٢) الراح : الخمر ، ويصفها بأنها تعيد الشباب الى الكهل المسن .

(٣) الديوان ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤) الدرا : الظل أو الكنف والستر ، تقول : أنا في ذرى فلان أى في حمايته

ورعايته .

(٥) الديوان ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(٦) زاد : دافع ، التفويض التسليم المعنى : فوض الله الى الامر نصره

الدين فدافع عن حماه .

ومن هنا تعلم منزلة الشاعر عند الأمير ، ولكننا نتساءل ما هي المناصب الرسمية التي شغلها في بلاطه وأطلق لسانه عليها بالشكر الجزيل ؟ يجيبنا عن هذا التساؤل ابن حيان بقوله « واجتذبه المعتضد عباد بن محمد فهاجر عن وطنه اليه ، ونزل في كنفه ، وصار من خواصه في مجالسه وفي خلواته ؛ وسفر له في مهم رسائله لفضل ما أوتيته من اللسان والعارضة ؛ ثم كتب له بعد أبي محمد بن عبد البر (١) » ووصف ابن خاقان منزلة الشاعر في بلاط الدولة العبادية بقوله : « فهشت له الدولة ، وتاهت به الجملة ، فأحمد اليها فراره وأرهفت النكة غراره » (٢) ونحن نستطيع أن نبسط هذه الاشارات الموجزة ونعين ما وليه الشاعر من مناصب خطيرة :

١ - اتخذ المعتضد ناصحا في مرتبة وزير ، ولقد جرب مشورته فحمدها وكان الشاعر يتطلع الى هذا المنصب أولا ؛ حيث كتب الى صديقه أبي عامر بن مسلمة عندما التمس وساطته الى المعتضد قبل وفوده عليه فقال عن المعتضد « انه لن يقوم في نجابة غرس اليد واصابة طريق المصنع من ولاية اخلصها ونصيحة أمحضها ، وشكر أجنيه الغض من زهراته » (٣) ورجا هذا في أول قصيدة مدح بها المعتضد بعد أن أدى اليه :

وليستفيدن السناء مع الغنى

عبد يفيد النصيح حين يفاد (٤)

وفرح الشاعر بمنصب الوزير المشير حين أسند اليه فقال :

وعاضد الدين الذي

قد كان قبل يضطهد

(١) اعتاب الكتاب ص ٧١ .

(٢) الفرار : الحد قلائد العقبان ص ٧١ .

(٣) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٠ .

(٤) السناء : الرفعة - الديوان ص ٤٦٦ .

## شـاورنى فى أمره

شـيخان ، لو شاء استند (١)

٢ - رفعه الى مرتبة ذى الوزارتين وهى مرتبة يستطيع الوزير فيها أن يشير وأن يباشر سلطة التنفيذ ، وإلى هذا أشار ابن نباته فقال « فتلقاه المعتضد بالقبول والاكرام ، وولاه وزارته » ، وفوض إليه أمر مملكته (٢) وذكر كور فى بحثه عن الشاعر بدائرة المعارف الإسلامية أنه « كان كاتم سر المعتضد وكبير وزرائه (٣) » وقد سـماه سـاحـب المعجب باسم « ذى الرياستين » (٤) وسماه الذهبى باسم « الصاحب » (٥) متأثراً فى هذا باللقاب المشاركة ، والصاحب عندهم يطلق على رئيس الوزراء المتصرف فى شئون الدولة كالصاحب بن عباد ؛ ويذكر فيليب حتى ؛ أن المعتضد ولاه رياسة الوزارة وامارة الجيش (٦) « أما رياسة الوزارة فأمر معقول ، وأما رياسة الجيش فاننا لا نعلم من أين استقاها المؤرخ وليس بين أيدينا من المصادر ما يدل عليها ، وما نعلم أن الشاعر باشر الحروب أو قاد الجيوش ونعلم أن قيادة الجيش كانت لأبناء المعتضد .

٣ - استغل المعتضد مهارة الشاعر فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين « لفضل ما أوتيته من اللسن والعارضة (٧) » وقد استفاد الشاعر من تجاربه السابقة ما أعانه على النجاح وجنبه الأخطاء .

---

(١) من قصيدة وجهها الى المعتمد فى حياة ابن المعتضد ، عاضد الدين ناصره الشـيخان الغيور والحازم ، الديوان ٦٠١ ، ٦٠٢ .

(٢) شرح العيون ص ٤ .

(٣) V.2 p. 457

(٤) المعجب ص ١٠٥ .

(٥) سير النبلاء ج ١١ سفر ٢ ص ٢٠١ .

(٦) تاريخ العرب ( مطول ) ج ٣ ص ٦٦٤ .

(٧) ائتاب الكتاب ص ٧٩ .

٤ - رفعه المعتضد مع هذا الى منزلة أمير الشعراء في بلاطه الفاص بالشعراء المتنافسين على هذا المنصب ، ولهذا وصفه ابن تغرى والذهبي بأنه « حامل لواء الشعر في عصره (١) » ووصفه ابن الصيرفي بأنه « وزير آل عباد وشاعر تلك الطبقة والمتقدم فيهم (٢) » وكثيرا ما كان يسمى بشاعر مصر .

٥ - غضب المعتضد على كاتبه أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد البر وكاد يفتك به ، وفكر في اسناد هذا المنصب الى الكاتب الشهير أبي محمد الباجي ، وكان شاعرنا يتطلع أن يضم الى مناصبه العديدة هذا المنصب الخطير حتى ظن بعض معاصريه أن له يدا في عزل ابن عبد البر - وقد نجح الشاعر فيما أراد بمعونة صديقه أبي محمد بن الجدد (٣) - وهذا المنصب يتيح لصاحبه أن يتحدث باسم الدولة وأن يكتب عنها المكاتبات الرسمية وهو يشبه الى حد كبير منصب رئيس الديوان الملكي الآن . وهنا جمع الشاعر في قبضة يديه أهم مناصب الدولة ونال أسمى ما كان يتطلع الى بلوغه من الرتب والألقاب ، والى هذا يشير ابن دحية بقوله ان المعتضد « ألقى مقاليد وزرائه اليه ، وأفاض الخلع السوابغ عليه (٤) » ولقد صاحب التوفيق شاعرنا في جميع ما اضطلع به من أعباء فتوالت فتوحات المعتضد الحربية والسياسية واتسعت رقعة دولته ، ويقول ابن خاقان في حديثه عن المعتضد ان ابن زيدون « أظهر صولته ، ودبر دولته ، وأدحى ضحاها وأدار بالمكارة رحاها (٥) » ولكن هل مرت حياة الشاعر

---

(١) المختار من شعر شعراء الاندلس الورقة ١٠ .

(٢) اللخيرة ق ٢ ص ١٠١ .

(٣) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ .

(٤) المطرب لوحة ١٢٨ .

(٥) فلائد العقبان ص ١٤ ، دحى : الشيء مطه ووسعه ، ولم ترد ادحى

في معاجم اللغة ، ولعله أدجى بمعنى اظلم أفقها على الأعداء .

هنيئة مع المعتضد المشهور بالقسوة والفدر والفتك بأقرب الناس إليه ؛ ان طبيعة الحياة تأبى أن يطوى الانسان عشرين عاما في مثل هذا البلاط الحافل بالدسائس والمؤامرات والفدر دون أن يلحقه منها رشاش ، ان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا الا بعض اشارات عارضة في بعض المصادر التاريخية ، وفي شعر الشاعر ؛ تشير الى ما قاساه الشاعر من مشقة وأعنات استطاع بلباقته وحسن تأتية وذكائه وتجاربه السابقة أن يسلم بجلده منها وسنشير اليها فيما يلي بايجاز .

### سحابات عارضة

قضى الشاعر في ظل المعتضد عشرين عاما تعرض فيها لمتاعب عديدة أشار اليها كور بقوله « لم تكن حياة ابن زيدون باشبيلية هادئة كل الهدوء الذي يشير اليه ابن خاقان ولا خالية من المتاعب كما توحى قصائد الديوان (١) » ولكن كور لم يذكر لنا المتاعب التي عاناها الشاعر في هذا البلاط ، ولم يذكر المصدر الذي رجع اليه فيما رواه ، ولعله اكتفى بالاستنتاج أو بما أشار اليه ابن خاقان من كثرة أعداء الشاعر ومنافسيه في مناصبه وفي مكانته عند الأمير ، وأنهم كانوا يعتقدون أن الشاعر وراء الأمير فيما يقوم به من بطش وغدر وانتقام وهذه هي عبارة ابن خاقان عن ابن زيدون : « أظهر صولته (٢) ودبر دولته ... وأغراه بأعدائه (٣) وزين له الايقاع بهم ، ففدا شجبا في صدورهم ونكدا في سرورهم (٤) » ومن الطبيعي أن يكيد هؤلاء جميعا لابن زيدون ، ولكن الشاعر تحاشى جهده أن يصطدم بهم ، وجهد أن يفعل كل ما يرضى الأمير ،

(١) Ibn Zaidoun P. 116

(٢) صولة الأمير .

(٣) أعداء الشاعر .

(٤) قلائد العقبان ص ١٤ .

وتجنب أن يرتكب ما يفضبه أو يجافي هواه وسنضرب أمثلة لبعض  
المواقف القاسية التي تعرض لها الشاعر من منافسيه ومن الأمير :  
كانت نفس المعتضد تثور بنزعات شريرة فاذا احتدمت فيه  
هذه النزعات فتك ببعض خاصته ، واذا تطاحت هذه النزعات  
اكتفى بالايقاع بين ندمانه وسماره ليتسلى باثارتهم ومشاهدة  
الصراع بينهم ، وكلما هدأت حدة الصراع زادها اشعالا (١) ،  
ولقد أصاب ابن زيدون من هذه النوازع لفحات لولا كياسته  
وحكمته لقادته الى الهلاك - كان في بلاط المعتضد شاعر كبير اسمه  
أبو الحسن على بن غالب بن حصن ينسب الى القليل الباقي بين يدينا  
من شعره على أنه شاعر موهوب يجيد صياغة الشعر في قوة  
وسلاسة ولا يكاد يتخلف عن ابن زيدون الا في الغزل المنبعث عن  
عاطفة جياشة وهو مشبوب ، وقد دهش ابن بسام من تجاهل  
بعض الأدباء له فقال : « واني لأعجب من قوم من أهل أفقنا لم  
يعرفوه ولم ينصفوه فأضربوا عن ذكره ، وزهدوا في اعلاق شعره  
ولعلمهم حاسبوه بخزعبلات كان يعبث بها بين مجونه وسكره ،  
وهيهات !! فضله أشهر واحسانه أكثر (٢) » وقد أورد ابن بسام  
طائفة صالحة من شعره تؤيد رأيه كل التأييد ولم يكن شاعرا  
فحسب ، ولكنه كان كاتباً نابغاً أعجب المعتضد بكتابته فجعله  
كاتباً له ووزيراً (٣) .

فلما وفد ابن زيدون على المعتضد وارتفعت مكانته عنده وجد  
فيه ابن حصن منافس خطيرا وأحس بالموجدة عليه وشعر المعتضد  
بهذا فانتهازها فرصة للايقاع بينهما اشباعاً لأهوائه ونوازعه  
الشريرة ، فأشعل نيران الحفيظة بين الشاعرين وأثار كوامن  
الحقد في نفسيهما ووقف يرقب الصراع بينهما بعين قريرة راضية

(١) راجع ص ٦٨ - ٧٠ من هذا البحث .

(٢) اللخيرة ق ٢ ص ٩٢ .

(٣) المقرب ج ١ ورقة ٣٠٣ ورايات المبرزين ص ٨ .

تتلذذ بمنظر الشجناء واراقة الدماء ؛ ولكن الأحداث التي مرت  
بابن زيدون أكسبته خبرة ودراية بطبائع النفوس فأثر السلامة  
ولاذ بالصبر والأناة ودافع خصمه بلين ورفق واحتمله ما وسعه  
الاحتمال ، أما ابن حصن فاندفع في طيش وخفة ونزق يستثير  
الشاعر ويهجوه معتمدا على بديهة متحفزة تساعد على ارتجال  
الشعر ؛ وكان ابن زيدون في هذه الفترة يتجنب الارتجال - إلا في  
حالات اللهو - لأنه لا يجب أن يؤثر عنه إلا الجيد المتقن ، ولعله  
كان يشفق أن يندفع مع عواطفه فتند عنه عبارات لا ينسيفها  
المعتضد ولا المقربون منه ، ولم يكن هذا الحرص ناشئا عن وعى  
فنحن نعلم عن ابن زيدون قوة العارضة واللسن كما شهد له  
بذلك معاصروه وفي مقدمتهم ابن حيان (١) ، وله مواقف عديدة  
تشهد له بسرعة البديهة سنعرض لها في الفصل التالي  
ان شاء الله .

أمعن ابن حصن في تحدى ابن زيدون والتشهير به والسخرية  
منه بمناسبة أو غير مناسبة ، فاقدم مدح المعتضد بقصيدة  
مسهبة جزلة (٢) ولكنه لم ينس في هذا المقام أن يغمز ابن زيدون  
« شاعر مصر » فقال في وصف قصيدته :

فدونك عذراء المعاني ابتدعتها

تساعدني عفوا ولم تتعذر  
إذا ما الرواة استنشدتها تبرقت  
لها أوجه من حشمة وتفير  
وينكل عنها شاعر مصر كله  
ألا فاضحكن من شاعر مصر وافخر

ولم يكتف بهذا اللمز فأمعن في تحدى ابن زيدون طالبا الى  
الأمير أن يحكم بين شعريهما ، ويقدم منهما من يستحق التقديم

(١) الدخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق ق ٢ ص ١٠١ .

مدعيًا أن ابن زيدون يعتمد في ترويح شعره على جودة الإلقاء وحسن الانشاد ، ويرميه بأنه يكرر في معانيه دلالة على فقره الفني .

ودونك فاحكم بين شعري وشعره  
بذهن ذكي ، ثم قدم وأخسر  
ولست بكاسيها مدى الدهر حلة  
بنغمة انشاد ، ولا بمكرر  
وما أنت ممن يحمي السيف عنده  
لجودة صقل ، وهو غير مذكر (١)

ومن الطبيعي أن ابن زيدون لم يقف من هذه المنافسة مكتوف اليدين ولكنه لجأ إلى الحيلة والأناة وانتهاز الفرص السانحة حتى تسنى له التخلص من خصمه العنيد ؛ ويحدثنا ابن سعيد « أن ابن زيدون لم يزل يسعى في حتف ابن حصن بمكره حتى فتك به المعتضد (٢) » وقد سجل ابن بسام الصفحة الأخيرة من هذا الصراع بقوله : « وهو يظن (٣) أنه سيجري بالخلاء (٤) ويستولى على حمل اللواء ، فانتحاه من ابن حصن شيطان مريد ، وطلع عليه منه رقيب عتيد وطفق ينازعه الراية ويسابقه إلى الغاية وإن كان أبو الوليد ربما غمره بمكانه وتمكنه من ساطاته ؛ وكان المعتضد لشذوذ مناحيه ، وفضل عريضة كانت فيه ، ربما أغرى بينهما إذا اجتمعا في مجلسه ، فيتمكن لابن حصن التقديم عليه بسعة ذرعه ورضاه بالعفو من طبعه ؛ وكان ابن زيدون قد جرى من الكلام إلى غاية لا يتعدها ، ولا يرضى من نفسه إلا بلوغ أقصاها ولا يمكنه ذلك منها إلا في مهلة طويلة

(١) المصدر السابق ق ٢ ص ١٠١

(٢) المغرب ج ١ ورقة ٣٠٢ .

(٣) يقصد ابن زيدون .

(٤) ينطلق دون عقبات .

وعلى كلفة ثقيلة ؛ فربما كبا جواده وتأخر مراده ، ولم يزل أبو الوليد يطرق ويحلم ، ويسدى في أمره ويلحم (١) وابن حصن يفتر ويقدم ، ففاز ابن زيدون بحلمه وتوقره وهوى نجم ابن حصن بين اغتراره وتهوره فزلت قدمه وطاح دمه (٢) . وهناك خصومة ثانية عنيفة قامت بين الشاعر وبين الكاتب المشهور أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ، وكان قد نال شهرة ذائعة في تحجير الرسائل جعلت أمراء الأندلس يحرصون على الظفر به « فتهادته الآفاق وامتدت اليه الأعناق ، ففاز به قدح عباد بعد طول خصام ، والتفاف زحام ، فأصاح أبو محمد لمقاله (٣) وتورط في حباله ، وغص أبو الوليد بن زيدون بمقدمه فجهر كل جهر ( زعموا ) في اراقة دمه » (٤) .

ونحن لا نعرف أحداث هذه الخصومة ولكننا نعلم أن ابن زيدون كان يتطلع الى منصب الكتابة للمعتضد بعد أن أزاح من طريقه ابن حصن ؛ ونعلم أن المعتضد كان حريصا على أن يجذب الى بلاطه فحول الشعراء ونوابغ الكتاب وأنه جذب اليه ابن عبد البر بعد أن طبقت شهرته الآفاق وتنافس الملوك في جذبهم اليهم ؛ ولعل ابن زيدون رأى في مقدمه غضا من مكانته الأدبية فضاق بمكانه وربما كاد له عند المعتضد ؛ ولقد كاد المعتضد يفتك بابن عبد البر جريا على عادته مع خلصائه لولا أن والده عالم الأندلس الكبير يوسف ابن عبد البر (٥) أنقذه من مخالاب المعتضد

(١) ينسج له الشباك ، يسدى يحكم الخيوط العرضية ، يلحم : يحكم الخيوط الطولية .

(٢) الدخيرة ق ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) مقال المعتضد بن عباد ، أى انجذب الكاتب لوعوده .

(٤) اعتاب الكتاب ص ٨٣ .

(٥) هو العلامة الكبير أبو عمر يوسف بن عبد البر ( ٣٨٦ - ٤٦٣ هـ -

٩٧٨ - ١٠٧٠ م ) صاحب المؤلفات العلمية العديدة وقد بقيت لدينا طائفة صالحة منها .

بعد جهد كبير ؛ ويرجح ابن الأبار أن من أسباب غضب المعتضد على ابن عبد البر رسالته الأخيرة التي كتبها في تبرير فتك المعتضد بابنه وولى عهده اسماعيل ، وذكر أنه كتب هذه الرواية دون روية (١) وقد راجعنا هذه الرسالة فوجدنا ابن عبد البر كتبها على لسان المعتضد تلبية لطلبه ليبرر بها فعلته ، وليس فيها مأخذ عليه (٢) ؛ ولكن المعتضد كان في هذه مضطرب الأعصاب مختل التفكير عقب فتكه بابنه ، وأن الغضب استبد به وهاج قرمه الى الدماء فأخذ يفتك بالكثيرين من حاشيته حتى بخدمه ونساء قصره (٣) ويرجح أوغست كور أن ابن زيدون « كان على علم بتطورات هذا الموقف وان له دورا سياسيا لا شك فيه (٤) » ولكنه لم يذكر مصدرا لهذا الترجيح ، وسبب فتك المعتضد بابنه أنه جهزه لفتح قرطبة فشق عصا الطاعة على أبيه وتكل عما عهد اليه به وتآمر على أبيه فذبحه بيده .

هذان موقفان يصوران ما قاساه الشاعر في هذه الفترة وأن حياته لم تكن خالية من الأخطار ، وقد صور الشاعر حياته في هذا البلاط بأنها جنة محفوفة بالمكاره :

من لى بشكر نعمة  
الحر فيهننا معتبد  
سوغت منها العزة الـ  
قعساء في العيش الرغد  
حيث أضف منها لـ  
صفا الى ظل برد

(١) اعتاب الكتاب ص ٨٣ .

(٢) راجع الرسالة بتمامها هند دوزي في كتابه Historia Aladidaraml.253-256

(٣) ملوك الطوائف ص ١٤١ - ١٤٧ والبيان المقرب ج ٣ ص ٢٤٤ .

Hispano Aralir Poetry P.119

(٤)

## كأنهنا لى جنسة

حفت بمكروه الحســد (١)

والواقع — كما يقول نيكل — « أن رجلا خالص النصح واسع الثقافة بارز المكانة كابن زيدون كان جديرا بما ناله من منزلة مرموقة ، ولكن مواهبه ومنزلته جلبت عليه عداوة الكثيرين (٢) » ولقد بقيت لدينا بضعة أبيات من قصيدة ضاع معظمها ، وهى تنطق بعتاب مر وجهه الشاعر الى الأمير يوحى بأن الأمير نفاه أو وجهه الى مكان مقفر فى صحراء جرداء فترة من الزمان ، ولم يبق من القصيدة غير أبيات أربعة جاءت فى نسخ الديوان المخطوطة ولا نعرف المناسبة التى قيلت فيها القصيدة ولكنها توحى أن المعتضد أراد إبعاده أو أبعدته عن أشبيلية الى مكان مقفر فى صحراء جرداء فتوسل اليه ألا وجود به على هذه المفازة ، فالجود بالأموال غير الجود بالرجال ؛ وذكره أنه جدير منه بالصون ، وأنه ما كان يخطر له ببال أن يفد السير فى هذه الصحراء .

ويظهر أن الشاعر لقي من أميره استجابة طيبة فانه ظل يعيش فى كنف الأمير حتى انتهت حياة الأمير — ومن الانصاف أن نذكر أن الشاعر — كما لقي عداة كثيرين — ظفر بصداقات كثيرين من الاخوان الأوفياء المخلصين كالمعتد ولى العهد ، وكابن خلدون (٣) وابن القصيرة ، بل كانت صلاته بالمعتضد نفسه أقرب الى صلات الاخوة والمحبة ورفع الكلفة منها الى الصلات الرسمية ، ولهذا يتميز شعره فيه بظاهرتين مقابلتين أولاهما الصفة القائمة على المناصب والتقاليد الرسمية وشعره فيها رصين تقليدى ، والصفة القائمة على الأخوة والمودة الدائرة حول مجالس اللهو والشراب والاهداء والاستهداء وشعرها سهل رقيق يتسم بالارتجال

(١) الديوان ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

(٢) Ibn Zeidoun P 119-120

(٣) لعله جد المؤرخ المشهور .

والظرف والبعد عن التكلف وتجنب المبالغات مثل قوله مع هدية  
تفاح أرسلها الى المعتضد :

يا من تزينت الرياسة

حين البس ثوبها  
وله يد يئس الفمها

م من أن يعارض صوبها (١)  
جاءتك جامدة المدا

م فخذ عليها ذوبها (٢)  
ويقول في استهداء المعتضد خمرًا :

يا بانيس كل مجدد

وهيادما كل وجد (٣)  
جسم السرور سوي

من صوغ نعماك عندي  
فهب له روح راح

ينطق بأحفل حمدا (٤)

ومن الغريب أن الشاعر لم ينس في حياته الجديدة هواه  
القديم ، وإلى هذا يشير ابن خاقان بقوله « ولما حل من المعتضد  
بالمكان الذي حل ، وانتكت عقد شدائده وانحل ، تسلت نفسه من  
شجونها ، وحننت الى صفا ولادة وحجونها ، وتذكرها وما تناساها  
وعاودته لوعته وأساها ، وحن اليها حنين من حيل بينه وبين  
ما يشتهى ، وقنع باهداء تحية تبلغ اليها وتنتهى ، فقال يتغزل  
ويمدح المعتضد . . . (٥) » ثم سرد قصيدته الفائية الطويلة في مدح  
المعتضد ومقدمتها الفزلية التي تشيع فيها العاطفة التقليدية

(١) الصوب : نزول المطر .

(٢) الديوان ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٣) التوجد : الحزن .

(٤) الديوان ص ٢٢٣ .

(٥) فلائد العقبان ص ٩١ .

المناسبة للموقف الرسمي (١) ؛ ومن القصائد الغزلية التي صاغها الشاعر خالصة للغزل ناطقة بالحنين على بعد الديار قصيدة أغفلها الديوان وحفظها لنا المراكشي يقول في مستهلها (٢) :

هل تذكرون غريبا عاده شجن  
من ذكركم ؟ وجفا أجفانه الوسن  
يخفى اواعجه والشوق يفضحه

فقد تساوى لديه السر والعلن  
ثم يتساءل عن أحبابه الذين هجروه واضطفئوا عليه هل  
يعودون الى حفظ العهود كما استمر هو في حفظها ؟ وهل يعود  
الماضي القديم كما كان ؟ :

يا هل أجالس أقواما أحبهم  
كنا وكانوا على عهد فقد ضغنوا  
أو تحفظون عهدا لأضييعها

إن الكرام بحفظ العهد تمتحن  
ويدعوه الحنين الى تعقب ابنائهم بعده فلا يجد من يجيب  
ما للركائب ما تهدي لنا خبرا

سدت مسالكها ؟ أم صمت الأذن ؟  
أسائل البرق : هل وافى بربعم ؟

وهل أناخ عليها الوابل الهتن ؟ (٣)  
ثم يتذكر أنه في العيد وأن هذا اليوم السعيد يجمع الأهل  
بالأهل والأحباب ؛ بالأحباب ، وأن الفرحة تعم فيه الجميع ، وأنه  
وحده المحروم فيه :

(١) الديوان ص ٤٧٩ - ٤٨٨ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ نقلا عن المعجب ص ١٠٠ .

(٣) هذان البيتان سقطا من المعجب وحفظهما لها صاحب مسالك الأبصار  
وإن كان ينسب القصيدة كلها الى ابن الوضاح المسمى المعروف بالبقيري ؛  
ولكن المراكشي صاحب المعجب أقدم منه عصرًا وأكثر تثبتًا .

ان كان عادكم عيسد فرب فتى  
بالشوق قد عاده من ذكركم حزن  
وأفردته الليالى من أحبتـه  
فبات ينشدها مما جنى الزمن  
« بم التعل ؟ لا أهل ، ولا وطن .

ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن (١) »  
وبدا المعتضد يستعد لفتح قرطبة بعد أن مهد لهذا الفتح بكل  
الوسائل ولكن المنية عاجلته سنة ٤٦١ هـ وأتم ابنه المعتضد ما بدأه  
أبوه واستولى على قرطبة سنة ٤٦٢ هـ .

روى ابن الأبار أن ابن زيدون فرح بموت المعتضد « وأظهر  
سرورا بذلك واستراحة منه ، لأنه كان غير مأمون على الدماء .  
ولا حافظا لحرمة الأولياء فقال يهجوهُ » :

لقسـد سرنا أن النعى موكل  
بطاغية قد حم منه حمام  
تجانف صوب الفيث عن ذلك الصدى

ومر عليه البرق وهو جهام (٢)  
وقد أيد الصفدى وابن شاعر رواية ابن الأبار (٣) ولا عجب  
في أن يرهب ابن زيدون المعتضد فقد كان جبارا لا يرحم فتك  
بابنه وولى عهده اسماعيل ، وكاد يفتك بابنه الثانى وولى عهده  
المعتمد (٤) ويقول الحجارى أنه « ما مات حتى قبض أرواح ندمائه

---

(١) البيت الآخر مقتبس من مطلع قصيدة للمتنبى .

(٢) الحلة السراء « النسخة المصورة بالجامعة العربية لوحة ٦٨ » تجانف :  
عدل ومال جهام : لا مطر فيه ، الصدى : الجثمان .

(٣) الوافى بالوفيات المجلد الثانى ص ٦١٩ وفوات الوفيات ج ١  
ص ١٩٩ .

(٤) فلائد العقبان ص ١٩ .

وخواصه وكان قد عرف عنه ذلك فصار الأدباء يتحامونه « (١) ولكننا نعلم أن الشاعر نال من آلاء المعتضد فوق ما كان يتطلع اليه ، وأنه كانت بينهما مودة وصداقة وانعطاف ، ونعرف أن ابنه الحاكم الجديد من أقرب المقربين للشاعر ، فما الذي يدعو به إلى الهجاء ؟ ولكننا نصدق ما رواه ابن شاعر والصفدي من أن ابن زيدون « سئل : كيف انفرد بالسلامة من المعتضد ؟ فقال : كنت كمن يحسك بأذني الأسد يتقى سطوته تركه أو أمسكه » فهذا القول أشبهه بابن زيدون وليست فيه أساءة للراحل الفقيد ، ولا أولى العهد الجديد وما كان ابن زيدون ليستقبل الحاكم الجديد بهجاء أبيه الذي أحسن إليه وأكرم مثواه ، وبخاصة أن الحاكم الجديد تربطه بالشاعر أوثق الصلات .

### مع المعتمد بن عباد

وفد الشاعر على اشبيلية والمعتمد في سن العاشرة وام يكن وليا للعهد في ذلك الحين ولكنه أصبح وليا للعهد بعد نكبة أخيه اسماعيل ، وقد ظهرت مواهب المعتمد الشعرية مبكرة فتطلع إلى ابن زيدون يتأدب على يديه ويقتبس منه ويطارحه المقطوعات الشعرية ويساجله النغمات الأدبية ؛ ولما أصبح وليا للعهد تدرج على يديه في الشئون الإدارية والسياسية وانزله من نفسه اسم منزلة وأحله من قلبه أجل مكان أمر المعتضد أن يكون مجلس ابن زيدون منخفضاً عن مجلس ولي عهده وابنه المعتمد في ترتيب المجالس الرسمية ، وهذا أمر طبيعي ، ولكن حب المعتمد لاستاذة وتعلقه به حمله على أن يكتب إليه معتذراً :

أيها المنحط عني مجلسي

ولسه في القلب أعلى مجلس

(١) الواقي بالوفيات مجلد ٢ ص ٦١٨ الواقي بالوفيات المجلد ٢ ص ٦١٩ وفوات الوفيات ج ١ ص ١٩٩ .

بفؤادى لك حب يقتضى

أن ترى تحمل فوق الرأس (١)

فأجابه الشاعر بقصيدة طويلة يقول فيها :

أسقيط الطل فوق النرجس ؟

أم نسيم الروض تحت الحندس (٢)

أم قريض جاءنى عن ملك

مالك بالبسر رق الأنفس (٣)

ومن هذا نعلم مكانة الشاعر عند الأمير الجديد وأنها تفوق مكانته عند أبيه ؛ وان ديوان الأمير وديوان الشاعر ليفيضان بالمطارحات الشعرية التى تربطهما بأوثق الصلات .

ولكن الحاقدين الحاسدين للشاعر بذلوا محاولة أخيرة لتعكير العلاقات بينه وبين الحاكم الجديد وأطمعهم ان المعتمد ما كاد يتولى مقاليد الحكم حتى استدعى اليه صديقه القديم ابن عمار ، وهو شاعر عظيم متقارب السن مع الأمير ، وكانت بينه وبين المعتمد مودة جاوزا فيها الحد حتى اضطر المعتضد الى نفي ابن عمار وابعاده عن ابنه وولى عهده ، فاستشفع ابن عمار بابن زيدون لدى المعتضد ، ولعل ابن زيدون تغافل عن هذه السفاعة فلم يكن لها الأثر المنشود ، ويبدو أن ابن عمار وجد فى نفسه على ابن زيدون .

وما كاد المعتمد يلى الحكم حتى استدعى اليه ابن عمار « وقربه أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه » (٤) فرأى حساد ابن زيدون أن الفرصة سانحة للكيد له ، وبخاصة بعد أن استولى ابن عمار على هوى الأمير ،

(١) الديوان ص ٢١١ .

(٢) الحندس : الليل الشديد الظلام .

(٣) الديوان ص ٢١٢ .

(٤) المعجب ص ١١٧ .

وكان هؤلاء الخصوم يحملون ابن زيدون أوزار المعتضد كلها فهو  
الذى « دبر دولته وأظهر صولته وأغراه بأعدائه وزين له الإيقاع  
بعماله ووزرائه ففدا شجاً في صدورهم ونكدا في سرورهم . . » (١)  
فنسبوا إلى الشاعر البيتين السابقين في هجاء المعتضد بعد  
وفاته ، ثم دسوا رقعة للمعتضد سطوروا فيها قصيدة طويلة  
استهلوها بقولهم :

يأيها الملك العلى الأعظم

اقطع ويردى كل باغ ينثم (٢)

واحسم بسيفك داء كل منافق

يبلى الجميل وغير ذلك يكتم

ثم دعوه إلى تقليد أبيه في الفتك بحاشيته :

واذكر صنيع أبيك أول أمره

في كل متهم فانك تعلم

لا تترك للناس موضع تهمة

واحزم فمثلك في العظام أحزم (٣)

ولكن الأمير كان أعرف بأستاذه وأرعى لصديقه وأحفظ للذكرى

أبيه فعلق على هذه المقطوعة بسبعة أبيات يقول فيها :

كذبت مناكم ، صرحوا أو جمجموا

الدين أمتن ، والسجية أكرم

خنتم ، ورمتم أن أخون ؛ وإنما

حاولتمو أن يستخف يللم (٤)

وزحفتكم بمحالككم لمجرب

ما زال يثبت للمحال فيهمز

---

(١) ثلاث المقبان ص ١٤ .

(٢) ينثم : يثن ويصوت .

(٣) الديوان ص ٣٠٦ - ٣١٠ .

(٤) يللم : جبل على مرحلتين من مكة .

انى رجوتكم فـلـدر من جربتم  
منه الوفاء ، وظلم من لا يظلم  
وختمها بقوله :

كفوا ، والا فارقبوا لى بطشـة  
يلقى السـفيه بمثلها فيحلم (١)  
والأبيات غنية عن التعليق ؛ واهتز الشاعر لهذا الموقف النبيل  
فنظم قصيدة مسهبة من خمسين بيتا يمدح فيها الأمير ويشكره  
ويشيد بمواقفه الكريمة (٢) يقول فيها :  
قل للبغاة المنبضين قسيهم  
سترون من تصميه تلك الأسهم  
ما كان حلم ( محمد ) ليحيله  
عن عهد دغل الضمير مذم (٣)

### فتح قرطبة

استقر الشاعر في ظل الأمير الجديد ، والتفت الى واجبه  
التقليدى في هذا البلاط فرثى الأمير الراحل ، وهنا الأمير الجديد  
واستأنف تدبيره لفتح قرطبة درة الولايات الأندلسية وموطن  
طفولته ومندرج صباه ومناط هواه الغلاب ؛ وكان حاكمها  
أبو الوليد بن جهور قد أثقله المرض وتقدمت به السن فترك الحكم  
لولديه وكان أصغرهما عبد الملك أقواهما شكيمة فنازع أخاه الأكبر  
عبد الرحمن وطغى عليه حتى كاد ينفرد دونه بالسلطان ، وكان  
طائشا نزقا ، وفي هذا الوقت كان الوزير ابن السقاء يسوس قرطبة  
بحكمته وحسن سيرته وبعد نظره ، وكان المعتضد بن عباد وهو

(١) الديوان ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) الديوان ص ٣١٢ - ٣٢١ .

(٣) الديوان ص ٣١٤ ، انبض الرامى القوس جلب سهمها ليرمى بها

تصميه : تصيبه اصابة قاتلة ، دغل : فاسد حاقد .

يدبر أمر الاستيلاء على قرطبة. « قد خامره من أمر ابن السقاء مدبر دولة بنى جهور مالا يسعه بوح ولا كتم ، وما لا يدعه سفه ولا حلم شرقا بحسن سيرته ، وفرقا من استمرار مريرته (١) وحسدا لآل جهور ، فقد كان ابن السقاء هذا من الاستقلال بمكانه والضبط لسلطانه بحيث يخيف الأنداد ، فدى عباد ( المعتضد ) الى عبد الملك ( ابن جهور ) من جره على الفتك به (٢) ، وبعث الى ابن السقاء من القى فى روعه حب الملك (٣) « وقد نجحت الدسياسة وفتك عبد الملك بابن السقاء ؛ وهنا تطلع المأمون ابن ذى النون حاكم طليطلة الى قرطبة وكان يحلم هو بها أيضا ؛ وهنا ظهرت براعة المعتضد فاتصل سرا بالمأمون وفأوضه على أن يخلى بين المعتضد وبين « قرمونة » على أن يترك المعتضد له قرطبة ويعينه على فتحها « فأجابه ابن ذى النون الى ذلك ، وتوثق منه بالايمان وأخلى له قرمونة فرجعت لابن عباد فشحنها بالأطعمة وقواها بالرجال ، وغدر بابن ذى النون ولم يف له بشيء ، فاغتاظ ابن ذى النون ووجه الى قرطبة عسكريا عظيما فجرت لأهل قرطبة معه حروب عظيمة ، وضائق قرطبة بأهلها وانقطعت عنهم المرافق فاستغاثوا بالمعتمد بن عباد (٤) فأتاهم مغيثا فقاموا على أميرهم عبد الملك بن جهور وملكها المعتمد « (٥) ونرجح ان ابن زيدون كان وراء تدبير المعتضد وابنه المعتمد حتى تم له الاستيلاء على هذه المدينة العظيمة ، لأن حنينه اليها لا يزال يلح عليه ، ولأنها موطنه ومنبت طفولته ومصدر هواه ولأنه خرج منها كاسف البال حزين النفس شريدا فهو يود أن يعود اليها عزيز الجانب مرهوب السلطان

(١) شرق بالماء غص به ، فرقا : خوفا ، استمرار مريرته : استفحال أمره .

(٢) قتل ابن السقاء .

(٣) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٤) كان قد ولى الحكم فى هذه الاثناء .

(٥) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٨٣ .

وكان فوق ذلك ييلفه ما يؤلمه في نفسه وفي قرابته بقرطبة على يد بنى جهور (١) على الرغم مما كان بينه وبينهم من صلات فمن الطبيعي أن يعمل على الانتقام منهم ؛ وكان للشاعر أنصار عديدون بقرطبة حتى في بلاط بنى جهور ، وقد أسفوا على فراقه لهم وفي هذا يقول ابن حيان واصفا أثر رحيله عن قرطبة : « خلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه » (٢) فمن الطبيعي أن يرسلهم الشاعر سرا وبخاصة في أوقات أزماتهم الشديدة ، وحدث أنهم « اجتمعوا في السر على أن يخلعوا ابن جهور ويولوا ابن عباد ، فأبرموا أمرهم وأحكموه وقاموا بأجمعهم وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد ، وقام أصحاب ابن جهور دونه . وكانوا طائفة قليلة فغلبت عليهم أهل قرطبة » (٣) فمن الذي كان يستطع التأثير في أهل قرطبة مثل زعيمها وفتاها وشيخها ابن زيدون ؟ ويؤيدنا في هذا الرأي الدكتور فيليب حتى حيث يقول : « وكان باشارة من ابن زيدون وتأثيره أن أرسل المعتمد جيشا على قرطبة فانتزعها من بنى جهور » (٤) .

### خاتمة المطاف

دانت قرطبة للمعتمد بن عباد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ هـ « فوصل اليها ، وآنس أهلها ، وبث المعروف فيها ، وأحسن السيرة في أهلها ، فسروا بآياله وولى عليها ابنه الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد بن عباد ، فوصلها يوم الثلاثاء السادس من شوال سنة ٤٦١ هـ ودخلها دخولا فخما تضاعف له سرور أبيه وانصرف المعتمد الى اشبيلية وخلف ابنه واليا عليها وترك معه القائد ابن مرتين مع جماعة من الفرسان » (٥) .

(١) المعجب ص ١٠٦ .

(٢) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .

(٣) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٥٩ .

(٤) تاريخ العرب ج ٣ ص ٦٦٤ .

(٥) أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

وهذه العبارة توهم أن المعتمد لم يمكث بقرطبة طويلا ، ولكننا نعلم أنه ظل بها الى ما بعد وفاة ابن زيدون في صدر رجب سنة ٤٦٣ هـ .

عاد الشاعر الى قرطبة مظفرا منصورا ولكنه كان قد أشرف على السبعين واعتلت صحته ، ولكنه لم ينس واجبه نحو بلده وأهله وأصدقائه ومواطنيه « اذ كان منهم متعصبا لهم هاويا اليهم حذبا عليهم وليجبه خبر (١) بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية (٢) » .

وحدثت فتنة باشبيلية اقتضت أن يعود المعتمد اليها . ولكنه أثر أن يرسل ابنه عباد اليها « في جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله (٣) » وهنا سنحت الفرصة أمام أعداء ابن زيدون الناقمين عليه فانتهزوها ليبعدوه عن الأمير وليخلو لهم وجهه وبهذا يستطيعون أن يكيدوا للشاعر كل الكيد ، وكان ابن عمار الوزير الشاعر صاحب الحظوة عند الأمير ، وقائد الجيش الظافر ابن مرتين هما بطلا هذا التدبير ، وكان ابن مرتين جنديا باسلا وفاتكا قاسيا ، ويرجح دوزي أنه من أصل مسيحي ، وبالغ في قسوته حتى أحفظ أهل قرطبة عليه فتنكروا له وفتكوا به بعد حين (٤) - وترجع فتنة اشبيلية الى أن مسلما تلاهى مع يهودى فزعم المسلم « أن اليهودى سب الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه وحرك عليه العامة (٥) » ولعل الاشبيليين كانوا متأثرين بثوة أهل غرناطة على اليهود وفتكهم بهم سنة ٥٤٩ هـ (٦) وأراد عبد الله بن سلام والى اشبيلية اطفاء الفتنة فقبض على

(١) يريد وسيط خبير .

(٢) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

(٤) ملوك الطوائف ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٥) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٤ .

(٦) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٧٥ والاحاطة ج ١ ص ٢٧٣ .

المسلم للتحقيق في الأمر « فكان لعامة الناس في انكار حبسه كلام واكثر خشي وباله ، فخاطب السلطان بقرطبة يعرفه ما كان منه ، ويستأمره في شأنه ، فعجل بانفاذ ولده الحاجب سراج الدولة الى اشبيلية في جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله لمشارفة القصة والاحتباط على العامة » (١) فأشار ابن عمار وابن مرتين على المعتمد بارسال ابن زيدون مع الجيش لما له من خبرة وتجارب ، والواقع أن اختيارهما كان موفقا لما امتاز به ابن زيدون من كياسة ولباقة وحسن تدبير ، ولما له من معرفة سابقة بشئون الدمييين ولكنه حق أريد به باطل فان هدفهما كان ابعاده بكل الوسائل فان أخفق كادوا له عند الأمير ؛ وان نجح فلن يكسب مجدا جديدا يضيفه الى أمجاده ؛ ومن السهل نسبة نجاحه الى سراج الدولة ابن الأمير ، وكان الشاعر مريضا فلم يشفع له مرضه عند الأمير « فألزمه النفوذ على بقية وعك كان متألما منه ، ولم يعذره في التوقف من أجله فمضى لطيته مسوقا الى منيته » (٢) ونسى الأمير واجب رعايته لأستاذه « وتحدث الناس بنبو مكان الأديب ابن زيدون لدى السلطان وأن استمساكه يعلى مرتبته بعد مختصة المعتضد بالله كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية أبيه به ، يفص باستمرارها ثقتاه المختصان به الحظيان لديه المستهمان لخاصسته ابن مرتين وابن عمار » (٣) ويظهر أن المتأمرين أدركا أن ابن الشاعر أبا بكر بن زيدون باق بقرطبة وكان قد ورث عن أبيه مواهبه السياسية وتدريب على يديه أحسن تدريب وله بقرطبة من أنصار أبيه عدد كبير ، وله من شبابه ومواهبه وحب أهل قرطبة له ما يجعله خطرا على ما يمكن من تدبير ، فما زال يلحان على المعتمد حتى أنفذه وراء أبيه

(١) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

(٣) المصدر السابق .

« فأمضى خلفه ، فعندها استسافا غضته واستهما مكانه ، واحتويا على خاصة السلطان وتدير دولته ولكل دولة رجال . . . » (١) ويظهر أن المرض والكهولة والآلام المعنوية والهواجس النفسية الحت على الشاعر ، فلم تمض بضعة أشهر حتى فاضت روحه باشبيلية في صدر رجب سنة ٤٦٣ هـ .

ولما اتصل خبر وفاته « بعشيرته أهل قرطبة تناعوه وسيثوا لفقده وحزنوا عليه . . . فصار مصابه لديهم كفاء ما اجتت فيه من تأميلهم . . . » (٢) ويظهر أن المعتمد أحس خطاه ورأى تغير شعور أهل قرطبة عليه فعجل بأن ولى ابنه أبا بكر بن زيدون في مناصب أبيه وعهد إليه بالوزارة وخصه بولاية اشبيلية حاضرة ملكه العتيد الى جانب اشرافه على دار سك النقود ، ولم يهدأ أهل قرطبة حتى انتقموا من ابن مرتين شر انتقام ، ولم يهدأ أبو بكر بن زيدون حتى سعى بكل جهده في نكبة ابن عمار وتم له ما أراد .

وهكذا انطوت حياة الشاعر بعد أن أضاءت أشعته أرجاء الأندلس ، وأمتدت من الشرق الى الغرب وتركت آثارها خالدة في لغة الضاد .

وخير ما نختم به هذا الفصل أن نستعيد بيان ابن حيان حيث يقول في ختام ترجمته له : « فقد تولى من أبى الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وبراعة ولسانا وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمراقبة لم يخلف لها بعده عاطيا قراته بين الكلامين » (٣) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٦ .

(٣) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٥ ، ٢٥٦ « الرقبة : الموضع المشرف العالى ،

عاطيا : متناولا » .

القسم الثالث  
صفحة الخلود

## الفصل الأول

### معالم الصورة

ان رجلا عظيما كابن زيدون ملأ قلوب معاصريه وأسماعهم  
ونافس منهم من نافس وصادق من صادق وقضى حياته مكافحا  
يصيب ويصاب ، ويفوز بأسمى المناصب وينحدر الى غيبة  
السيجن . . ان رجلا مثل هذا جدير بأن يشغل معاصريه ما بين  
قادح ومادح ومحب وكاره ، وبخاصة انه اشتغل بالسياسة  
زاحم كبار السياسيين فكان في طبيعتهم ، وقرض الشعر فكان في  
صدارتهم ، ومارس الكتابة فكان في مقدمة الكتاب ، ولهذا اختلفت  
فيه آراء معاصريه وتباينت تباينا كبيرا فيقول ابن سعيد نقلا عن  
ابن بسام : « انه كان سامحه الله ممن لا يرجى خيره ، ولا يؤمن  
شره » (١) وان كنا لم نجد هذا الخبر عند ابن بسام ويقول الحميدى  
والضبى انه « كثير الشعر قبيح الهجاء » (٢) ونحن نعلم ان الضبى  
يذابح الحميدى في كل مارواه دون روية أو تمحيص حتى يكاد كتابه  
« بغية الملتبس » يكون نسخة من « جدوة المقتبس » الا بعض  
التراجم التى زادها عليه ؛

على حين نرى ابن حيان المؤرخ الكبير الذى عاصر الشاعر  
وترجم له وجمع ديوان شعره يتحدث عن صلات الشاعر بسكان  
قرطبة « انه كان متعصبا لهم هاويا اليهم حادبا عليهم وليجة خير  
بينهم وبين سلطانهم » (٣) ويقول ابن بنانه شارح رسالة الشاعر

(١) المقرب ج ١ ورقة ٢٢٤ .

(٢) جدوة المقتبس لوحة ٥٦ وبقية الملتبس ص ١٧٤ .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٦ .

الهزلية انه « كان حسن التدبير تام الفضل متحبيبا الى الناس » (١) .  
واذا استعرضنا تاريخ الشاعر وجدناه ذا شخصية قوية وانه  
قضى حياته يصارع اعداءه فينال منهم بقوة وعنف ويصافي اصدقاءه  
فيبرهم في مودة وعطف ، ومن الخير أن نسرده أمثلة لكأنا الحاليتين .  
**في مواجهة الأعداء :**

١ - كان الشاعر صديقا لأبي عامر بن عبدوس ثم ساءت  
العلاقات بينهما بسبب ولادة فعاتبه الشاعر فلم يعتبه وزجره فلم  
يزدجر ، وبعد أن كتب اليه قصيدته الضادية (٢) المليئة بالعتاب  
والتحذير كتب اليه الرسالة الهزلية (٣) التي مثل به فيها كل تمثيل  
اضطر بسببها الى الابتعاد عن ولادة حتى حين .

٢ - كان بين الشاعر وبنى ذكوان مودة صافية توارثها الأبناء  
عن الآباء ، يأخذ عليه خصومه أنه تنكر لهم - والحقيقة أنه وفي لهم ،  
ورثى صديقه أبا بكر بن ذكوان بقصيدة دامية ، أما الذين قاموا  
بافتنة منهم سنة ٤٤٠ ضد بنى جهور فلم تكن بينهم وبين الشاعر  
أى صلة ، وكادوا يجرونه معهم الى الوبال ، وكل ما فعله الشاعر  
انه تبرأ من هذه المؤامرة ومن المشتركين فيها من بنى ذكوان (٤) .

٣ - يأخذ عليه النقاد أنه مدح المظفر صاحب بطليوس ورفع  
الى القمة ، ولم تمض بضعة أعوام حتى هجاه وهنأ المعتضد  
بالانتصار عليه ، ونحن نعلم أن الشاعر في وقت محنته تودد الى  
المظفر وتقرب منه ، ويبدو انه لم يظفر منه بما كان يرجوه فانصرف  
عنه دون أن يناله بهجاء - ولما استقرت حياته في ظلال المعتضد بن عباد  
كان من الطبيعي أن يغنى له وأن يسجل انتصاراته وفتوحاته ،  
وينوه بأمجاده العظام .

(١) شرح العيون ص ٤ .

(٢) الديوان ص ١٩٣ .

(٣) الديوان ص ٦٣٤ .

(٤) راجع ص ٢٠٤ - ٢٠٦ من هذا البحث و ٢٩٦ من الديوان .

٤ - يزعم الزاعمون انه تنكر لاولياء نعمته من بنى جهور  
فهاجم كما تنكر للمعتضد بن عباد بعد أن أولاه ما أولاه من الاحسان  
فهجاه بعد موته ، وقد تبرأ الشاعر من التهمتين وفندنا نحن هذا  
الادعاء فيما سبق (١) .

٥ - وينسبون الى الشاعر انه كان السبب في مصرع منافسه  
أبى الحسن على بن حصن ، وانه حرّض المعتضد على الفتك بكاتبه  
أبى محمد عبد الله بن عبد البر ؛ أما الأول فكان يسعى في هلاك  
الشاعر والشاعر يدافعه بالصبر والمطاولة حتى أعيته فيه الحيل ،  
فموقفه منه موقف الدفاع المشروع ، وأما الثانى فقد كاد الأمير  
يفتك به في ثورة جنونية بعد أن قتل ابنه وولى عهده بيديه فقد  
تملكه بعد هذا الموقف العنيف « حزن عميق وهاج به هائج الغضب  
فنكل بشركائه وأصدقائه وخدمه حتى بنساء قصره ، وكم أمر بئس  
أيد وأرجل وجدع أنوفا وقطع رءوسا وقتل في السر وقتل في العلن ،  
ولقد دخل عليه بعض وزرائه في اليوم الثالث لهذه النكبة فوجده  
مريد الوجه فظيع المنظر يجمع بكلام غير واضح ويزمجر زمجرة  
الأسد ، فصرخ فيهم : ما بالكم لا تنطقون ايها الأشقياء ، انه ليسركم  
ما انا فيه الآن من محنة وبلاء ، فاذهبوا بعيدا عني واخرجوا من  
هذا المكان (٢) .

### مع الأصدقاء :

١ - وفي الشاعر لكثير من أصدقائه في حياتهم وحفظ ذكرهم  
بعد وفاتهم ومن أشهرهم القاضي أبو بكر بن ذكوان وأبو عبد الله  
ابن عبد العزيز ببلنسية وأبو بكر الطنبي وشفع لصديق آخر شفاعته

(١) راجع ص ١٣٩ ، ٢٢٨ من هذا البحث وراجع كتابنا « ابن زيدون :  
عصره وحياته وأدبه ص ١٨٣ - ١٨٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) Historia Abloclidarum I, P553-256 وملوك الطوائف ص ١٤٥ -

حارة عند المظفر بن الأفتس ووجه اليه رسالة حارة (١) وقصيدة عصماء (٢) في شأن هذا الصديق .

٢ - وللشاعر موقف نبيل يجدر التنويه به فقد كشف موهبة أدبية عظيمة في أبي بكر محمد بن سليمان القصيرة ، وكان على فضله منطويا على نفسه متهيبا الدخول في خدمة المعتضد ، فقدمه ابن زيدون اليه وأثنى عليه ومهد له عنده فألحقه بخدمته ، ثم زكاه بعد المعتضد عند ابنه المعتمد فبرزت مواهبه حتى ثنيت له الوزارة « وعظمت حاله واتسع مجاله » (٣) .

٣ - وكما وفي الشاعر لأصدقائه وأنصاره وفي لأفراد كل شعب حل فيه ، فلما قامت الفتنة في اشبيلية رأى ذوو الشأن إرساله اليها لتعلق أهلها به ؛ وما كاد يهجر قرطبة من قبل حتى « خلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه » (٤) لأنه « كان حسن التدبير تام الفضل متحبا الى الناس » (٥) ولم يكد خبر نعيه يصل الى قرطبة حتى تناعاه أهلها « وسيئوا لفقده وحزنوا عليه اذ كان منهم متعصبا لهم هاويا اليهم حديبا عليهم » (٦) وما لبثوا أن فتكوا بخصمه ابن مرتين .

٤ - يفيض ديوان الشاعر بالحنين الى أصدقائه وأحبائه ونكتفى بذكر مثل واحد يغنى عن سائر الأمثلة . يقول في حنينه الى قرطبة :  
تذكرت أيامي بها فتبادرت

دموع كما خان الفريد نظام  
وصحبة قوم كالمصاييح ، كلهم

اذا هز للخطب الملم حسام

---

(١) الديوان ٧٥٤ - ٧٦٢ .

(٢) الديوان ٤٠٦ - ٤١٧ .

(٣) اعتاب الكتاب ص ٨٤ والذخيرة ق ٢ ص ١٤٢ .

(٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .

(٥) سرح العيون ص ٤ .

(٦) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٦ .

إذا طاف بالراح المدير عليهم

أطاف به بيض الوجوه كرام

محل عينا بالتصايب خلاله

فأسعدنا والحادثات نيام (١)

هـ - جهر كثيرون من عظماء عصره بالثناء عليه والاشادة بوفائه

فقال المعتمد بن عباد في رسالة شعرية وجهها اليه :

ب متى ينظم وينثر

نظم در يستبى القلا

صان معقود بخنصر (٢)

دلنى أنك فى الخلا

وكتب اليه ابن عمار متشفعا به لدى المعتضد :

يم ، وغزة الأدب الذليل

يا غرة الزمن البه

لة لى لدى الملك الجليل

اشفع عنايتك الجلي

وأقات عثرة مستقيل

ولئن أجبت لراغب

وهى الصنيعة فى مثلى (٣)

فلكم أتيت بمثلها

وخلاصة الراى أن الشاعر فى صلاته الاجتماعية لم يكن شيطانا

رجيما ولا ملاكا رجيما ، وانما كان انسانا سويا يقسو على أعدائه

ويبقى لأصدقائه وقد عبر هو عن هذا بقوله :

فانى ألين لمن لان لى

واترك من رام قصرى مرض (٤)

ولكن الشاعر لا يثور ولا يفتك الا اذا هوجم أو كما قال هو

منذرا خصومه بألا يغرمهم منه لينه ، وألا يطمعهم فيه كرمه :

(١) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ - الفريد : العقد ، خان النظام : النظر ج ١ .

(٢) الديوان ص ٦١٣ ، يسبى القلب : يأسره ، الخلصان : الصديق

الوفى .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٤) الديوان ص ٥٨٤ - القصر : الحبس أو الاجبار ، الحرص : الاشراف

على الهلاك .

حذار حذار ، فان الكريم  
 اذا سيم خسفا أبى فامتعض (١)  
 فان سيكون الشجاع النهو  
 س ليس بمانعه أن يعض (٢)  
 أما حين يأمن أذى الأعداء ويطمئن الى السلامة فهو كما  
 وصف نفسه :  
 ليحظى ولى سره وفق جهره  
 فظاهره شكر وباطنه ود  
 يميزه ممن سواه وفساؤه  
 واخلاصه ، اذ كل غانية هند (٣)  
 ولقد امتاز شاعرنا بسمات عديدة تميزه عن سواه ، ومن الخير  
 أن ندرس هذه السمات بايجاز .

### الظرف ورقة الحديث وسرعة البديهة

امتاز الشاعر بهذه الصفات وهى متجانسة متقاربة أعانته على  
 استيعابها ذاكرة قوية وفطرة طبيعية مواتية وقد شهد له الرواة  
 بطلاقة اللسان وقوة العارضة ، وأنه « فتى الآداب وعمق الظرف ،  
 غلب على قلوب الملوك بفضل ما أوتيته من اللسن والعارضة » (٤)  
 ويصفه ابن بسام بالبراعة والظرف (٥) ثم يصفه فى موضع آخر  
 فيقول : « وأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه وغزارة بيانه ، ورقة  
 حاشيته فالصبح الذى لا ينكر ولا يرد ، والبحر الذى لا يحصر  
 ولا يعد » (٦) وفى حديث أبى المطرف بن فتوح مع صاحبه عن شعراء

- 
- (١) سامه الخسف : أولاه الل امتعض : الغناظ .  
 (٢) الشجاع النهوس الثعبان أو الأسد العاض ، الديوان ٥٨٢ .  
 (٣) الديوان ص ٣٦٦ ، وص ٧ غانية هند : مثل يضرب للتساوى فى الشر .  
 (٤) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .  
 (٥) المصدر السابق ق ١ ج ١ ص ٣٥٥ .  
 (٦) ص ٢٩٢ .

الاندلس : « قال : فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ؟ قلت :  
الحلو الظريف ، البارع اللطيف أبو الوليد بن زيدون » (١) ولهذه  
الصفات خف على قلوب كل من اتصل به من الملوك : اتصل ببني  
عبد العزيز أصحاب بلنسية « فحل منهم محل الحميا في الكئوس  
ووقع منهم مواقع البشائر في النفوس ، وأقام بين مسرة تواصله  
وميسرة تفاضله » (٢) واتصل بادريس الثاني حاكم مالقة « فخف  
على نفسه وأحضره مجالس أنسه وأطال الثواء عنده » (٣) ولما  
اتصل بالمعتضد أصبح من أقرب خلصائه اليه يجالسه في خلواته ،  
ويسفر له في المهم من رسائله (٤) وقد أشاد بهذه الصفات هنرى  
بيريز في كتابه عن الشعر المنهجي الأندلسي في القرن الحادى عشر (٥)  
وعبر الشاعر عن هذه الصفات بقوله :

لا افتنان كافتنانى	فى حلى الظرف الحسان
خصنى بالأدب الله	فأعلى فيه شأنى
خاطرى أنفد مهما	قيس من حد السنان (٦)

### الولع بالذات

نشأ شاعرنا مترفا فى عصر يتسم بالترف واللهو والنعيم وعاش  
مع المترفين من الملوك والأمراء والوزراء والزعماء فاستجابت نفسه  
لهذه الدوافع كلها فمال إليها وأجاد التعبير عنها ، وكان كثيرا  
ما يدعو المعتضد الى الشراب أو يدعو المعتضد اليه فيخف لتلبية  
النداء ، دعا المعتضد الى الشراب مبررا له :  
فهب الى الذات يؤثر راحة

تجم بها النفس النفيسة للكد

(١) ق ١ ج ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) قلائد العقيان ص ٧٤ .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .

(٤) الوافى بالوفيات المجلد الأول ص ٢٧١ واعتاب الكتاب ص ٧٩ .

(٥) La Poésie Andalouse En Arabe Classique P. 427 .

(٦) الديوان ص ٥٩٥ .

ووال بها في لؤلؤ من حبابها  
 كجيد الفتاة الرود في لؤلؤ العقد (١)  
 ويدعو المعتمد الى مثل هذا المجلس :  
 وأدر هناك من المدام انمها  
 أرجا زكا ، وأشفها جربالا  
 لا زلت تفترش السرور حدائقا  
 فيه ، وتلتحف النعيم ظللا (٢)  
 وطوى الشاعر ليلة أنس باحدى جنات اشبيلية وصفها بقوله :  
 وليل أدمنا فيه شرب مدامة  
 الى أن بدا للصبح في الليل تأشير  
 فحزنا من اللذات أطيب طيبها  
 ولم يعسرنا هم ولا عاق تكدير  
 خلا أنه لو طال دامت مسرتي  
 ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير (٣)  
 وكان الشاعر في اقباله على اللذات يضيق بقدم شهر رمضان  
 لأنه يحول بينه وبينها فترة من الزمان فيقول :  
 قالوا غدا رمضان فستعد له  
 وتب الى الله واهجر لذة الكاس  
 ان الهلال يرى حتما ، فقلت لهم  
 حتمتم وشتات بين جلاس  
 فقال لى الغيم : لا يحفل بقولهم  
 على سترته ، فاشرب بلا باس

- 
- (١) الديوان ص ٥٠١ .  
 (٢) أنم : أشد اذاعة ، الأرج : توهج الريح الطيبة ، زكا : طاب الجريال :  
 الخمر أو لونها الأحمر - الديوان ص ٥٢١ .  
 (٣) الديوان ص ٢٤٥ ، التأشير : التحزير في الأسنان وحدة اطرافها .

## فقلت أعثر في ذيل المجنون الى جمع المسرة بين الطاس والكاس (١)

ووصف ابن خاقان زمن الشاعر وتصرفه فيه بأن الشاعر  
« لم يصرفه الا بين ريحان وراح ولم يطلعه الا في سماء مؤانسات  
وأفراح » (٢) وقد وصف الشاعر لنا في شعره ونثره كيف كان  
« يرشف الرضاب أعذب رشف ويهصر القد الطف هصر وينعم بلف  
جسم بجسم وقرع ثغر بثغر » (٣) وذكر لنا كيف كان يجنى أقحوان  
الثغور ويقطف رمان الصدور ... » (٤) .

### صفاته الجسمية

الجسم وعاء النفس وكلاهما يؤثر في صاحبه ويتأثر به ولقد  
ذكر الرواة أن الشاعر كان وسيما ، وقد وصفه ابن حيان بهذه  
الصفة في أكثر من مناسبة حتى في كهولته فهو يقول في رثائه :  
« فتولى منه كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وبراعة ولسانا  
وظرفا ... » (٥) ويروى الصفدي أنه كان يخضب بالسواد (٦)  
وهذا يدل على حرصه على أناقته وجمال مظهره ، ويوحى إلينا  
الشاعر في رسالته الهزلية التي كتبها على لسان ولادة الى ابن عبدوس  
بأنه من أقمار العصر وريحان مصر فيقول « ولعلك انما غرك من  
علمت صبوتى اليه وشهدت مساعفتى له من أقمار العصر ورياحين  
المصر الذين هم الكواكب علو همم والرياض طيب شيم :

---

(١) لم ترد هذه الرواية في دواوين الشاعر المخطوطة والطبوعة وقد عثرنا  
عليها بعد نشرنا الديوان في ( حلبة الكميث ) للنواجي ص ١١٦ . .

(٢) قلائد العقيان ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) راجع القصيدة بالديوان ص ١٢١ .

(٤) راجع الرسالة بالديوان ص ٧٧٨ ، ٨٧٩ .

(٥) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، ٣٥٥ .

(٦) تمام المنون ورقة ٨ .

من تلق منهم تقل لا قيت سيدهم  
مثل النجوم التي يسرى بها السارى « (١)  
او كان الشاعر حسن الصوت جيد الانشاد ، وفي هذا يقول  
ابن حصن في وصف قصيدته التي مدح بها المعتضد سائرا من  
ابن زيدون :  
ولست بكاسسيها مدى الدهر حلة  
بنغمسة انشاد ولا بمكر (٢)

### فلسفة الشاعر

لا تكمل دراستنا للشاعر حتى نتعرف الى فلسفته في الحياة  
ولكل فنان نظراته الخاصة الى الحياة والى المجتمع وهو يصدر  
في أفعاله وتصرفاته عن هذه النظرة العميقة ، واذا درسنا حياة  
شاعرنا وأقواله وتصرفاته وجدناه ممن يؤمنون بالجبر Detemination  
وقد لعبت مسألة الجبر والاختيار دورا كبيرا في المذاهب الاسلامية  
وشغلت كثيرين من الفلاسفة وعلماء الكلام ، ونرجح أن الشاعر  
درس هذه الأبحاث وأن أحداث حياته ونتائج دراساته قادت الى  
هذا الايمان وقد ردد نظرية الجبر في كثير من شعره ونثره ،  
فهو يقول مخاطبا صديقه أبا حفص بن برد :

ولقد ينجيك اغفا ل ، ويرديك احتراس  
ولكم أجدى قعود ولكم أكدي التماس  
وكذا الدهر : اذا ما عز ناس ذل ناس  
ويقول من قصيدة أخرى :

ولقد نظرت فلا اغتراب يقتضي  
كدر المال ولا توق يعصم

(١) الرسالة الهزلية بالديوان ص ٦٦٨ .

(٢) الدخيرة ق ٢ ص ١٠١ .

كم قاعد يحظى فتعجب حاله  
من جاهد يصل الدعوب فيحرم  
ولكم تسامى بالرفيع نصابه  
خطر فناصبه الوضيع الألام

فالإنسان ضعيف القوة محدود النظر أمام القوة الخفية  
المهيمنة على الكون ؛ ومقاييس الإنسان الوضعية متهاففة أمام  
مقاييس الأقدار ؛ فالإنسان قد يقدر ويدبر ولكنه يفشل ، وقد  
يعبث فيصيب ، وقد يجد ويكافح فلا ينال شيئا وقد يكسل فينال  
ما يريد والإنسان قد يحترس فيصاب ، وقد يستسلم فيسلم ...  
لأن قوى الإنسان محدودة ، وأستار الغيب مسدولة على عينيه  
فلا يدري ما يضره أو ينفعه ، وربما جاهد في سبيل الحصول على  
ما يؤذيه ، وربما تحاشى وتجنب ما ينفعه ، ولعله تأثر في هذه  
النظرة بالآية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى  
أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) وليست  
هذه النظرة عابرة في ديوانه ولكنها تتردد كثيرا في ثنايا شعره كما  
تردد في خلال نثره ، ومن أمثلتها ما قاله في رسالته البكرية « وما حم  
واقع ، ولا حذر من قدر ، وسبق السيف العذل ، وتقدم من فعلى  
ما جف به القلم » (٢) والإيمان بالقدر يستدعى الإيمان بالحظوظ  
فالشاعر حتى في مدحه يؤمن بالحظوظ :

ان الذى قسم الحظوظ      ظ حباك بالخلق العظيم (٣)  
فالألق المهيمن حينما قسم الحظوظ حبا الأمير بالخلق العظيم  
وحتى الحب يجرى أحكامه أيضا على الحظوظ المقدورة :

ما كان حباك الا فتنة قدرت  
هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا (٤)

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٢) الديوان ص ٧٤١ ، ٧٤٢ .

(٣) الديوان ص ٢٠٣ .

(٤) الديوان ص ١٧٤ .

والايمان بالجبر يدفع صاحبه الى التشاؤم وذلك حينما يشعر  
بطلغيان القوى. المهيمنة على الكون ويعجز عن فهم حكمتها ، ويشعر  
أنها تحد من رغباته وتعصف بآماله ، وتحول بينه وبين ما يريد  
فيسكن الى اليأس ويجنح الى الخمول ، ولكن الايمان بالجبر قد  
يدفع صاحبه دفعا الى النضال والجهد واثقا بأن القوى الجبارة  
التي تسيطر على الكون هي قوة عادلة رحيمة لا تظلم أحدا وان  
أهدافها العامة هي خير الانسانية . وأنها لا تفعل الا خيرا وان ظنه  
الناس شرا نتيجة لقصور أبصارهم وبصائرهم وان لها في قضائها  
حكمة تظهر حينما وتختفى حينما ولكنها في النهاية لا تخرج عن نطاق  
الخير العام ، وشاعرنا من هذا الفريق ، فالشاهد في مذاقنا حلو ولكنه  
قد يضر والعلقم في مذاقنا مر ولكنه قد يفيد ، وكلاهما في موضعه  
المناسب أنفع من الآخر بكثير :

ان الذى قدر الحوادث قدرها

ساوى لديه الشهد منها العلقم (١)

والانسان لا يعلم ما يضره وما ينفعه فحكمه عرضة للأخطاء :

وان السعى قد يكدى      وان الظن قد يخدع

وكم ضر امرءا أمر      توهم انه ينفع (٢)

والانسان اذا مسه شر      فلا بد ان يعقبه نفع

ربما أشرف بالمرء      على الآمال ياس

ان قسا الدهر فللماء من الصخر انجاس

وعسى أن يسمح الدهر فقد طال الشمساس (٣)

ولهذا يناضل الشاعر ويكافح مع ايمانه بالجبر ، ولا يهمله  
ما يصيبه في النضال لأنه واثق بالنتيجة الحتمية لمن يحسن العمل

(١) الديوان ص ٣١٢ .

(٢) ص ٥٧٨ .

(٣) ص ٢٧٤ .

ويتقن الجهد ويتحرى الخير العام ، ولهذا فهو لا يأس على ما فات ولا يفرح بما نال :

إذا صابتنى الجلى تجلت عن فتى أروع  
على ما فات لا يأسى ومما تاب لا يجزع (١)  
ويردد هذا المعنى فى شعره كثيرا فيقول :  
ولله فينا علم غيب ، وحسبنا

به عند جور الدهر من حكم عدل (٢)

وكان لتفاؤل الشاعر مع إيمانه بالجبر أثر كبير فى فلسفته العملية القائمة على الكفاح والنضال فإذا فشل فى غاية اتخذ من فشله وسيلة للنجاح . وإذا ضمته غيابة السجن عمل على الفرار ثم ناضل حتى وصل الى ذروة النجاح ، وإذا ضاق به بلد غادره الى آخر :

من كان يجهل ما البليد ؟ فانه  
من تطببه عن الحظوظ بلاد  
وفتى الشهامة من اذا أمل سما  
نفذت به شورى أو استبداد  
لا بأس رب دنو دار جامع  
للشمل قد أدى اليه بعاد (٣)

### نظرته الى المجتمع

كان الشاعر متشائما فى نظرته الى الناس على الرغم من نظرته الفلسفية المتفائلة بالأحداث ؛ فقد كان يسيء الظن بالناس لأنه لقي

---

(١) ص ٥٧٩ صابة : اصابة ، الجلى : الأمر العظيم ، الأروع : الرائع الحسن .

(٢) الديوان ص ٢٦٤ .

(٣) ص ٤٥٢ تطببه : تصرفه .

على أيديهم أبلغ الاساءات فكان ألد أعدائه من أقرب أصدقائه ،  
خدم أبا الحزم بن جهور وأسهم في اقامة دولته ، وما كاد يكافئه على  
احسانه حتى ألقى به في غيابة السجن ولم يقبل فيه شفاعة  
الشافعين ، وكان صديقا حميما لابن عبدوس وابن القلاس فانقلبا  
عليه عدوين لدودين . . . وهكذا كان منافسوه من الصق محبيه  
وقد عبر عن هذا في قصيدته لأستاذه وصديقه أبي بكر مسلم  
ابن أفلح النحوى (١) واصفا موقف الأمير منه واصفاه الى حساده  
ومنافسيه :

عدا سمعه عنى ، وأصغى الى عدا  
لهم فى أديمى كلما استمكنوا عط  
بلغت المدى اذ قعدوا ، فقلوبهم  
مكامن أضفان أساودها رقط  
يولوننى عرض الكراهة والقلى  
وما دهرهم الا النفاسة والفمط (٢)  
وأشد ما قاساه من المحن كان على يد حساد مجده المجرمين :  
وأشد فاجعة الدواهى محن  
يسعى ليعلقه الجريمة مجرم  
تلقى الحسود أصم عن جرس الوفا  
ولقد يصيخ الى الرقاة الأرقم (٣)  
هذه نظراته الى المجتمع ، أما نظراته الى المرأة فهي منحدره اليه  
من وراثات قديمة سابقة للاسلام حيث كان العرب ينظرون الى المرأة

---

(١) الديوان ص ٢٨٥ - ٢٩٣ .

(٢) الأديم : الجلد ، عط تمزيق ، المدى ، الغاية ، الأساود : الحياة  
العظيمة الرقط : ما اختلط سواد جلدها بالبياض وهى من أخبت الحيات ،  
القلى : الكره ، الفمط : الحسد - الديوان ص ٢٩١ .

(٣) الديوان ص ٢١٣ يصيخ : يستمع ، الرقاة : أصحاب التمايم  
او التعاويد الذى يستخرجون الحيات ، الأرقم الثعبان المخطط .

نظرة ازدراء واحتقار حتى انتشرت في بعض القبائل عادة وأد البنات ،  
فلما جاء الاسلام أبطل هذه العادة ورد للمرأة كرامتها ومكانتها  
وأوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم ومما قاله في ذلك : « لقد  
طاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أنواجهن ليس أولئك بخياركم »  
وقال عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم  
لأهلي » وكان صلوات الله وسلامه عليه يضرب المثل العليا للمسلمين  
والمسلمات في معاملاته لزوجاته أمهات المؤمنين واحتذى صنفه  
المخلصون المؤمنون ، فقال قائلهم :

رأيت رجالا يضربون نساءهم

فشلت يميني يوم أضرب زينبا  
ولكن شاعرنا سلك غير هذه السبيل فاعتدى بالضرب على  
ولادة كما ذكرنا (١) وصرح بأن خير زوج للفتاة هو القبر . وهي  
نظرة جاهلية غريبة من الشاعر في مثل عصره - توفيت بنت  
للمعتضد قبل وفاته بثلاثة أيام فحزن عليها حزنا شديدا ، فكتب  
الشاعر اليه معزيا من قصيدة :

سرك الدهر وساء	فاقن شكرا وعزاء
أنت ان تأس على الـ	مفقود الفاء واجتباء
فاسل عنه غيره ، واحـ	تمل الرزء اباء
حبذا هدى عروس	دفنها كان الهداء

والشاعر هنا متأثر بقول عبد الله بن طاهر (٢) :

لكل أبى بنت يراعى شئونها  
ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر  
فبعل يراعيها ، وخدر يكنها  
وقبر يوارئها ، وأفضلها القبر

(١) ص ١٧١ من هذا البحث - والديوان ص ١٧٥ .

(٢) الديوان ٥٥٩ - ٥٦١ - اجتباء : اختيار واصطفاء ، الهدى السيرة ،  
والهداء : الزفاف .

وليست هذه النظرة خاطرة عابرة عند الشاعر ولكنه يرددها ويبالغ فيها حتى في المواقف الرسمية فهو يشبه المرأة بالجداء يخلعه الرجل ليستبدل به آخر ، وهو يردد هذا المعنى في تهنيئته للمعتضد بزواجه من بنت مجاهد العامري بعد أن ماتت زوجته الأولى :  
هي والفقيـــــدة كالأديم اختـــــرته

فقددت - اذ خلق الشراك - شراكا (١)

وإذا كان بعض العرب في الجاهلية ينظرون الى المرأة هذه النظرة ، فان الانصاف يقتضينا أن نذكر أن أغلبية العرب في الجاهلية كانت تنصف المرأة (٢) وقد جاء الاسلام فرعاها بعنايته وهيا لها أكرم الأوضاع المناسبة لمكانتها الاجتماعية .

### نظرة نقدية

وقبل أن نختم هذا الفصل نحب أن نناقش ملاحظة أشار اليها بعض النقاد عن ظاهرة تتجلى في آثار الشاعر الأدبية ذات شطرين :  
**الشرط الأول :** أن الشاعر تعود أن يكرر نفسه في بعض آثاره فهو يستعيد من قصائده السابقة أبياتا عديدة ينقلها الى قصائده الجديدة ، ومن أمثلة ذلك ان الشاعر صاغ قصيدة في مدح أبي الوليد ابن جهور ورثاء أمه (٣) ، ثم صاغ قصيدة أخرى في مدح المعتمد ورثاء أبيه (٤) فنقل من الأولى عشرين بيتا ضمها الى الثانية حيث افتتح القصيدتين بسبعة أبيات مشتركة ، وبعد عدة أبيات استعار ثلاثة عشر بيتا من القصيدة الأولى ضمها الى الثانية دون تغيير أو بتغيير طفيف للتفرقة بين المذكر والمؤنث والى هذا أشار ابن بسام بقوله : « فتلاعب أبو الوليد كما ترى في هذه القصيدة تلاعب

---

(١) الديوان ص ٤٤١ - الأديم : الجلد ؛ خلق : بلى ، الشراك : سير النعل .

(٢) المرأة العربية في الشعر الجاهلي ص ٤١٣ - ٤٢٥ .

(٣) الديوان ص ٥٣٩ .

(٤) الديوان ص ٢٦٢ .

الحطية بنسبه ، وتصرف تصرف أبى حنيفة بمذهبه ، فأنث وذكر  
وقدم وآخر ... » (١) وفعل قريبا من هذا فى أربعة أبيات غزلية  
نقلها من مقدمة قصيدة له فى مدح أبى الوليد بن جهور الى مقدمة  
قصيدة له فى مدح المعتضد ولم يتكلف فى هذا النقل الا تغيير القافية  
وحدها لتغير القافية فى القصيدتين - لا نستطيع أن نرجع هذا الى  
عنى الشاعر فاننا لو حذفنا الأبيات المكررة فى قصيدتى الرثاء لبقى  
للشاعر فى القصيدة الثانية نيف وخمسون بيتا أصيلة جيدة تفنيه  
عن هذا الاقتباس ، كما كان فى امكان الشاعر حذف أبيات الغزل  
الأربعة من مقدمة قصيدة المديح الثانية ويبقى له بعد هذا واحد  
وثمانون بيتا جيدا ، فكيف نعلل هذه الظاهرة ؟

ربما كانت راجعة الى معابثة الذاكرة ، فكثيرا ما تقفز الى ذهن  
الشاعر أبيات نظمها ونسيها منذ عهد قديم فيظنها بنت ساعتها ،  
وللذاكرة أحيانا معابثات عجيبات - وربما اقتبسها الشاعر عن قصد  
لأنه مولع بالاقتباس واقتباسه من شعره أولى من اقتباسه من  
غيره - وربما نفس على بنى جهور مانظمه فيهم فأراد أن يجردهم  
منه ليقدمه الى من هم أولى به وأكثر استحقاقا له ولكن هذا كله  
لا يبرر ما وقع فيه الشاعر من التكرار .

**الشرط الثانى :** ولع الشاعر بالاقتباس والاشارة الى المأثور من  
الحكم والأمثال ، وفرائد الشعر القديم ، ثم الشغف بالاشارة الى  
الأحداث التاريخية والنوادر الأدبية ، ونبادر فنقول ان هذه السمة  
كانت الطابع الغالب على عصره ولكن الشاعر أسرف فى هذا المنحى  
كل الاسراف حتى زعم حاسدوه أننا لو رددنا ما اقتبس به الى أصوله  
لم يبق له شيء . وهذا مبالغة من نقاده وحاسديه فى الزراء به -  
فالشاعر كان ذواقا للأدب مفتونا به حفظ من فرائده ما لم يحفظه  
سواه ودرس التاريخ وتعمق فيه وعلقت بذهنه آلاف الأمثال والحكم

(١) الدخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٦٩ .

والطرائف الأدبية فامتزجت بأحاسيسه ومشاعره سواء عن عمد أو عن غير عمد ، فسالت على طرف لسانه وعلى يراعتة قاصدا وغير قاصد ، وآثاره ليست مجرد سرد آثار السابقين وإنما التنسيق والتوفيق والترتيب ووضع الشيء في موضعه بين آثاره الأدبية الأصيلة ، والشاعر قد هضم ما حفظه وامتزج بلحمه ودمه ثم تمثله ، وقدمه حاملا طابعه الشخصي وذاتيته المتميزة كالنحل يقطف جنى الأزهار الفضة والثمار اليانعة ثم يحيلها الى عسل مصفى لذيد ، وليس من المعقول أن نطلب الى كل شاعر أو أديب الابتكار التام — وليس كل ابتكار محمودا ولا كل اتباع مذموما ، وكل مانطلبه من الأديب الموهوب اذا اتبع منهجا خاصا أن يكون مؤمنا به متحمسا له وأن تكون شخصيته ظاهرة متجلية فيه — وينبغي لمن يعالج موضوعا نقديا كهذا أن يركز الى الأسس الآتية مراعاة منه للانصاف :

أولا : تحفل كل لغة من اللغات بتعبيرات أدبية خاصة وضعها أدباؤها الأقدمون وجرت على الألسن فصقلتها من جيل الى جيل ، فأنست اليها الأفهام ، ووجدت فيها القلوب اشعاعا قويا كالخمر المعتقة ، وتندرج تحت هذه التعبيرات الحكم والأمثال ، وبعض العبارات المجازية مثل : « ركب فلان رأسه » ومات حتف أنفه ، وطارت نفسه شعاعا وزاغ بصره ، وورم أنفه ، وأصبح ملء القاب والسمع ، هو قيد الخواطر ، وشرك النواظر ؛ هو منه قاب قوسين ، أفتر ثغره ، أغر الوجه . . . » ومن التعبيرات القرآنية التي تعاورتها الألسن فازدادت جمالا على جمال : « بلغت القلوب الحناجر ؛ سلقوكم بالسنة حداد ، مردوا على النفاق ، اتخذوا إيمانهم جنة ، كأنهم خشب مسندة » مما جعل لهذه الألفاظ رسوخا في ميادين التفكير على توالي الأزمان وصيرها « مشبعة بالمعاني والتجارب والذكريات التي نسجها حولها الزمن وأودعها طياتها ، وأمثال هذه الألفاظ تزيد الأسلوب قوة ، وتجعل أثره شاملا ممتدا الى آفاق فسيحة ولعل هذه الأنواع من الكلمات والعبارات هي التي لا تستغنى عنها اللغة في جميع عصورها مهما تبدلت حياة المتكلمين بها واختلفت

ببئاتهم لأن الزمن قد ثبت دعائمها « (١) والمهم في هذه العبارات ألا تكون قلقة نابية في موضعها بل تناسب فيه كأنها ولدت معه وعاشت فيه .

**ثانيا :** ليس كل مألوف تافه القيمة ، وليس كل جديد قيما خالدا ، لأن المألوف قد يحمل معه تجربة عاطفية تجعلنا ننفعل به ونحسه احساسا خاصا ، وكأننا نعيش فيه ونحيا معه ، فالشاعر العربي حينما رأى نخلة بعيدة عن موطنها أحس بغربتها وأحس بغربته معها فقال في عبارة سهلة ساذجة :

ألا يا نخلة بالسفح من أكناف حلوان

ألا أنى وإياك على الدنيا غريبان

أو جعلها جارة له وخلع عليها حياة كحياته وشعورا كشعوره :

فيا جارتا أنا غريبان ها هنا

وكل غريب للغريب نسيب

فالشاعر لم يأت بجديد ، ولم يتكرر معنى عميقا بل هو أقرب الى السذاجة ، ولكنها سذاجة حبيبة الى النفس قريبة من القلب تثير فينا انفعالا وجدانيا ومشاركة عاطفية تجعلنا نحس احساس الشاعر ونبادله وجدا بوجد وتحنانا بتحنان .

**ثالثا :** تتسع آفاق الشاعر بمقدار اتساع تجاربه النفسية وثقافته العلمية وثروته اللغوية ، وكلما غزت مادته اللغوية أعانته على اجادة التصوير وروعة الأداء ، وفي هذا يقول تشارلتن Cbalton « ان رأيت رجلا غنيا بالفاظه فاعلم انه لذلك أوسع حياة من سواه وان رأيت رجلا قديرا على استخراج المعانى من ألفاظها فاعلم أيضا أنه أعمق حياة من سواه » (٢) .

ولعل هذا ما قصده جوته شاعر الألمان الكبير حيث قال : « في كل فن تجد صلة نسب ، واذا رأيت فنانا كبيرا فلا بد أنه قد وعى

(١) الأصول الفنية للأدب ص ١٨٨ .

(٢) فنون الأدب ص ٨ .

أحسن ما عند أسلافه وأن هذا هو الذى جعله عظيما » واعترف  
مولير بالاقتباس فقال : « اننى آخذ المعنى الحسن حيث أجده »  
ويقول لانسون : « ان أمعن الكتاب أصالة انما هو الى حد بعيد  
راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة وثلاثة أرباعه  
مكون من غير ذاته . . . »

والدارس لابن زيدون يجد آثاره متسلسلة متناسقة في نظم  
متلاحم الأجزاء مطرد السياق فلا تكاد تشعر أنه اقتبس شيئا من  
غيره الا اذا كنت تعرفه ولا نجد في هذا الاقتباس قلقا أو غرابة وكأنه  
ولد على لسان الشاعر وانبثق من أحاسيسه ومشاعره وتحاربته  
الوجدانية العميقة ؛ والشاعر يمتاز بأذن موسيقية بارعة في اختيار  
الألفاظ وجودة التعبير والفنان الأصيل هو الذى يمتاز بجودة  
الصياغة ومعاودة النظر فى الصقل والتهديب وفى هذا يقول شلى :  
« ان الفن عرق وجهاد شاق » (١) ولقد ذكر محرر مجلة المصور (٢)  
أن بالمتحف البريطانى خمسا وسبعين صورة من قصيدة توماس  
جراى الشهيرة « مرثية فى فضاء كنيسة بالريف » كلها بخط توماس  
جراى نفسه ، كتبها فلم يرض عنها فأعاد كتابتها مرارا . . .  
وفى المرة الخامسة والسبعين أحس رضاه عنها فكف عن محاولة  
الاعادة ، ولقد كتب بلزاك تجربة صفحة من مخطوط ألفه وأهداها  
الى النحات دافيد مذيلة بهذه العبارة « ليس النحت مقصورا على  
النحات وحده » (٣) .

ومن هنا ندرك معنى الشعر المنقح عند الشعراء الأقدمين  
ومعنى الحوليات عند زهير بن سلمى وأضرابه .  
وفى ضوء ما سبق نستطيع أن نقرر أصالة ابن زيدون الفنية -  
وأن نردد مع شوقي قوله فى ابن زيدون :

- 
- (١) المجلة عدد أبريل سنة ١٩٥٨ .  
(٢) العدد ١٩٧٩ بتاريخ ٦٢/٩/١٤ .  
(٣) مبادئ علم النفس الطبعة الثانية بدار المعارف سنة ١٩٥٧ ص ٢٥١ .

أنت في القول كله	أجمل الناس مذهبا
بأبي أنت هيكلا	من فنون مركبا
شاعرا أم مصورا	كنت أم كنت مطربا
ترسل اللحن كله	مبدعا فيه مغربا
أحسن الناس هاتفا	بالغواني مشببا (١)

---

(١) من قصيدة شوقي في تقديم ديوان ابن زيدون طبعة كامل كيلاني ،

## الفصل الثاني

### شاعر الحب والجمال

ان أصدق وصف نستطيع ان نطلقه على ابن زيدون هو « شاعر الحب والجمال » ولسنا نمنحه هذا اللقب مجاملة أو انسياقا مع المشاركة الوجدانية ، وانما خلعنا عليه هذا اللقب نتيجة دراسة علمية عميقة ارتكزنا فيها على علم النفس والفلسفة والجمال ، واستعرضنا آثار الشاعر في ضوء حقائقها العلمية وخرجنا منها بالنتيجة المطلوبة .

والحب والجمال يلتقيان في الأساس ويفترقان في المظهر كالصفحتين المتقابلتين لورقة واحدة اذا صح هذا التعبير فكلاهما لصيق بصاحبه مؤثر فيه متأثر به ، فالجمال يخلق الحب ، والحب يخلق الجمال وكلاهما مرتبط بصاحبه اشد الارتباط .

وتزداد عاطفة الحب اشتعالا اذا حالت الحوائل بين المحبين وكثر المتنافسون على الحبيبة ، ولم تجد العاطفة بما قامت عليه من الغرائز رياء لها ، فيضطر المحب الى كبت عاطفته فتزداد حدة وعنفًا ، والى هذا يشير الدكتور ليبمان بقوله : « ان العواطف المكبوتة تثار لنفسها آخر الأمر في صورة مرض عقلى أو بدنى » ولكن الفنان ينفس عن عاطفته المكبوتة بإبرازها من مرجلها في صورة عمل فنى بديع .

والتجربة العاطفية العميقة التى خاضها الشاعر أذاقته جميع ألوان الحب من وصال وهجر ومن صد ودلال ومن غيرة وثقة ، ومن نأى وانجذاب ، ومن رقة وقسوة ، وقد استغرقت هذه التجربة العاطفية حياة الشاعر كلها وامتدت به ومعه من فورة الصبا الى

ثورة الشباب الى قوة الرجولة الى حنين الكهولة ، فأحس نشوة اللقاء كما ذاق مرارة الجفاء وسعد بالوصال كما شقى بالدلال ، ونعم بالانفراد كما تجرع مرارة المنافسة ، واستمتع بنغمات اللقاء كما ابتلى بلفحات الحرمان .

وتقاد الأدب يقسمون الحب الى قسمين متمايزين هما الحب العذرى او الأفلاطونى ؛ والحب الحسى او المادى وان كان هذا التقسيم غير دقيق لأن الحب العذرى لابد أن يرتكز فى مبدئه على الحب الحسى او المادى ، وفى هذا يقول بوننج : « ان جمال الحب وقوته لا يتمان الا اذا احتضنتهما الغريزة ، على انه اذا غطت الغريزة الحب تكشف لنا الانسان على صورة حيوان » .

فى سن المراهقة يفرز الجسم بعض الهرمونات التى تنفذ الى الدم فتحدث تغيرا نفسيا وجسميا ، ثم تصحب هذا التغير مشاعر جديدة ، فيسوق حب الاستطلاع العقل الى الأمام ويرده الحياء الى الوراء ، ويصاب الشاب بالارتباك فى حضرة الجنس الآخر ، وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلا ، وقد يصبح الطفل بفتة ذكيا بعد أن كان غبيا أو يصبح عنيدا بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعا وتنتاب الفتى والفتاة نوبات من التأمل الداخلى . . . وينفتح الخيال وتظهر دولة الشعر وتسرع كل موهبة فى النمو (١) . . .

وفى هذه الفترة يتدفق الحب فيغمر الفنون بحيويته فتنبو وتزدهر ، فالحب يتخيل الجمال ويبحث عنه وقد يتدعه ويتخيل الخير وينشده ويصمم على تحقيقه ، ويعمل الفكر على التجاوب مع الوجدان ، وينشط الخيال وتكثر الأحلام ، وينتهى الأمر أحيانا بعقريّة فذة مثمرة (٢) وأساس هذا كله ناجم فى مبدئه عن الغريزة الجنسية ، والعاطفة فى هذا أشبه ببذرة وضعتها فى باطن الأرض فامتدت جذورها فى أعماق الطين ، ولكن ساقها شق التربة وامتد

(١) طب العقل والنفس ص ١ .

(٢) مباهج الفلسفة الكتاب الاول ١٦٨ ، ١٦٦ .

في الفضاء ثم تكشف عن أزهار يانعة وثمار حلوة دانية وظل ظليل ،  
والى هذا أشار جوته بقوله : « عندما يتحرك الحب الانساني ويسرع  
الخطأ تتفتح بذرة الحب الالهى » (١)

ولقد سار شاعرنا على هذا النهج مدفوعا بالعوامل الطبيعية  
لعاطفته المشبوبة فقد بدأ غزله حسيا كما ذكرنا :

لما انثنى في سكره قضيبا

تشددو حمام حليه تطريبا

هصرته حلو الجنى رطيبا

أرشف منه الميسم الشنيبا

ولقد عبر الشاعر عن نشوة الوصال في مقطوعات كثيرة  
بالديوان :

مراد من الحب غض الجنى

لديه من الوصل ورد علل

ليالى ما انفك يهدى السرو

ر حبيب سرى ورقيب غفل (٢)

وهو يتذكر أيام اللقاء ويكرر ذكرها في نشوة واعجاب :

اذ جانب العيش طلق من تألفنا

ومورد اللهو صاف من بصافينا

واذ هصرنا فنون الوصل دانية

قطافها ، فجئنا منه ماشينا

ويعجب لمرور هذه الأيام مثل لمح البصر وكأنها لم تكن :

كاننا لم نبت والوصل ثالثنا

والسعد قد غض من أجفان وأشيننا

---

(١) طب العقل والنفس ص ١ .

(٢) الديوان ص ١٥٦ : لا تمايل قده المشوق كالقضيبي ورن حليه كتغريد

الحمام ضمته الى بقوة مقبلا ثغره العذب .

سران في خاطر الظلماء يكتمننا  
 حتى يكاد لسان الصبح يفشيننا (١)  
 ولكنه الى جانب هذا لهج بالحب العذرى وتعلق بالعفاف :  
 ورب ظلام ليلي جن فوقى  
 فنبت عن الصبح الى الصبح  
 فهل عدت العفاف هناك نفسى  
 فديتك ، أو جنحت الى الجناح (٢)  
 وهو لا يتطلع من حبها الى أكثر من أن ترف أمانيه حولها :  
 في أساء والصبح وان يتلقى  
 سلامها في أنفاس الرياح  
 فؤادى من أسى بك غير خال  
 وقلبي عن هوى لك غير صاح  
 على حالى وصال واجتناب  
 وفى يومى دنو وانتزاح  
 وحسبى أن تطالعك الأمانى  
 بأفكك فى مساء أو صباح  
 وأن تهدي السلام الى غبا  
 ولو فى بعض أنفاس الرياح (٣)  
 والشاعر قد تواتيه الفرصة وتسمح له بنيل ما يشتهي ولكنه  
 يقنع بما دون الاثم من لذات :

---

(١) الديوان

(٢) الديوان ص ٤٣٠ - جن : استثر جنح : مال ، الجناح ( بضم الجيم )  
 الاثم .

(٣) الديوان ص ١٤٩ - انتزاح : بعد ، غبا : مرات متباعدة - ومن  
 المأثورات : زر غبا تردد حبا .

لم أنس إذ باتت يدي ليللة  
وشاحه اللاصق دون الوشاح  
ألمت بالألف منسه ، ولم  
أجنح الى ما فيه بعض الجناح (١)

والانصاف يقتضينا ان نذكر ان هذه العفة والحديث عنها  
يظهران في المواقف الرسمية في مقدمات قصائده أو عند لوعة  
الحرمان ، وكم للحرمان من أباد بيضاء على الفنون الجميلة ولولا  
الحرمان ماسعدنا بأروع آيات الفنون ، لأن الرى يغفل عاطفة الحب  
أو يضعفها ، والحرمان يشعلها وينميها ، ولقد فطن الشعراء قديما  
بفطرتهم الطبيعية الى هذا فقال قائلهم :

كم من دنىء لها قد صرت أتبعه  
ولو صحا القلب عنها كان لى تبعا  
وزادنى كلفا فى الحب أن منعت

أحب شىء الى الانسان مامنها (٢)  
ومعظم ما أبدعه شاعرنا فى روائعه يقوم على الحرمان :

سأقنع منك بلحظ البصر  
وأرضى بتسليمك المختصر  
ولا اتخطى التماس المنى  
ولا أتعدى اختلاس النظر  
أصونك من لحظات الظنون  
وأعليك عن خطرات الفكر  
وأحذر من لحظات الرقيب  
وقد يستدام الهوى بالحدز (٣)

---

(١) الديوان ص ٢٤٧ .

(٢) الأغاني ج ١١ ص ٢٣ من أبيات لأحوص .

(٣) الديوان ص ١٦٨ .

وأقصى ما يتطلع اليه من آمال أن يصبح عبدا لطيفها الحبيب :  
سلنى حياتى أهبها      فلست أملك ردى  
الدهر عبرى ، لما      أصبحت فى الحب عبدك (١)  
وقد ابتدع الشاعر فنا جديدا نستطيع أن نسميه «غزل المكايدة»  
وهو من وحي الحرمان أيضا ؛ وهو يرمى فى هذا النوع من الغزل  
الى أهداف ثلاثة هى :

**الهدف الأول :** مكايدة منافسيه ممن يحومون حول حبيبته  
واشعارهم بأنه نال منها كل ما يشتهى وانصرف عنها الى سواها  
وترك لهم فضلاته ، وهو فى هذا المظهر يبالغ فيما ظفر به منها :  
اذ الدنيا متى تقتد      أبى سرورها يتبع  
واذ للحظ اقبال      واذا فى العيش ممتع  
واذ أوتارنا تهفو      واذا أقدا حنا تترع  
وأوطار المنى تقضى      وأسباب الهوى تشفع (٢)  
وقد تحدثنا عن وصف ليلته التى قضّاها فى صحبة ولادة  
وسجلها فى عبارته النثرية المسجوعة (٣) ، وهو ينسدر ابن القلاس  
هاتفا به :

أعد نظرا فان البغى مما لم يزل يصرع  
ولا تطمع التى تغويك فهى لغيرهم أطوع  
ولاتك منك تلك الدار بالمرأى ولا المسمع  
فان قصارك الدهليز حيث سواك فى المضجع (٤)

ويقول فى ابن عبدوس وكان يلقب بالفار :  
أكل شهى أصبنا من أطايبه  
بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار

(١) ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

(٣) الديوان ص ٧٧٢ - ٧٨١ .

(٤) ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

ثم ينبئه أنه اخذ الجنى الغض وترك له فضلات الأمعاء :  
وحسبى أنى أطبت الجنى لابانسه وأبحت النفس  
ويهنيك أنك يا سيدى غدوت مقارن ذاك الربض (١)  
**الهدف الثانى :** اشعار حبيبته بأنه سلاها وانصرف عنها الى من  
هى أجمل منها وجها وأصغر سنا وأرق حاسة :

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيان  
واستحدث القلب شوقا بعد سلوان  
من حب جارية يبدو بها صنم  
من اللجين عليه ناج عقيان  
غريرة لم تفارقها تمائمها  
تسبى العقول بساج الطرف وسمان  
ثم يعلن أن هذه الجارية أنسته كل حب قديم وأن هواها الجديد  
سينسيه كل هوى ماض ، فهى بالنسبة اليه ايمان بعد كفران :

لاستجدن فى عشقى لها زمنا  
ينسى سـوالف أيامى وازمانى  
حتى تكون لمن أحببت خاتمة  
نسخت فى حبها كفرا بايمان (٢)  
وهو يحاول أن يشعرها بأنها كانت كالثياب التى بليت من طول  
الاستعمال ، وأنه استجد بدلها لباسا جديدا :  
قد علقنا سـواك علقنا نفيسا  
وصرفنا اليه عنك النفوسا  
ولبسنا الجديد من خلع الحب  
ب ، ولم نال أن خلعنا اللبيسا (٣)

(١) ص ٥٨٦ - الجنى : الثمر الغض ، النفس : ما تساقط من الورق  
والثمر لفساده ، الربض : مأوى الماشية أو احشاء الناقة أو ما تحويه  
الأمعاء .

(٢) الديوان ص ١٩٢ .

(٣) ص ١٩٥ .

ثم يهتف بابن عبدوس ليعان الحبيب أنه استبدل غيره به ، وأنه  
سعد بهذا البديل :

وأشعره أنى انتخبت البديل  
وأعمله أنى استجدت العوض  
فما مشربى لقلاه أمر

ولا مضجعى لنواه أقض (١)  
ثم يحمد الفراق لأنه أراحه ولأنه غسل عنه عار هواه النديم :  
وأن يد البين مشسورة

لعار أمار ووصم رخص (٢)  
**الهدف الثالث :** إيهام الجميع بأنه سلا حبيبته وانصرف عن  
هواه القديم لأنه كشف مافيه من زيف وتمويه :

يا مستخفا بعاشقيه	ومستفشا لناصحيه
ومن أطاع الوشاة فينا	حتى أطعنا السلو فيه
الحميد لله إذ أرانى	تكذيب ما كنت تدعيه
من قبل أن يعرم التسلى	ويغلب الشوق ما يليه (٣)

ومن الغريب أنه كان قد وجه الى حبيبته قصيدة عاطفية رقيقة  
استهلها بقوله :

لو كان قولك : مت ، ماكان ردى : لا

يا جائر الحكم أفديه بمن علا (٤)

ولكنه فى موقف المكايدة اضطر الى أن ينقض ماقاله فكتب اليها  
من قصيدة :

أما الحبيب الذى أبدى الجفاء لنا  
فما رأينا قلاه حادثا جللا

---

(١) ص ٥٨٩ القلى : البغض امر : صار مرا ، أفض خشن .

(٢) ص ٥٨٩ - أمار : أزال رخص : غسل .

(٣) الديوان ص ١٩٠ - يعرم يشتد ويشرس .

(٤) ص ١٧٩ .

ولم ترد أن ظفرنا ملء أعيننا

بالمشترى فتجنبنا له زحلا (١)

هذي الحقيقة لا قولى مخادعة

لو كان قولك «مت» ما كان ردى: «لا»

والشاعر هنا يخدع نفسه قبل أن يخدع أحداً — وهو يرمى من وراء غزل المكايدة الى ردع خصومه ومنافسيه ، وقد نجح الى حد ما فى هذا الهدف ولكنه كان يرمى — أكثر من هذا — الى إثارة الغيرة فى نفس حبيبته ، ولكنه أخفق فى هذا الغرض كل الاخفاق ، لأن الغيرة اذا تجاوزت حدودها قتلت عاطفة الحب وحولتها الى عاطفة كراهية وانتقام .

وقد أدرك الشاعر هذا ولكن بعد فوات الأوان ، فعاد ينقض ما بناه من غزل المكايدة ، فهو يقسم لها بأغلف الإيمان أنه ماسلا هواها ولا انصرف عنها الى سواها ، ولا اتخذ منها بدلا ، وما اعتقد لها الا الوفاء :

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم

رأيا ولم نتقلد غيره ديننا

لا تحسبوا نأبكم عنا يغيرنا

اذ طالما غير النأى المحبينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلا

منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خيلا عنك يشغلنا

ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا

أما هـواك فلم نعدل بمنهله

وردا ، وان كان يروينا فيظميننا

ويعلنها أنه سيظل وفيا لحبها حتى يلقاها فى موقف الحشر ،

وهذا الأمل باللقاء يكفيه ان عز فى الدنيا اللقاء :

---

(١) ص ١٩٤ .

ان كان قد عز في الدنيا اللقاء ففى  
مواقف الحشر نلقاكم ويكفيننا  
واذا كان قد هجرها حيناً من الزمان فليس هذا ناشئاً عن  
السلوان ولكن عوادي الحدثان هى التى أرغمته على فراقها ارغاما :  
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه  
لاهين عنه ولم نهجره ساليماً  
ولا اختيساراً تجنبينساها عن كذب  
لكن عدتنا على كره عوادينسا  
ولو صبا نحونا من علو مطلعسه  
بدر الدجى لم يكن - حاشاك - يصبينا (١)  
وديوان الشاعر ملىء بهذه النغمات التى ردها نيفاً وعشرين  
عاماً - طواها يحوم حول حبيبته عن بعد ويرتل فيها أعذب الألحان  
وما أسعد الفن اذا رفته الحرمان .

\* \* \*

والعاطفة اذا انطلقت جامحة عمياء فانها قد تؤدى الى الجنون  
أو الهلاك ، أما العاطفة السوية فهى التى تشايعها أضواء الفكر ؛  
واذا كانت العاطفة تساعد الفكر على الانشاء والابداع والتفنن فى  
التماس وسائل النجاح ، فان الفكر يساعدها فى الاتجاه الرشيد  
ويعاونها على بلوغ أهدافها بالرأى السديد ؛ وجميع الفنون هى ثمرة  
العاطفة الوجدانية العميقة التى تنظمها وتنسيقها وتبرزها أشعة  
الفكر الوضاء . « ولنذكر ان العاطفة المشبوبة غير المستنيرة بالعقل  
مجازفة غير مأمونة العواقب ، وأن الرقى فى التطور النفسى يتطلب  
السلوك العقلى الذى هو فوق مستوى الغرائز والعواطف  
جميعاً . . » (٢) .

(١) انخبنا هذه المقطعات من قصيدة الشاعر النونية ص ١٤١ - ١٤٨  
من الديوان .

(٢) مسائل فلسفية الجزء الاول ص ٦٢ .

وشاعرنا على عمق عاطفته يستعمل الفكر المنطقي كثيرا في  
غزله فهو يناشد حبيبته بأسلوب منطقي ألا تفسد ما توثق بينهما  
من الصلات القوية لمجرد خطرات ظن فاسدة ، وإذا كان بينهما  
ألف سبب تحتم جميعها بواعث اللقاء فكيف تبيع لذنوب واحد  
أن يفسد هذه البواعث جميعها ، وهبه أذنبا خطأ فقد نال على ذنبه  
عقاب الخاطيء المتعمد في عنف عنيف :

لا تفسدن ما قد تأكد بيننا      من صالح خطرات ظن فاسد  
حاشاك من تضييع ألف وسيلة      شجى العدو لها بذنوب واحد  
ان أجنه خطأ فقد عاقبتنى      ظالما بأبشع من عقاب العامد(١)  
ثم هو يعلن لها أنه سيكتم اسمها في غزله لأن قدرها وصفاتها  
المنفردة تغنيه عن ذكر اسمها :

لسنا نسسميك أجلا وتكرمة

وقدرك المعتلى عن ذاك يغنيننا

إذا انفردت ، وماشورك في صفة

فحسبنا الوصف أيضا وتبيننا(٢)

وهو إذا استبدت به العاطفة لجأ الى الصبر وان لم يكن سهلا :

ليس لى صبر جميل      غير أنى أتجمل

ثم لا بأس ، فكم قد      نيل أمر لم يؤمل (٣)

وعقله المفكر ينصحه بأن يحذر العيون ، ويتجنب اساءة الظنون

ويصبر فان العاقبة للصابرين :

لئن فاتنى منك حظ النظر

لاكتفين بسماع الخبر

وان عرضت غفلة للرقيب

فحسبى تسليمة تختصر

(١) الديوان ص ١٦٤ .

(٢) ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) ص ١٨٢ .

احاذر أن تتظنى الوشاة  
وقد يستدام الهوى بالحدار  
وأصبر مستيقنا أنه

سيحظى بنيل المنى من صبر (١)

وللشاعر قصيدة رائعة تتساق فيها العاطفة العميقة مع الفكر المنطقي الدقيق (٢) ، فهو يستهلها بأنه سيظل وفيا لها في مستقبله كما كان وفيا في ماضيه على الرغم من دواعي اليأس منها ، وعلى الرغم من اصغائها للوشاة ، وتصديقها لهم واقبالها عليهم ورضائها عنهم .

لئن قصر اليأس منك الأمل	وحال تجنيك دون الحيل
وناجاك بالافك في الحسود	فأعطيته جهرة ما سأل
وراقك سحر العدا المفتري	وغرك زورهم المقتبل
وأقبلتهم في وجهه القبول	وقابلهم بشرك المقتبل (٣)
فان ذمام الهوى لن أزال	أبقيه حفظا كما لم أزل (٤)

ثم هو يناشدها التآني في فصم ما بينهما من صلات ؛ ويتساءل عن سبب انصرافها عنه ، ألم يصبر على ما يحتمله راضيا ليكون خفيفا على قلبها ؟ ألم يقلل زياراته لها حتى لا تمله ؟ ألم يتغاض عن اساءاتها التي توجهها اليه عامدة أو غير عامدة مع انها مناط آماله ، ومحط هواه :

علام أطبتك دواعي القلى	وفيم ثنتك نواهى العذل (٥)
ألم ألزم الصبر كيما أخف	ألم أكثر الهجر كي لا أمل
ألم أرض منك بغير الرضى	وأبدى السرور بما لم أنل

(١) ص ١٦٨ .

(٢) الديوان ص

(٣) قبله الشيء : قابله به ، القبول : المحبة .

(٤) المعنى ما زلت في الماضي والحاضر ولن أزال في المستقبل وفيا لحبك الغلاب .

(٥) أطباء : استماله اليه .

الم اغتفر موبقات الذنوب      ب عمدا أتيت بها أم زلل  
على حين أصبحت حسب الضمير      ولم تبغ منك الأمانى بدل  
ثم يصف لنا مدار بينهما من جدل فكري كاد يطمس ما بينهما  
من مشاعر عميقة وناشدها أن تراجع نفسها وأن تعود لسجاياها  
الحلوة والى حبها القديم :

سعت لتقدير عهد صفا      وحاولت نقض وداد كمل  
ومهما هزرت اليك العتسا      ب ظهرت بين ضروب العلل  
كأنك ناظرت أهل الكلام      وأوتيت فهما بعلم الجدل  
ولو شئت راجعت حر الفعال      وعدت لتلك السجايا الأول (١)  
ثم هو يؤذنها بأنها إذا لجت في الدلال عليه فسيضطر لوداعها  
الى غير رجعة ، وهو مكره على اتخاذ هذا الموقف لأنها هي التي  
أصرت عليه ، وإذا كانت قد سلته فسيقلدها في سلوانها ويحاكيها  
في انصرافها عنه :

عليك السلام سلام الوداع      وداع هوى مات قبل الأجل  
وما باختيار تسليت عنك      ولكنى مكره لا بطل (٢)  
ولم يدر قلبى كيف النزوع      الى أن رأى سيرة فامتثل (٣)  
والعاطفة العميقة لا تكون كاملة حتى يتسع مداها فيمتد الى  
العشيرة ثم الى الوطن كله ثم الى العالم بأكمله فتتغنى بالحب كما  
تتغنى بالصدقة كما تترنم بالوطنية ثم بالعالمية الى أن تتصل بالمثل  
العليا من حب الحق والخير والجمال .

ان الجمال وثيق الصلات بالعقيدة الدينية . فقد نشأت الفنون  
الجميلة جميعها في ظل الديانات ؛ ولقد أقامت الانسانية في عهودها  
الأولى الهياكل والمعابد والمحاريب والتماثيل تمجيدا للالهة ، كما

(١) الفعال « بفتح الفاء » اسم للفعل الحسن والكرم .

(٢) « مكره أخوك لا بطل » مثل يضرب لمن يرفع على القيام بأمر فيؤديه  
كارها .

(٣) النزوع عن الشيء : الاقلاع عنه .

أنشأت فنون الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل تقديسا للأرباب واستجلابا لرضائهم ودفعاً لسخطهم ؛ أما الأديان السماوية فقد أعطت الفنون الجميلة حقها على ألا تكون مدعاة للهو والعبث وعلى أن تكون بعيدة عن إثارة الفرائز والشهوات وبشرط أن تظل مجرد رموز تدل على عظمة الخالق وتقديسه لا أن تشاركه في قداسته أو تنفرد دونه بالعبادة والتقديس : ولقد من الله على سليمان عليه السلام بأنه سخر له الجن « يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . . » (١)

أما الاسلام فقد أشاد بالفنون الجميلة في الحدود التي أشرنا إليها آنفا ؛ روى مسلم عن عبد الله بن مسعود من حديث طويل : « ان الله جميل يحب الجمال » (٢) كما نوه القرآن الكريم والحديث الشريف بالزينة والطيبات والحسن قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . » (٣) وقال جل شأنه « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٤) وقال عز من قائل « يأيتها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » (٥) ولفت أنظارنا سبحانه الى الطبيعة الجميلة فقال تعالى : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » (٦) وقال عز وجل « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج » (٧) ومن سبحانه على المؤمنين فخطبهم قائلا : « ولكن الله يحب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم » (٨) وينبها سبحانه الى الزينة الحيوانية فقال جل شأنه

(١) سورة سبا الآية ١٣ الجفان : القصاع الكبيرة ، الجوابى : الاحواض

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الاعراف .

(٤) الآية ٣١ من السورة السابقة .

(٥) الآية ٥١ من سورة « المؤمنون »

(٦) الآية ٦ من سورة الصافات .

(٧) الآية ٦ من سورة ق - الفروج : الشقوق .

(٨) الآية ٧ من سورة الحجرات .

عن الأنعام « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . . .  
والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة . . » (١) كما ينبهنا  
سبحانه الى الزينة النباتية ، فقال جل شأنه « ان جعلنا ما على  
الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٢) ومن الله سبحانه  
على الانسان بأنه خلقه وسواه وعدله وأنه صورته « في أحسن تقويم »  
وأنه تعالى « أحسن كل شيء خلقه ؛ كما وصف الله سبحانه وتعالى  
ما أعده للمؤمنين من « جنات عالية قطوفها دانية » « تجري من  
تحتها الأنهار » وأنهم « يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون  
ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك . . » (٣)  
كما وصف ما تحفل به من « سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق  
مصفوفة وزرابى مبثوثة » (٤) وما بها من ولدان مخلصين « اذا رأيتهم  
حسبتهم لؤلؤا منثورا ، واذا رأيت ثم رأيت نغميا وملكا كبيرا . . » (٥)  
والاسلام هو دين الطهارة والجمال ، وقد أعطانا الرسول صلى الله  
عليه وسلم القدوة الطيبة والمثل الأعلى في هذا ، فقد كان كثير  
الاغتسال كثير الادهان بالطيب ، وكان يهذب لحيته ويرجل لمتته  
وكان لا يفارقه في حضره وسفره مشطه ومقصه ومرآته ومكحلته  
وسواكه وهى وسائل النظافة والزينة المعروفة في عصره ، وان كان  
يحرم الذهب والفضة والحريز على الرجال حتى لا تكون مدعاة  
للتفاخر بين المؤمنين وحتى لا تخرج بهم عن خلق الرجولة وحتى  
لا تكون وسيلة لكثرة الأموال ؛ روى الترمذى في صحيحه ان النبى  
صلى الله عليه وسلم « كان يأخذ من لحيته من عرضها ويطولها »

(١) الآيات ٦ - ٨ من سورة النحل - تريحون وتسرحون تعودون مساء وتغدون  
صباحا .

(٢) الآية ٧ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٣١ من سورة الكهف .

(٤) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الفاشية - أكواب : كئوس لا عروة لها ،  
موضوعة : بين أيديهم ، نمارق : وسائد ، زرابى : بسط ، مبثوثة : مفروشة  
(٥) الآية ١٩ ، ٢٠ من سورة الانسان .

وروى مالك في الموطأ أنه صلوات الله عليه رأى رجلاً ثائر الرأس والاحية فأشار إليه ففهم الرجل اشارته وعاد وقد أصلح نفسه فقال صلى الله عليه وسلم « أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » وروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن المغيرة ابن شعبه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً طويل الشارب قدعا بمسواك وشفرة فوضع السواك تحت الشارب فقص عليه (١) ونحن نعلم أن الدول الحديثة تختار السفراء من ذوى الهيئـة الحسنة وقد سبقهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا ، فقد روى بزاز عن بريرة عنه صلى الله عليه وسلم « إذا أبردتم بريدا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم » (٢) وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها في حديثها عن الامامة « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وأقدمهم هجرة فان كانوا سواء فليؤمهم أحسنهم وجها » (٣) والأحاديث في هذا مستفيضة .

ولكن بعض المستشرقين يثيرون موقف الاسلام من فنى النحت والتصوير ، وفاتهم أن الاسلام أعلن حرباً عنيفة على الوثنية وكانت متجلية في عبادة التماثيل المنحوتة التى يسمونها الأصنام وأنه فى دعوته الى التوحيد اقتلع بواعث هذه العبادة المقيتة ؛ ومع هذا فقد بحث القدماء والمحدثون هذا الموضوع بحثاً مستفيضا ، وانتهت غالبيتهم الى اباحة الصور المرسومة « التى لا ظل لها » واباحة التماثيل النصفية اذا لم تكن هذه وتلك موضعاً للتقديس ، وفى هذا يقول الامام النووى فى شرحه لصحيح مسلم « ان تصوير صورة الحيوان وشبهه حرام شديد التحريم وهو من الكبائر بعكس الشجر والجبال وما ليس فيه حياة ، أما اتخاذ الصور فان كان فى موضع تكريم فهو حرام ؛ وان كان فى مكان امتهان فليس بحرام ، ولا فرق

(١) الدين والجمال ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى « حرف الالف » وذكر أنه حديث حسن .

(٣) الجزء الرابع من سند أبى داود فى حديثه عن الامامة .

في هذا بين ما له ظل ولا لا ظل له . . . » وقد عقب على هذا المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بأنه « ليس المراد تعميم التحريم في كل زمان ومكان ، وكل أمة ، فانه لا معنى لذلك الحجر متى أمن من جانب العبادة والتعظيم اللذين اختص الله بهما . . . ومن القواعد الشرعية أن لاوسائل أحكام الغايات والمقاصد ، فإذا كانت لغرض شرعى كانت واجبة ، وان كانت لمجرد الزينة كانت مباحة ، وان كانت للعبادة فهي حرام قطعاً » (١) .

ونعود بعد هذا البحث العلمى فنتساءل عن المقاييس التى تجعلنا نحكم على الشئ بالجمال ؛ الواقع أن هذا الموضوع شغل أذهان الفلاسفة وعلماء الجمال وعلماء النفس منذ أمد بعيد ولا يزال يشغلهم حتى الآن ، وكثيرون منهم عادة يرددون قول أاناتول فرانس : « اعتقد اننا لن نعرف بالضبط أبداً لم كان الشئ جميلاً » (٢) ولهم العذر فى هذا فاننا لا نستطيع أن نجارى سكان تاهيتى فى اعجابهم بالآثف المفرطحة ، ولا سكان الصين فى شغفهم بالأقدام الصغيرة ولا العرب فى اعجابهم بالردف الثقيل ، ولا الزنوج فى حبهم للشفاة الغليظة ، فان الأذواق تختلف من جيل الى جيل ومن اقليم الى اقليم ، بل ان الناس يختلفون فى البيئة الواحدة والعصر الواحد فى تقبيحهم للجمال ، حتى « يستحيل وجود اتفاق تام على مقومات الشئ الجميل او على الدرجات النسبية او الخطوات التى يتدرج فيها المقياس من القبيح الى الجميل ، اذ ليس هناك حقائق او مستويات منطقية فى عالم الفن كما فى الحساب او الجغرافية او الهندسة » (٣) والى هذا أشار الدكتور ماكس ديتز بقوله : « ان تاريخ الفنون بأسره مفعم بالمجادلات الدوقية » (٤) بل اننا نجد

(١) التصوير عند العرب ص ١٣٣ .

(٢) مباهج الفلسفة الكتاب الأول ص ٢٨٣ .

(٣) ميادين علم النفس الجزء الاول ص ٥٠١ .

(٤) الدين والجمال ص ٨١ .

المثال الجمالى عند الغربيين يختلف من شعب الى آخر ومن عصر الى عصر ، فقد كانت البدانة بدعة فى بعض الأوقات ، تأمل صور السيدات اللاتى صورها روبنز والصبايا الممتلئات فى صور ميراندت حتى العذراء فى رسوم رافائيل كلهن مزدهرات الجسم ، ولكن حسناوات رينولدز وجنزبور ورومنى أكثر من ذلك رشاقة أما نساء هوبسار فممشوقات القد وبغير أرداف ، وفى خلال الجيل الذى نعيش فيه تغير ذوق المرأة فى جسمها من الامتلاء الدورى Doric الى الرشاقة الكورنثية ؛ فهيئات الجسم تتخذ كازياء الشباب شيئا من التنويع والقداسة (١) .

وكلما تغيرت الحضارة والثقافة تغيرت أيضا مثل الجمال فى الموسيقى والفن والشعر (٢) .

ولكننا على الرغم من هذا نستطيع باستعراض آراء الباحثين من قدماء ومحدثين أن نخرج ببعض النتائج الهامة التى يمكن أن تكون أساسا صالحا لتقويم المثل الجمالية (٣) .

يرد فيثاغورس جمال الموسيقى الى العلاقات الرياضية ويصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق ، أما افلاطون فيجعل الفن الجميل شعبة من علم الأخلاق ، وأما أرسطو فالجمال عنده هو التماثل والتناسب والترتيب العضوى للأجزاء فى كل مترابط أو ما نستطيع أن نسميه التماثل والتناسب والترتيب والوحدة ، ويكاد كانت وشوبنهاور يتفقان على أن الجمال صفة للشيء الذى يبعث فى انفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه ويحرك فينا ضربا غير ارادى من التأمل ويشيع لونا من السعادة الخالصة ؛ ويقرر هيجل أن الجمال وحدة فى تنوع وانتصار الصورة على المادة ، ويرى نيتشه أن كل ما ثبت ضرره يبدو قطعاً قبيحا فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو ولكننا نعهده

(١) نسبة الى العصر الدورى فى الحضارة اليونانية القديمة .

(٢) مباهج الفلسفة الكتاب الاول ص ٣٠٢ .

(٣) ميادين علم النفس الجزء الاول ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

حلوا لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدرا للطاقة ، وكل شيء نافع يصبح بعد وقت قصير لذيذا مقبولا ، وهى نظرية مادية بحثة محدودة بنطاق النفع والضرر ، وسار على هذا النهج سنتيانا حيث رد الجمال الى اللذة ، واتجه هذا الاتجاه ستانداى وهوبس . . . واتجه آخرون الى أن الجمال مرتبط بالصلوات الجنسية وبالغوا فى هذا الاتجاه مبالغة كبيرة ، فالجنس عندهم هو كل شيء وفى هذا يقول دى جورمون De Gormont : « سل ضفدعا ما الجمال ؟ يجيبك أنه أنشاه : ضفدعة ذات عينين مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير ذات فم واسع عريض وبطن أصفر وظهر بنى » (١)

ونحن لا ننكر أن للجنس أثره القوى كما لا ننكر أن اللذة سيطرتها النافذة ولكننا لا نستطيع أن نضغط القيم الجمالية ونحسبها فى هذين النطاقين المحدودين ؛ فان جمال الطبيعة « يقف الجمال فيه بعيدا عن منبعه فى الحب » (٢) ومن الجرأة البالغة التعجل فى وضع قوانين عامة مادية فالطبيعة تستنكر التعميمات التى نتجاهل تنوعها غير المتناهى ، وهى مستعدة أن تلقى فى وجه قوانيننا الكلية آلافا من الاستثناءات .

ومع أننا لا نستطيع أن نجرد الجمال من العنصر الذاتى ، ولكننا ينبغى أن نعتمد فى بحثنا على الجانب الموضوعى ؛ وهنا نستطيع أن نطمئن الى أساس سليم نستمد من أرسطو ثم من كانت وشوبنهاور وهيجل وغيرهم ونستطيع أن نجمله فيما يلى :

**أولا :** التناسق فى الأشكال والألوان والأنغام سواء كان من فعل الطبيعة أو فعل الانسان أو من فعلهما معا .

**ثانيا :** تحقيق هدف كريم سواء كان الهدف ماديا أو معنويا .

**ثالثا :** الوحدة التى تسرى فى كيان الشيء الجميل بحيث تضمه فى نسق مطرد منسجم خال من الالتواء أو الفوضى أو النشاز .

---

(١) راجع الفصل الثالث عشر من مباهج الفلسفة الجزء الاول .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

**رابعاً :** التنوع المتناسق داخل نطاق الوحدة السابقة أو كما يقول هيغل « وحدة في تنوع » .

**خامساً :** أن يبعث فينا مشاعر عميقة بالجدة وأن كان مألوفاً ، وبالراحة وأن كان شاقاً ، وبالسعادة وأن كانت وهماً .

**سادساً :** أن يحملنا على التقمص الوجداني بحيث نتجاوب معه كل التجاوب وبحيث نحس اندماجنا الكامل فيه فلا ندري انجبه لأنه جميل أم نراه جميلاً لأننا نجبه .

**سابعاً :** أن يرضى فينا انفعالاتنا الطبيعية من غرائز وعواطف أو مانسميه تحقيق اللذة على ألا يعقبها ألم أو تؤدي إلى الخروج على الأوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية ؛ واللذة الروحية هي أعلى ضروب اللذات وأبقاها أثراً وأوسعها مدى وأقربها إلى نطاق الخلود لأنها تتعلق بما وراء الواقع المحدود وفي ضوء ما سبق نستطيع أن نحدد موقف شاعرنا من هذه القيم الجمالية التي لخصناها في إيجاز :

### **بين الطبيعة والحب :**

ان شاعرنا في حبه العنيف لجمال المرأة امتدت عاطفته القوية المشبوبة من جمال المرأة إلى جمال الطبيعة ومزج بين الحبيبين مزجاً رائعاً وترنم بهما معاً حتى التبس الأمر فلا ندري أحبه للمرأة جزء من حبه للطبيعة أم حبه للطبيعة امتداد لحبه للمرأة ، وبهذا خلق في أفق قلما خلق فيه سواه ، وقد ألهمته طبيعة الأندلس الساحرة ما ألهمته من الروائع الفنية التي سرت مع نبضات قلبه فهيمنت على مشاعره الوجدانية في جميع مساربها ؛ وزاد في ولعه بالطبيعة أنها ارتبطت مع حبيبته أوثق ارتباط ؛ فطالما تلاقيا في الفياض الندية والرياض الشدية على المياه الجارية بين الأزهار البانعة والنسمات العليلة ، وكم مال معها كما يقول : « إلى روض

مدبج في وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل  
أنهاره ، ودر الطل منشور ، وحبب الراح مزور « (١) .

والشاعر حتى في أيام محنته لا ينسى الترجم بعاطفته المشبوبة  
فحو الطبيعة الممتزجة بالهيام ، فانه بعد فراره من سجنه عاد الى  
الزهراء خائفا يترقب ، فأنسته الطبيعة الباسمة تكبته وذكرته  
بحبيبته « فوأفاها ، والربيع قد خلع عليها برده ونثر سوسنه  
وورده ، وأترع جداولها ، وأطلق بلابلها ؛ فارتاح ارتياح جميل  
بوادي القرى ، وراح بين روض يانع ، وريح طيبة السرى فتشوق  
الى لقاء ولادة وحن « (٢) وكتب اليها قصيدته الرائعة التي مزج  
فيها غزله بالطبيعة بغزله بحبيبته ، وفيها يقول :

انى ذكرتك بالزهراء مششاقا  
والأفق طلق ووجه الروض قد راقا  
والنسيم اعتلال في أصائله  
كأنما رق لى فاعتل اشفاقا  
والروض عن مائه الفضى مبتسم  
كما شققت عن اللبات أطواقا  
ورد تألق في ضاحى منابته  
فازداد منه الضحى في العين اشراقا  
سرى ينافحه نيلوفر عبق  
وسنان ينبه منه الصبح أحداقا

فالتبيعة هنا بارزة باسمه تأخذ على الشاعر مذاهبه ، وتملك  
عليه سمعه وقلبه وتثير فيه الذكريات الحلوة العذبة بل هي كائنات  
حية تشاطره أحاسيسه ومشاعره ، فالروض يبتسم أعجابا ،  
والنسيم يرق فيعتل اشفاقا والروض يفر ثغره ابتساما ، والنيلوفر  
الوسنان ينبه منه الصبح احداقا ، وقد أعجب نيكلسون بهذه

(١) الدخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٧ ، ومحاسن النساء ص ١٠٩ .

(٢) فلائد العقيان ص ٧٣ .

القصيدة الرائعة فجعلها نموذجا لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة التي يتميز بها الشعر الأندلسي (١) وشاعرنا مولع دائما بالربط بين جمال الطبيعة وجمال المرأة فكلاهما رائع الجمال وان تباينت السمات ، استمع الى وصفه لحبيبته وقد تهادت بين سرب من الحسنات الرشيقات :

وغصن ترشف ماء الشباب	ثراه الهوى ، وحناء الأمل
بدت في لدات كزهر النجوم	حسان التحلى ملاح العطيل
مشين يباهين روض الربا	بيانع روض الصبا المقتبل
فمن قضب تتثنى بريح	ومن قضب تتثنى بدل
ومن زهرات تندى بمسك	ومن زهرات تندى بطل (٢)

وهنا تبدو لنا مهارة الشاعر في المزج بين ألوان الجمال وولعه بالموازنة والتناسق الذي يبرز الوحدة في التنوع والتنوع في الوحدة، في بيان رائع يأخذ بالآل باب .

وشعوره بالطبيعة لا يكاد يفارقه حتى في غيابة السجن فانه يمزج شكواه بترانيمه الوجدانية التي يهديها الى مجالى الطبيعة في حبيبته او الى حبيبته في مجالى الطبيعة ، حيث يقول :

ما جال بعدك لحظى في سنا القمر  
الا ذكرتك ذكر العيين بالآثر  
في نشوة من سنان الوصل موهمة  
الا مسافة بين الوهن والسحر  
فليت ذاك السواد الجون متصل  
لو استعار سواد القلب والبصر (٣)

### المشاعر الوطنية والحب :

لهج شعراء الجاهلية بذكر مواطن الأحباب وبكوا على اطلالهم

(١) A Literary History of the Arabs P.425

(٢) الديوان ص ١٢٧ .

(٣) ص ٢٥١ .

البالية وربوعهم الخاوية من سقط اللوى وحومل الى حومانة الدراج  
والمثلثم الى الجواء وثهمد ؛ ولهم العذر في هذه الذكريات التى تحمل  
الى خيالهم الصور الوجدانية والمشاعر العاطفية السابقة ، ولكنها  
تبدو في شعرهم جامدة وترد متتابعة بحيث يضيق بها السامع ضيقا  
شديدا ، بهذا السرد الجاف ؛ اما هذه المواطن عند شاعرنا فانه  
استطاع ان يعرضها في صور حية نابضة بالمشاعر الوجدانية  
والذكريات العاطفية العذبة وقد علل هو نفسه هذا الاتجاه الوجدانى  
فقال : « . . . غير ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن  
الى وطنه حنين النجيب الى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضا فيها  
قوابله ولا ينسى بلدا فيها مراضعه . . » (١) ثم ذكر أنه سعد في  
موطنه الجميل ودرج في مهده الوضاء وعق الشباب به تمائمهم (٢) ، في  
هذه الربوع الفناة ، وسعد فيه بكل غزال مشرق الوجه وضاح :

سقى جنبات القصر صوب الفمائم  
وغنى على الأغصان ورق الحمائم  
بقرطبة الفراء دار الأكارم

بلاد بها عق الشباب تمائمى وانجبنى قوم هناك كرام  
فكم لى فيها من مساء واصباح  
بكل غزال مشرق الوجه وضاح  
يقدم أفواه الكئوس بتفاح (٣)

إذا طاعت في راحه أنجم الراح فانا لاعظام المدام قيام (٤)  
وإذا أبعدته الأحداث عن معاهد صباه ، ومرابع لهوه ، واقامت

---

(١) اللخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٤ ، النجيب : الفحل الكريم من الأبل ،  
القوابل : اللاتى يباشرن ولادة النساء .

(٢) عق الشباب تمائمهم : أزال الشباب ما كان يحمله في طفولته من الرقى  
والتعازيد .

(٣) يقدم : يغطى .

(٤) الديوان ص ١٢٩ .

الحوائل بينه وبينها فانه ينجيها كما ينجى المحب حبيبته في لهفة  
وهيام :

أليس عجيبا ان تشط النوى بك  
فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك  
ولم يلتئم شعبي خلال شعابك  
ولم بك خلقى بدؤه من ترابك

ولم يكتنفني من نواحيك منشأ (١)

والشاعر حينما يلهج بقرطبة ويهتف بالبنتى وجورفى الرصافة  
والعقاب والعقيق لا يكتفى بسرد الأسماء وانما يصف جمال هذه  
الربوع وما تحمله كل منها من ذكريات عذبة وصور رائعة :

ويوم لدى «البنتى» فى شاطئ النهر  
تدار علينا الراح فى فتية زهر  
وليس لنا فرش سوى يانع الزهر

يدور بها عذب اللما أهيف الخصر بفيه من الشجر الشنيب نظام

وكم مشهد عند العقيق وجسره  
قعدنا على حمير النبات وصفره  
وظبى يسقينا سلافة خمسه

حكى جسدى فى السقم رقة خصره لواحظه عند الرنو سهام  
والشاعر مخمستان طويلتان يلهج فيهما بهذه المواطن الجميلة  
ولا عجب ، فقد :

كساها الربيع الطلق وشى الخمائل  
وراحت لها مرضى الرياح البلائل (٢)  
وغادى بنوها العيش حلو الشمائل

---

(١) الديوان ص ١٣٣ أنشئ : اسم ، الشعب : الصدع .

(٢) الديوان ص ١٢٨ - ١٣٨ .

راحت : خفت وطابت ، البلائل : المبتلة .

ولا زال منا بالضحى والأصائل سلام على تلك الميادين يقرأ  
واحسن بأيام خلون مسوالم  
ب «مصنعة الدولاب» أو قصر «ناصر»  
تهز الصبا أثناء تلك الأباطح  
صفحة سلسال الموارد سائح ترى الشمس تجلو نصالها حين يصدأ  
فالشاعر معذور اذا بكى هذه المعاهد الجميلة المثيرة للذكريات :  
معاهد أبكيها لعهد تصرما  
أغض من الورد الجنى وأنعمنا  
لبسنا الصبا فيها جيداً منمنما  
وقدنا الى اللذات جيشاً عرمرماً له الأمن ردة ، والغضارة مرباً (١)  
فهى معاهد ذاق فيها حلاوة الحب وتمتع فيها بمجالي الطبيعة  
وذاق فيها متع الشباب ولذات الحياة :  
معاهد لهو لم تزل فى ظلالها  
تدار علينا للمجون مدام  
زمان : رياض العيش خضر نواضر  
ترف . وأمواه السرور جمام (٢)  
فان بان منى عهداً فبلوعة  
يشب لها بين الضلوع ضرام  
تذكرت أيامى بها ، فتبادرت  
دموع ، كما خان الفريد نظام  
محل غنينا بالتصاوى خلالة  
فأسعدنا والحادثات نيام (٣)

---

(١) الحبير المنمنم : الثوب الناعم الموشى ، الردء : الولى المعين ، الغضارة  
السعة والنعمة والخصب - الديوان ص ١٣٦ .  
(٢) جمام : غزيرة .  
(٣) الديوان ص ١٥٢ .

فالمعاهد ليست مجرد أماكن جامدة وإنما هي :

معاهد لذات وأوطار صسبوة

أجلت المعلقى فى الأمانى بها قدحا (١)

ولست الطبيعة عنده مواطن فحسب ، وإنما هى أزمنة ترتبط  
ارتباطا وثيقا بتلك المواطن :

أين إيامنا وأين لىال	كرىاض لبسن أفواف زهر
وزمان كأنما دب فىه	وسن أو هفا به فرط سكر
حين نغدو الى جداول زرق	يتغلغلان فى حدائق خضر
فى هضاب مجلوة الحسن حمر	وبراث مصقولة النبت عفر
نتعاطى الشمول مذهبة السر	بال ، والجو فى مطارف غير (٢)

وهنا نلاحظ اتساق الألوان على تباين الأشكال ونرى مزج المكان  
بالزمان ، ونشاهد كيف تدب الحياة فى الطبيعة فالأيام والليالى مثل  
الرياض المكسوة بالأزهار ، والزمان يترنح فى نشوة مرحة كأنما  
مالت به سنة الكرى أو رنحت عطفه نشوة المدام ، ويتكرر هذا  
المعنى فى شعره ، فنعيم العيش عنده كخضرة الخد الجميل المزين  
ببدء نمو الشعر فيه ، وساعات الزمان يجول فيها اللهو كما يترقرق  
الطل فى أحداق الأزهار :

وهل أنسى لديك نعيم عيش	كوشى الخد طرز بالعدار
وساعات يجول اللهو فيها	مجال الطل فى حدق البهار (٣)

---

(١) المعلقى أوفر سهام الميسر حظا ، والقدرح السهم قبل تهيئته وكانوا  
يستعملونه فى لعب الميسر - الديوان ص ١٦٠ .

(٢) الديوان ص ٣٣٣ ، الوسن : النوم ، هفا ، مال ، البرائى : الأرض  
السهلة الجميلة ، عفر : مائلة للبياض ، الشمول : الخمر ، المطارف البسة  
من خز مربعة لها أعلام والمراد أن الجو غائم .

(٣) الديوان ص ٢٠٥ - البهار : زهر أصفر طيب الريح يعبرف  
بمعين البقر .

وتشع هذه الصور في قصائده حتى في الرثاء فهو حين يرثى  
أبا الحزم بن جهور ويتحدث عن محبة ابنه المتغلغلة في أعماق النفوس  
ويذكر الخمر التي تدب في أعضاء الجسم ، كما يذكر الأمن وظلاله  
الندية وزهرة العيش التي أينعت كالزهر ، والدنيا التي رنحها  
الكرى أو مال بأعطافها السكر . وهنا نجد حب الشاعر للطبيعة قد  
أنساه موقف الرثاء :

أهابت إليه بالقلوب محبة  
هي السحر للأهواء بل دونها السحر  
سرت حيث لا تسرى من الأنفس المنى  
ودبت ديبا ليس يحسنه الخمر  
لبسنا لديه الأمن نندى ظلاله  
وزهرة عيش مثلما أينع الزهر  
وعادت لنا عادات دنيا ، كأنما  
بها وسن أو هز أعطافها سكر (١)

### الحب والصدقة :

وليس حب الشاعر مقصورا على المرأة ولا على الوطن وإنما  
يمتد الى الأصدقاء ؛ فحنينه الى حبيبته يختلط بنزوعه الى  
الطبيعة ويمتزج الاثنان بعاطفة الصداقة الجميلة ؛ فهو يناجيهم  
ويهفو اليهم في لهفة وشوق وهيام :

يضيق بأنواع الصبابة مذهبي  
الى كل رحب الصدر منكم مهذب  
مفضض للاء الأسارير مذهب  
ينافس منه البدر غرة كوكب      درى أنها أبهى سناء وأضوا  
اسقت فما ارتاح والراح تعمّل  
ولا أسعف الأوتار وهي ترسل  
ولا أرعوى عن زفرة حين أعذل

---

(١) الديوان ص ٥٢٥ .

ولالى مذ فارقتكم متعلل      سوى خبر منكم على النأى يطرا (١)  
وهو حينما يصف صديقه ابا القاسم بن رفق يمزج الوصف  
بالغزل ، فهو فكه ترد العيون منه مناهل البهجة والسرور وهو  
يخجل الورد بخلائقه الوضاعة ، واذا غازلته العيون كاد من الرقة  
يسيل ويتدفق :

بان عنى ، وكان روضة عيني  
فغدا اليوم وهو روضة فكرى  
فكه يبهج الخليل بوجه  
ترد العين منه ينبوع بشر  
لوذعى أن يبله الخبر يوما  
اخجل الورد عن خلائق زهر (٢)  
واذا غازلته مقلة طرف  
كاد من رقة يذوب فيجرى (٣)

ثم يناجيه ويناغيه :  
يا ابا القاسم الذى كان ردئى  
وظهيرى على الزمان وذخرى (٤)  
يا احق الورى بممحوض اخلا  
صى ، وأولاهم بغاية شكرى  
ليت شعرى - والنفس تعلم ان لى  
س بمجد على الفتى : ليت شعرى  
هل لحالى زماننا من رجوع  
أم لماضى زماننا من مكر (٥)

- 
- (١) الديوان ص ١٣٧ ، ١٣٨ . الاسابير : الخطوط الظاهرة في الجبهة ،  
ترسل : ترسل : تنساب في رفق ولين ، ادعوى : اكف ، اعدل : الام .  
(٢) اللوذعى : ظريف ، الخبر : التجربة .  
(٣) الديوان ص ٢٣٢ .  
(٤) الردء والظهر المعين المساعد .  
(٥) مكر : رجوع .

والشاعر لا يتغنى بجمال الطبيعة الا تغنى بحبيبته كما تغنى<sup>١</sup>  
بصداقاته :

على « الثغب الشهدى » منى تحية  
زكت ، وعلى « وادى العقيق » سلام  
ولا زال نور فى « الرصافة » ضاحك  
بأرجائها تبكى عليه غمام  
تذكرت أيامى بها فتبادرت  
دموع كما خان الفريد نظام (١)  
وصحبة قوم كالمصاييح كلهم  
— اذا هز للخطب الملم — حسام  
اذا طاف بالراح المدير عليهم  
أطاف به بيض الوجوه كرام  
ثم ينتقل الى ذكرى الحبيب :  
وأحور ساجى الطرف ، حشو جفونه  
سقام يرى الأجسام منه سقام (٢)  
تخال قضيب البان فى طى برده  
اذا اهتز منه معطف وقوام  
يدير — على رغم العدا من وداده  
سلافا ، كأن المسك منه ختام (٣)  
ولا نحب أن نطيل فى ذكر الأمثلة فالديوان حافل بهذه الظاهرة  
القوية التى يمتزج بها الحب بالصدقة بمظاهر الطبيعة الجميلة  
الفياضة .

---

(١) تساقطت دموعى كما تتساقط حبات العقد .  
(٢) أحور شديد بياض العين حول أنسانها الشديد السواد ، برى أنحل —  
ساجى الطرف : ساكنه فى حياء وخجل .  
(٣) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

## التقمص الوجداني :

كان تيودور ليس العالم النفسى Theodor Lipps والفيلسوف الألماني أول من كشف هذه الظاهرة أثناء بحوثه فى الخداع البصرى، وأسس من تجاربه نظرية ملخصها ان يحس الشخص ذاته داخل الموضوع الذى يعالجه ؛ وهذا التقمص وسيلة من وسائل الفهم والمعرفة وهو مزيج من الاستدلال الفكرى والحدس الالهامى والفعل الجسمانى ، والتقمص ليس مقصورا على الخبرة الجمالية بل انه هو المبدأ النفسى « السيكولوجى » لمنبع المعانى كلها . . . . . وأقام الفلاسفة والنقاد على هذه الظاهرة نظرية للجمال وان كانوا قد بالغوا فقصروا الادراك الجمالى عليها وحدها (١) ونستطيع ان نبسط هذه الظاهرة فنقول : « اننا نميل الى ان نحس انفسنا فى الموضوعات التى نمعن النظر اليها حتى نصبح نحن والصورة التى نراها والموسيقى التى نسمعها والمسرحية التى نشاهدها والقصة التى نقرأها شيئاً واحداً » ولعل لأمرتين أدرك بحسه المراهف هذه الظاهرة فعرف الشعر بأنه « احلال كل ما فى نفس الانسان وقلبه من مشاعر خاصة وكل ما فى عقله من تفكير مقدس فى الطبيعة ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع » (٢) والفن الكامل هو الذى تتعاون فيه جميع المواهب والمدارك ، ولهذا قرر جويو « ان التصوير فى الشعر يكون نتيجة لتعاون كل الحواس وكل الملكات » (٣) .

والدارس لآثار شاعرنا يراه يندمج بالطبيعة فى جميع فنون شعره ويتجاوب معها ويتأثر بها ويحاول التأثير فيها ، فهو يرتاح لريح الشمال ولريح الجنوب ويصبو لشذا ريح الشرق « الصبا » وينفعل مع البرق اذا ابتسم :

(١) ميادين علم النفس الجزء الأول ص ٤٧٥ .

(٢) تيارات أدبية ص ٢٤ .

(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ص ٧٣ .

وانى اراح اذا ما الجنو      ب راحت بر يا جنوب العلم  
واصبو لعرفان عرف الصبا      واهدى السلام الى ذى سلم  
ومن طرب عباد نحو البرا      ق اجهشت للبرق حين ابتسم (١)  
والنسيم حين يسرى يرق له فيعتل اشفاقا ، والندى يرثى له  
فيجول دمه رقراقا :

انى ذكرتك بالزهراء مششتاقا  
والافق طلق ووجه الروض قد راما  
والنسيم اعتلال فى اصائله  
كانه رق لى فاعتل اشفاقا  
نلهو بما يستميل العين من زهر  
جال الندى فيه حتى مال اعناقا  
كان اعينسه اذ عاينت ارقى  
بكت لما بى فجال الدمع رقراقا (٢)

وحين تفيض عاطفته الوجدانية يتجاوب مع الطبيعة تجاوبا  
كاملا فالحمامة الورقاء شفها الحزن كما شفها فباتت وبات يشكوان  
الهيام والغصن يهفو بيتهما ارتياحا لما يوقعانه من الحان الهيام :  
وارق العين والظلماء عاكفه

ورقاء قد شفها اذ شفى حزن

فبت اشكو وتشكو فوق ايكتهما

وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن (٣)

واذا سعد بلقاء حبيبته تخيل الوصل شخصا ثالثا يظللها

---

(١) الديوان ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ اراح : اراح ، الريا : الرائحة الجميلة ،  
اصبو : اميل ، العرف : الرائحة الزكية ، الصبا : الريح السريعة ، ذو سلم :  
واد بالحجاز ، اجهش : فزع بالبكاء .

(٢) الديوان ص ١٣٩ .

(٣) الديوان ص ١٦٢ .

بجناحيه ، والظلام يكتمهما في جانحتيه ولسان الصبح يعلنهما على شفتيه ، وكان السعد - من قبل - قد شدهما عن أجفان الرشاة :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا

والسعد قد غص من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا

حتى يكاد لسان الصبح يفشي لنا (١)

وهو كما يتأثر بالطبيعة يؤثر فيها سواء في نعيمه أم في بؤسه :

ان الزمان الذي مازال يضحكنا

أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

حالت لفقدكم أيامنا ، ففدت

سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

اذ جانب العيش طلق من تألفنا

ومورد اللهو صاف من تصافينا

واذ هصرنا فنون الوصل دانية

قطافها ، فجئنا منه ماشينا (٢)

وهو في محنته تظل صلاته بالطبيعة وثيقة فعليها ان تشاركه في

محنته كما شاركته في نعمته ، فعلى الغمام ان يبكيه ، وعلى البرق

ان يطالب بثأره ، وعلى النجوم ان تندبه وتقيم عليه المآثم :

الم يأن ان يبكي الغمام على مثلى

ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل

وهلا أقامت انجم الليل مآثما

لتندب في الآفاق ماضاع من مثلى (٣)

---

(١) الديوان ص ١٤٦ .

(٢) الديوان ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) منصلت النصل ظاهر الحد ، والنثل : ضرب من الطيب - الديوان

ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

حتى قريحته اذا انفدح زنادها أضاء شررها الظالماء ، والربيع  
يستعيد من خاطره النثر وينضد من وحيه الشعر :

ولولاك لم تثقب زناد قريحتي  
فينتهب الظلماء من نارها سقط  
ولا ألت أيدي الربيع بدائعي  
فمن خاطري نثر ، ومن روضه لقط (١)

وهو في مناجاته لحبيبته يمتزج معها بالطبيعة فالزمان استفاد  
جماله ونضرتة من شبابها ؛ والليل تقصر ساعاته مطارحة الهيام  
ومقارعة الكئوس ، والنسيم العليل يرق متجاوبا مع المناجاة  
والمناغاة :

واها لعطفك والزمان كأنما	صبغت غضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصر طوله	هاتى - وقد غفل الرقيب - وهاك
ولطالما اعتسل النسيم فخلاته	شكواى رقت فاقتضت شكواك
أما منى نفسى فأنت جميعها	يا ليتنى أصبحت بعض منك

حتى وصفه لشعره :

تنافسه الرياض منورات تنفس عن نوافحها الأصيل (٢)  
ولا عجب فالشعر عنده هو لؤلؤ الطل فوق عيون النرجس ،  
أو نسيم الروض تحت ظلام الحندس (٣) وهو منه بين السهل  
المطمئن أو الحزن الصعب (٤) أو بين اليأس والرجاء :

أسقيط الطل فوق النرجس ؟  
أم نسيم الروض تحت الحندس (٥)

---

(١) الديوان ٢٨٨ ، ٢٨٩ ثقب : انقد ، سقط ، شرر .

(٢) الديوان ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٣) ص ٣٢٣ .

(٤) الحندس الليلة المظلمة .

(٥) إشارة الى ما يطلقه النقاد على الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع .

أم نظام لال نسق ؟  
جامع كل خطسير منفس (١)

دلته فكري من ابداعه  
حيرة في منطق لي مخرس  
بت منه بين سهل مطمع  
خادع يتلى بحزن موئس (٢)

فلا شعر عنده الا لمن كانت قريحته حديقة غناء تتفتح فيها  
الأزهار وترف فيها الثمار :

ما الشعر الا لمن قريحته غريضة النور غضة الثمر  
تبسم عن كل زاهر ارج مثل الكمام ابتسمن عن زهر (٣)  
وقد أعان الشاعر خياله الخصب وعاطفته القوية فسهلا عليه  
عملية التقمص الوجداني :

يدبو بوصلك حين شط قراره وهم اكاد به اقبل فاك  
ما الورد في مجناه سامره الندى متحليبا الا ببعض حلاك  
كلا ولا المسك النوم اريجه متعطرا الا بوسم ثناك  
اللهو ذكرك لا غناء مرجع يفتن في الاطلاق والامسالك (٤)  
والشاعر حتى في مدائحه يستعير من الطبيعة التي امتزجت  
بلحمه ودمه وتفكيره ما يزين به مدائحه ، فخلائق ممدوحة :

هم تنافسها النجوم ، وقد تلا  
في سؤدد منها العقيب عقيبها

---

(١) عقد منظوم بالآلية النسقة ابداع تنسيق من كل فال ثمين .

(٢) الديوان ص ٢١٢ .

(٣) الديوان ص ٢٠٧ - غريضة فضة رطبة ، النور : الزهر الابيض ،  
ارج : زكى الرائحة الكمام : فلاف الزهر .

(٤) الديوان ص ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ - النوم : المديح ، الأريج توهج ربيع  
الطيب الوسم : العلامة الثنا " ، ر الثناء وهو المديح .

ومحاسن تندى رقائق ذكرها  
فتكاد توهمك المديح نسيبا

كالأس أخضر نضرة ، والورد أحمر

ر بهجة ، والمسك أذفر طيبا (١)

وتتجلى هذه الظاهرة في نثره كما تتجلى في شعره فهو في سجنه  
يخاطب أبا الحزم بن جهور قائلا : « وهل لبس الصباح إلا بردا  
طرزته بفضائك وتقلدت الجوزاء إلا عقدا فصلته بمأثرك ، واستملى  
الربيع إلا ثناء ملأته من محاسنك ، وبث المسك إلا حديثا أذعته في  
محامدك . . . » .

وفي مواقف الرثاء تستولى عليه هذه النزعة القوية فيقول في رثاء  
ابن ذكوان (٢) :

أين الحفاوة روضها غض الجنى ؟

أين الطلاقة ماؤها سلسال ؟

هيهات لا عهد كعهدك عائد

إذ أنت في وجه الزمان جمسال

حيا الحيا مشواك ، وامتدت على

ضماحي ثراك من النعيم ظلال

وإذا النسيم اعتل فاعتامت به

ساحاتك الغدوات والأصال

فأنت ترى في الرثاء تعبيرات لا تكاد تراها إلا في النسيب  
أو وصف الطبيعة ، فالروض غض الجنى ، والطلاقة ماؤها سلسال  
والفقيد في وجه الزمان جمسال ، وتمتد على ضريحه ظلال النعيم  
والنسيم يعتل فاعتامت به ، والأصل لتهديه إلى ساحته . . .

\* \* \*

(١) الديوان ص ٣٢٩ - مسك أذفر : شديد الطيب ..

(٢) الديوان ص ٧٠١ الديوان ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ السحب : المطر ، الضاحي

البارز للشمس ، أعنام : اختار .

والحقيقة أن هذه الظاهرة كانت قليلة قبل ابن زيدون ثم شاعت بعده في شعراء الأندلس وساعد على ازدهارها طبيعة البلاد الرائعة الفتانة ، ومن أبرز الشعراء الذين اندمجوا في الطبيعة وبرزت فيهم ظاهرة التقمص الوجداني ابن عمار وابن خفاجة من شعراء الأندلس الممتازين ؛ وهذه الظاهرة الواضحة جعلت بعض الباحثين الغربيين يقررون أن للأندلس صدى قويا في شعر الطبيعة عند الأوربيين وان اختلفت بينهما السمات بحسب اختلاف المواهب والبيئات ؛ وذكر أن لابن زيدون اثرا واضحا في شعر الطبيعة الأوربي الذي يربط بين الحب والطبيعة في كثير من الأحيان (١) وإذا كان مارتينو Mortino يقرر أن الفن وحده هو الذي يرد الطبيعة في

بعض نواحيها إلى الإنسانية (٢) فإن ابن زيدون استطاع بفنه أن يحمل الطبيعة على مشاطرته ما أحسه من أحلام وأشجان ومن الغريب أن معظم الباحثين لم يفتنوا لهذا الشعور العميق عند ابن زيدون ؛ وإن كان نيكلسون لمح هذا فجعل قصصه في الزهراء معبرة عن الشعور العميق بالطبيعة (٣) كما فطن من الباحثين العرب إلى هذه الظاهرة البارزة عند ابن زيدون أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة حيث قرر أن الاتجاه العاطفي الرمزي المتعلق بالطبيعة والذي اتجه إليه الأدب الأوربي في القرن التاسع عشر كان معروفا لدى العرب من يوم أن عرفوا الشعر وبخاصة شاهدوه رائعا جميلا في الأندلس واستشهد على هذا بقصيدة ابن زيدون في الزهراء ثم بمقطوعته البائية التي مطلعها (٤) :

متى أبشك ما بي يا راحتي وعذابي (٥)

(١) شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل ص ٢٦٨ ، ٣١٢ وتيارات أدبية

للدكتور إبراهيم سلامة ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٢) تيارات أدبية ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٤) Aliterary History of the Arabs P. 425

(٥) الديوان ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

ثم حلل هاتين التقصيدتين وعقب عليهما بقوله : « هذه الرمزية أو هذا التمثل في الطبيعة هو ما يريده النقد الأدبي ، وهو بعينه ما فهمه العرب من زمن بعيد ، وهو ما كان واضح الأثر جليا في طبيعة الأندلس الواضحة » (١) .

ولقد أشاد الباحثون الغربيون بعقريّة ابن زيدون فرآه كور المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء (٢) ويرى غومس « انه أعظم شاعر قديم أنجبته الأندلس (٣) ويرى نيكل انه كان ممثلا لأنقى أسلوب عربي منهجى في الأندلس وانه من الممكن موازنته بالمتنبى أو البحتري ... » ثم يقول : « ... وانه لولا تأثير ولادة عليه لفقد الشعر العربي أعظم جواهره الثمينة (٤) ويقرر جب « أن ابن زيدون يعتبر على الأرجح أعظم شعراء الأندلس بأغاني حبه المبكر وبرسائله الشعرية في أخريات حياته » (٥) ويقرر ليفى بروغنسال وهو من أكبر المستشرقين الدارسين للأندلس في العصر الحديث أن ابن زيدون « يعد بحق أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي الثاني ، والمتغنى بالحب الذي لا يعدله أحد ، وقد أوحى اليه اتصاله بولادة أشعارا رائعة الجمال متميزة في أكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذي تميز به شعر من سبقه من الشعراء ، وشعره الى ذلك ذو نزعة انسانية يكاد يشبه شعر الغربيين » (٦) ويذكر فيليب حتى « ان بعض الدارسين يعد ابن زيدون أعظم شعراء الأندلس على الإطلاق » (٧) .

(١) تيارات أدبية ص ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٢) In Zaidoun P.154

(٣) الشعر الأندلسي ص ٢٢ .

(٤) Hispano Arabic Poetry P.106,118

(٥) Arabic Literatus P. 78.

(٦) سلسلة محاضرات عامة في تاريخ الأندلس ص ١٥ .

(٧) تاريخ العرب المطول ج ٣ ص ٦٦٤ .

ولقد أولع كثير من المستشرقين في دراساتهم للأدب المقارن بالاعتباس من ابن زيدون وموازنته بالمشهورين من شعرائهم الفزليين كما ترجموا كثيرا من آثاره اشرنا اليها في بحثنا السابق عنه (١) .

وبعد : فقد حان لابن زيدان ان يحتل مكانه الجدير به في سجل الآداب العربية قديمها وحديثها سواء في شعره أم في نثره ، وحن لنا ان نولى تاريخ الأدب الأندلسي ما يستحقه من عناية وتقدير .

ومن يمن الطالب ان يتجه كثير من الباحثين الآن الى هذا الأدب محققين أو دارسين ما تيسر لهم من تراثه المجيد وهي الخطوة السابقة للبحث العميق في دراسة هذه الآداب وابرار مقوماتها الفنية الأصيلة . وقد تم حديثا نشر ديوان ابن دراج الأندلسي والأعمى التطيلي وابن خفاجة الأندلسي ، وكلها محققة تحقيقا علميا دقيقا ونرجو ان يستمر هذا الاتجاه العلمي الرشيد وبقدر ما يبدل من جهود نصل الى نتائج قيمة ونرود جنات يانعة ونقطف ثمارا ناضجة وازهارا متفتحة وظلالا وارفة ، ونستطيع ان نضيف الى تراثنا التليد آثارا جديدة بالروعة والخلود .

---

(١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

## مصادر البحث

لا يتسع المجال للذكر جميع مصادر هذا البحث ، ولقد ذكرناها في هامش الصفحات ، ومن شاء استبقاها فليرجع الى كتابنا « ابن زيدون عصره وحياته وادبه » من صفحة ٥٤٩ - ٥٦٨ ونكتفى هنا بذكر أشهرها ونبدأ بالمخطوطات والمصورات أولا .

- ١ - اعتاب الكتاب لابن الأبار مخطوط رقم ٨٧٨ تاريخ تيمور بدار الكتب .
- ٢ - ترتيب المدارك للقاضي عياض مخطوط رقم ١١٦٨٩ بدار الكتب .
- ٣ - تمام المتون الى شرح رسالة ابن زيدون للصفدي مخطوط ٢٤٨ أدب بدار الكتب .
- ٤ - جدوة المقتبس للحميدي نسخة مصورة عن نسخة اكسفورد رقم ١١٩٧٥ ح بدار الكتب .
- ٥ - الحلة السراء لابن الأبار نسخة الجامعة العربية .
- ٦ - خريدة القصر للأسفهانى فى الجزء الحادى عشر مخطوط رقم ١٠٠٩٨ ز
- ٧ - الكوكب الثاقب للسلوى الأندلسى رقم ٣٣٥ تاريخ تيمور .
- ٨ - المختار من شعر شعراء الأندلس نسخة خطية وحيدة فى العالم بمكتبة حسنى عبد الوهاب بتونس .
- ٩ - مسالك الأبصار للعمري الجزء العاشر مخطوط رقم ٨ م معارف عامة .
- ١٠ - نزهة الجلساء للسيوطى مخطوط رقم ٨١٣ شعر تيمور .
- ١١ - ابن زيدون عصره وحياته وادبه للمؤلف نشرته مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٥ .
- ١٢ - الاحاطة فى اخبار غرناطة لابن الخطيب ، مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣١٩ .
- ١٣ - اظهر المكنون لمصطفى عنانى مطبعة المعارف الاهلية سنة ١٣١٧ هـ .

- ١٤ - أعمال الأعلام لابن الخطيب المطبعة الجديدة بالرباط سنة ١٩٣٤ .
- ١٥ - بغية الملتبس المصنوع ، مطبعة روخس بمدريد سنة ١٨٨٤ .
- ١٦ - البيان المقرب الجزء الثالث للمراكشى طبع باريس سنة ١٩٣٠ .
- ١٧ - ديوان ابن زيدون ورسائله تحقيق المصنف مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ .
- ١٨ - اللخيرة لابن بسام الأجزاء الأول والثاني والرابع ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢ .
- ١٩ - شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن بنان - المطبعة الاميرية بالقاهرة في عهد سعيد باشا .
- ٢٠ - الصلة لابن بشكوال طبع مدريد سنة ١٨٨٢ .
- ٢١ - فوات الوفيات لابن شاعر - المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٢٨٣ .
- ٢٢ - قضاة قرطبة للخشنى طبع مصر سنة ١٣٧٣ هـ .
- ٢٣ - قلائد العقيان للفتح بن خاقان - المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٢٨٣ .
- ٢٤ - مطمح الانفس للفتح بن خاقان مطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٣٠٢ هـ .
- ٢٥ - العجب للمراكشى - مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ .
- ٢٦ - ملوك الطوائف لدوزى تعريب كامل كيلانى مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٣٣ .
- ٢٧ - نفع الطيب للمقرى طبع لندن سنة ١٨٦١ .  
ومن أهم المراجع الاجنبية .

## مراجع

1. Hispano Arabic Poetry By Dr. A.R. Nykl. Baltimore 1964.
2. Spanish Islam By Dozy Translated By Stokes London 1913.
3. The Moors in Spain By Lane - Poole & Gilman London 1920.
4. Ibn Zaidoun Par Auguste Cour (Constantine 1920.



# فهرس

صفحة

مقدمة	٣
القسم الأول - الفردوس المفقود	١٥
الفصل الأول	١٦
الخضارة الأندلسية	١٦
الفصل الثاني	٣٠
الأحداث السياسية	٣٠
الفصل الثالث	٤٤
الحياة الأدبية	٤٤
القسم الثاني - الأديب الموهوب	٦١
الفصل الأول	٦٢
بداية صالحة	٦٢
الفصل الثاني	٨٣
أحداث عاصفة	٨٣
الفصل الثالث	١٠٥
عاطفة عميقة	١٠٥
الفصل الرابع	١٣٦
محنة قاسية	١٣٦
الفصل الخامس	١٦٠
سياسة حكيمة	١٦٠
القسم الثالث - صفحة الخلود	١٨٧
الفصل الأول	١٨٨
معالم الصورة	١٨٨
الفصل الثاني	٢٠٩
شاعر الحب والجمال	٢٠٩
مصادر البحث	٢٤٧



## صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ - محمد عبده	هياص العقاد
٢ - المعتمد بن عباد	علي أدهم
٣ - جابر بن حيان	د . زكي نجيب محمود
٤ - عبد الرحمن بن خلدون	د . علي عبد الواحد وافي
٥ - ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ - معاوية	ابراهيم الابياري
٧ - سيد درويش	د . محمد احمد الحفنى
٨ - عبد القادر الجرجاني	د . احمد بدوى
٩ - عبد الله النديم	د . علي الحديدى
١٠ - عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الرئيس
١١ - مالك	امين انخولى
١٢ - القلقشندي	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ - الطبرى	د . احمد محمد الحوفى
١٤ - الظاهر بيبرس	د . سميد عبد الفتاح عاشور
١٥ - ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ - المختار الثقفى	د . علي حسنى الخربوطلى
١٧ - الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ - الأصمعى	د . احمد كمال زكى
١٩ - زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ - قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ - شكيب أرسلان	احمد الشرباصى
٢٢ - ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ - أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ - عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ - الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ - الكندى	د . احمد فؤاد الاهوائى
٢٧ - صاحب بن عباد	د . بدوى طبائه
٢٨ - الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ - احمد زكى	أنور الجندى
٣٠ - حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين

عقيد محمد فرج	...	٢١ - المثني بن حارث الشيباني
عبد القادر أحمد	...	٢٢ - مظفر الدين كوكبوري
د . إبراهيم أحمد العدوي	...	٣٣ - رشيد رضا
د . محمود أحمد الحفنى	...	٣٤ - اسحاق الموسلى
د . زكريا إبراهيم	...	٣٥ - أبو حيان التوحيدى
د . أحمد كمال زكى	...	٣٦ - ابن المعتز العباسى
د . ماهر حسن فهمى	...	٣٧ - الزهاوى
د . مائشة عبد الرحمن	...	٣٨ - أبو العلاء المعرى
د . حسين فوزى النجار	...	٣٩ - أحمد لطفى السيد
د . فوقيه حسين	...	٤٠ - الجوينى امام الحرمين
د . سعيد عبد الفتاح ماشور	...	٤١ - صلاح الدين الأيوبى
محمد عبد الفنى حسن	...	٤٢ - عبد الله فكرى
د . على حسنى الخربوطلى	...	٤٣ - عبد الله بن الزبير
أنور الجندي	...	٤٤ - عبد العزيز جاویش
عبد الرؤف مخلوف	...	٤٥ - ابن رشيد القيروانى
محمود خالد الهجرى	...	٤٦ - محمد عبد الملك الزيات
محمود غنيم	...	٤٧ - حفنى ناصف
د . سيدة اسماعيل الكاشف	...	٤٨ - أحمد بن طولون
أحمد سعيد الدمرداش	...	٤٩ - محمود حمدي الفلكى
محمد عبد الفنى حسن	...	٥٠ - أحمد فارس الشدياق
د . على حسنى الخربوطلى	...	٥١ - المهدي العباسى
د . محمود رزق سليم	...	٥٢ - الأشرف قانصوه الغورى
د . حسين فوزى النجار	...	٥٣ - رفاعه الطهطاوى
د . محمود أحمد الحفنى	...	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	...	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا إبراهيم	...	٥٦ - ابن حزم الأندلسى
د . بول غليونجى	...	٥٧ - ابن النفيس
د . سعيد عبد الفتاح ماشور	...	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هداره	...	٥٩ - السامون
محمد عبد الفنى حسن	...	٦٠ - المقبرى
عبد الرحمن الرافعى	...	٦١ - جمال الدين الأفغانى
د . أحمد كمال زكى	...	٦٢ - الجاحظ
د . أنور عبد العليم	...	٦٣ - ابن ماجه
د . ماهر حسن فهمى	...	٦٤ - محمد توفيق البكرى
د . على محمد الحديدي	...	٦٥ - محمود سامى البارودى
على عبد العظيم	...	٦٦ - ابن زيدون



دار الكاتب العرب للطباعة والنشر

